المشرق

آب وايلول ١٩٣٩

مرقس صاحب الانجيل الثاني

بقلم الاب انطون صالحاني اليسوعي

يروى في انجيل مرقس (١٤: ٥٠–٥٢) انه لما هرب التلاميذ وتركوا يسوع في بستان الزيتون بعد أن قبض عليه اعداؤهُ «كان يتبعهُ شابٌ عليه ازار على عُريه فأمسكوه فترك الازار وهرب منهم عرياناً». فارتأى كثيرون من مفسّري الكتاب المقدس ان الشابَّ كان مرقس الانجيلي نفسه. وهذا الرأي لا نرتاب في صحته، لانّ مرقس وحده ذكرَ هذا الحادث اذ كان هو موضوعه وكان يصعب جدًّا على غيره ان يطّلع عليه في تلك الظروف وفي ذلك الاضطراب الذي وقع حينئذٍ في البستان، خاصةً لان التلاميذ كانوا هربوا كلّهم. فنقدِّر ان مرقس كان نائماً في منزلٍ قريب من بستان الزيتون. فعندما سمع الصراخ والضجة هبَّ من النوم مسرعاً والتحف بازاره وبادر الى محلّ الحادث ليعرف ما السبب. فظنَّ اعداء يسوع ان الشاب من تلاميذه فهمّوا ان يقبضوا عليه، فهرب منهم تاركاً ازاره بين ايديهم. ومن هذه الآية نستنتج ان

مرقس كان اذ ذاك شابًا وانه هو الكاتب للانجيل الذي يُعرف باسمه

من هو مرقس ؟

يكفينا ان نفتح سفر اعمال الرسل الذي ألّفه لوقا الانجيلي لنعرف من هو مرقس . فان هذا السفر يذكر رجلًا مسيحيًا في اورشليم يسمّيه تارة « يوحنا » (اعمال ١٣ : ٥ — ١٣) . واخرى « يوحنا الملقب مرقس » (اعمال ١٢ : ١٢ و٢٥) او «يوحنا المسمّى مرقس» (اعمال ١٥ : ٣٧) .وفي موضع آخر يسمّيه «مرقس» بدون لقب (اعمال ١٥ : ٣٩) . ويتضح من الآيات التي اشرنا اليها من اعمال الرُسل ان المسمّى « يوحنا » او « يوحنا الملقّب مرقس » هو الشخص ذاته . لا يخفى على احد ان اليهود بعد ان اختلطوا باليونان والرومانيين كثيرًا ما كانوا يتخذون لهم اسمين الواحد عبراني والآخر يوناني او روماني. وقد بيّنّا ذلك في المشرق[1] في مقالتنا على نسب السيد المسيح . فشاول مثلًا اتخذ اسم بولس (Paulus)[2] . فالاسم يوحنا اسم عبراني . ومرقس اسم روماني . فيوحنا هذا الملقب مرقس هو الانجيلي مرقس صاحب الانجيل الثاني. اذ انه من المقرَّر ان انجيل متى سبق. وتلاه انجيل مرقس ثم انجيل لوقا. وآخر الكل كتب يوحنا انجيله.

يُستنتج ايضاً من سفر اعمال الرُسل ان عائلة مرقس كانت من العيَل المسيحية المشار اليها في اورشليم . وكان يجتمع في منزلها الرحب قوم كثيرون من المسيحيين . وكانت هذه العائلة في يسر من العيشة تخدمها جارية اسمها رودة . وكانت توثقت الصداقة بين هذه العائلة وبطرس الرسول. ولعل سبب ذلك انها آمنت بالمسيح على يده . يخبرنا سفر اعمال الرسل (ف ١٢) ان

---

١) (المشرق ٣٦ : [١٩٢٨] ٤٨٨)

٢) ان لوقا في سفر اعمال الرسل لم يعطِ بولس في الفصول الاولى من كتابه الا الاسم «شاول». اما من الآية ٩ من الفصل ١٣ فلم يعُد يسميه الّا «بولس» «اما شاول وهو بولس». وقد اتخذ بولس هذا الاسم لسببين: الاول اكرامًا لوالي بافُس من جزيرة قبرس سرجيوس بولس الذي آمن بالمسيح على يده ، والثاني لان هذا الاسم بولس كان يجعل الرسول مقبولًا اكثر عند الوثنيين عندما يجتاز في مدنهم ويبشرهم بالمسيح

هيرودس كان ألقى الايدي على قوم من الكنيسة ليُسيء اليهم وقتل بالسيف الرسول يعقوب بن زبدى . واذ رأى ان ذلك يُرضي اليهود ، عاد فقبض على بطرس وجعله في السجن وفي عزمه ان يقدّمه الى الشعب بعد عيد الفصح . الّا ان ملاك الرب وقف ببطرس في ليلة اليوم الذي فيه كان ازمع هيرودس ان يقتله ، ففكّ قيوده وفتح امامه ابواب السجن واخرجه سالماً . فلمّا نجا بطرس من السجن « توجّه الى بيت مريم امّ يوحنا الملقب مرقس حيث كان قوم كثيرون مجتمعين يصلّون » لاجل نجاته . فمن ذكر مريم ام يوحنا دون ذكر ابيه نستنتج بكل صواب ان ابا يوحنا كان قد توفي . الامر الذي جعل يوحنا عزيزاً على برنابا كما سنرى . حتى ان برنابا في ما بعد فضّل الافتراق عن بولس الرسول لكي يُبقي معه يوحنا المسمّى مرقس

ونعرف ايضاً من رسالة بولس الرسول الى اهل كولسّي (٤ : ١٠) انه كانت قرابة بين مرقس وبرنابا : « يسلّم عليكم . . . مرقس نسيب برنابا » يقال ان مرقس كان ابن اخت برنابا . وبما ان برنابا كان قبرسي الاصل ومن اللاويين كما يؤكد ذلك سفر الاعمال (٤ : ٣٦) : « يوسف الذي لقّبه الرسل برنابا الذي تأويله ابن العزاء اللاوي القبرسي الاصل . . . » فمن المحتمل ان مرقس ايضاً نسيبه كان قبرسيّ الاصل ومن اللاويين.

كان برنابا في اول امره ذا نفوذٍ ومُقدّماً على بولس . يُخبرنا سفر اعمال الرُسل (١١ : ٢٠ — ٢٤) انه لمّا ثار الاضطهاد ، وتبدد الاخوة من اجل الضيق الذي حصل بسبب اسطفانوس ، ذهب بعضهم الى انطاكية وبشروا اليونانيين بالرب يسوع « فآمن عدد كثير ورجعوا الى الرب . فبلغ خبر ذلك الى مَسامع الكنيسة التي باورشليم فارسلوا برنابا الى انطاكية فلما اقبل ورأى نعمة الله فرح ووعظهم كلهم بان يثبتوا في الرب بعزيمة القلب . لانه كان رجلاً صالحاً وممتلئاً من الروح القدس ومن الايمان فانضمّ الى الرب جمع كثير » . فهو برنابا الذي اوصى ببولس وقدّمه للتلاميذ الذين لم يكونوا يثقون به بل كانوا يخافونه . « ولمّا اقبل [بولس] الى اورشليم التمس ان يتصل بالتلاميذ لكنهم كانوا يخافون منه ولم يصدّقوا انه تلميذ فأخذه برنابا ودخل به على الرُسل وبيّن لهم كيف رأى

الربّ في الطريق وانه كلّمه وكيف بشّر باسم يسوع في دمشق بجرأة » (اعمال ٩: ٢٦و٢٧) . وهو برنابا الذي بعد ان أُرسل الى انطاكية للاعتناء بمن آمن من اليونانيين، وتحقّق الخير العظيم المأمول، توجه الى طرسوس واتى بشاول ليعاونه في العمل . « ثم خرج برنابا الى طرسوس في طلب شاول ولمّا وجده اتى به الى انطاكية وتردّدا معاً سنة كاملة في هذه الكنيسة وعلّما جمعاً كثيراً حتى ان التلاميذ دُعوا مسيحيين بانطاكية اولاً » (اعمال ١١: ٢٥و٢٦) . وكان مرقس اذ ذاك مُقيماً في اورشليم يتردّد على بطرس يسمع مواعظه.

وحدث بعد ذلك ان وقعت مجاعة عظيمة . فعزم المسيحيون في انطاكية على اسعاف اخوتهم في اليهودية فارسلوا صدقاتهم الى الشيوخ على ايدي برنابا وشاول. فلمّا اتمّا خدمتهما وعادا الى انطاكية رغبا في ان يأخذا معهما مرقس ليساعدهما في التبشير: « ورجع برنابا وشاول من اورشليم بعد ان قضيا خدمتهما واخذا معهما يوحنا الملقب مرقس » (اعمال ١٢: ٢٥) . وكان في الكنيسة التي بانطاكية انبياء ومعلمون. . . وبينما هم يخدمون للربّ ويصومون قال لهم الروح القدس أفرزوا لي شاول وبرنابا للعمل الذي دعوتهما اليه. فصاموا حينئذٍ وصلّوا ووضعوا ايديهم عليهما وصرفوهما. . . فانحدرا الى سلوكية. ومن هناك اقلعا الى قبرس. ولمّا انتهيا الى سلامينا بشّرا بكلمة الربّ في مجامع اليهود . وكان معهما يوحنا [المسمّى مرقس] يخدمهما. واجتازا في الجزيرة كلها الى بافس. ولما اقلع بولس ومن معه من بافس اتوا الى برجة بمفيلية ففارقهما يوحنا وعاد الى اورشليم (اعمال ١٣: ١ — ٤) . فشقّ هذا الافتراق على بولس. وكان ذلك في السنة ٤٨

وبعد ثلاث سنوات في السنة ٥٠—٥١ بعد المجمع الذي عُقد في اورشليم، عزم بولس ان يفتقد مع برنابا الاخوة في كل مدينة بشّرا فيها سابقاً بكلمة الرب . فارتأى برنابا ان يأخذا معهما يوحنا المسمّى مرقس. الّا ان بولس كان يستحسن ان لا يُؤخذ معهما من كان فارقهما من بمفيلية ولم يذهب معهما للعمل . فوقعت بينهما مشاجرة حتى فارق احدهما الآخر . فاخذ برنابا مرقس واقلع الى قبرس. واختار بولس سيلا وطاف سورية وكيليكية يثبّت الكنائس ويسلم اليهم وصايا الرسل (اعمال ١٥: ٣٥— ٤١) . الّا ان الفتور الذي حدث

بين بولس ومرقس لم يُدم زمناً طويلاً . لاننا نشاهد مرقس رفيقاً لبولس في رومية في السنة ٦٠—٦١ حيث كان بولس في اسره الاول ينتظر حكم قيصر في الدعوى التي كان رفعها اليه . ففي الرسالة التي انفذها بولس من رومية الى فيلمون نقرأ ما يلي : «يسلم عليك ابفراس الاسير معي في المسيح يسوع ومرقس وارستركس وديماس ولوقا معاونيَّ» (فيلمون ١ :٢٣و٢٤). وفي رسالته الى اهل كولسي (٤ :١٠و١١) كتب بولس : «يسلّم عليكم ارستركس الاسير معي ومرقس نسيب برنابا الذي اخذتم في حقه وصايات . فاذا قدم اليكم فاقبلوه . ويسوع المسمّى يُستُس الذين هم من اهل الختان . هؤلاء وحدهم عاونوني في امر ملكوت الله وهم كانوا لي تعزية ». فكان اذاً مرقس معاوناً لبولس في رومية وتعزية له في اسره الاول . وكان عزم ان يفتقد كنيسة كولسي واخذ وصايات لذلك من بولس .

ولنا برهان آخر على اعتبار بولس لمرقس واحتياجه اليه . فان بولس في اسره الثاني في رومية الذي سبق استشهاده وُجد تقريباً وحده لان معاونيه كانوا افترقوا عنه للتبشير . وكان مرقس ايضاً بعيداً عنه في الشرق . فكتب الرسول الى تيموثاوس الذي كان وقتئذٍ في افسس (٢ تيموتاوس ٤ :١١) يستدعيه واوصاه قائلاً : «معي لوقا وحده فاستصحب مرقس واقدم به فانه ينفعني في الخدمة » هذه آخر شهادة أداها بولس لمرقس وفيها احسن مديح لهذا الخادم الامين والعامل النشيط المتواضع .

ولنا شهادة اخرى من بطرس الرسول تبين المودَّة التي كانت تملأ قلبه نحو مرقس الذي يسميه ابنه . ففي رسالته الاولى التي وجهها من رومية الى كنائس بنطس وغلاطية وكبادوكية واسية وبيثينية يبلغهم سلام مرقس : « تسلم عليكم الكنيسة المختارة التي في بابل[1] ومرقس ابني » (١ بطرس

١) المراد ببابل في هذه الآية مدينة رومية . سماها بطرس بهذا الاسم لانها كانت اذ ذاك مركز عبادة الاوثان والفواحش كما كانت قديماً مدينة بابل . وهكذا سمّى ايضاً يوحنا رومية في سفر الرؤيا (١٨ :٢ و١٠) : «سقطت سقطت بابل العظيمة » . « الويل الويل ايتها المدينة العظيمة بابل المدينة القوية فان دينونتك قد ترلت في ساعة واحدة .»

١٣:٥) . فلا ريب في ان مرقس كان معروفاً في تلك الكنائس لانه كان افتقدها وخدمها. كان وقتئذٍ مرقس مع بطرس في رومية قبيل الاضطهاد الذي اثاره نيرون على المسيحيين سنة ٦٤ وفيه استشهد هامة الرسل.

انجيل مرقس

ان التقليد في الكنيسة الاولى ينسب الانجيل الثاني الى القديس مرقس . واصحاب النقد في عصرنا حتى العقليّون منهم اضطروا ان يعترفوا بهذه الحقيقة. والتقليد ذاته يقول بانه يوجد ارتباط بين انجيل مرقس وتعليم بطرس هامة الرسل . فقد حفظ لنا مرقس في انجيله ما كان يُلقيه بطرس الرسول من المواعظ والارشادات على المسيحيين الاولين. وقد شهد بذلك اقدم آباء الكنيسة اولهم بابياس اسقف هيرابوليس في فريجية . فهذا دوّن بالكتابة في نواحي السنة ١٢٣ للمسيح تقاليد العصر الرسولي . فنقل لنا ما قاله الكاهن يوحنا تلميذ المسيح ومعاصر الرسل . واليك كلام بابياس ، كما اورده اوسابيوس[1] : « هذا ما قاله الكاهن : كان مرقس ترجماناً لبطرس فكتب بتدقيق ولكن بدون نظام ما حفظه من اقوال الرب واعماله . لم يكن مرقس عرف الرب ولم يتتلمذ له . لكنه في ما بعد رافق بطرس كما سبق القول . كان بطرس يُلقي مواعظه كما كانت تقتضيه الاحوال والظروف دون ان يؤلف بترتيب اقوال الربّ . فدوّنها مرقس كما سمعها وحفظها . ولم يكن له من الهمّ سوى ان لا يُهمل شيئاً ولا يغيّر شيئاً مما سمعه.»

فيُستنتج من هذا النصّ ان مرقس بعد ان عاون بطرس في التعليم ، وكان له ترجماناً لدى الشعب بنقل مواعظه من الآرامية الى اليونانية وكان عارفاً باللغتين ، دوّنها في ما بعد بالكتابة كما سمعها دون نُقص ولا زيادة.

ولدينا شهادات أُخر . فالكتبة الكنانسيون الذين عاشوا في العصر التالي قد اثبتوا الحقيقة ذاتها ، اي الارتباط الوثيق الموجود بين مواعظ بطرس وانجيل

---

١) تاريخ اوسابيوس ك ٣ ف ٣٩ ، راجع مين الآباء اليونان المجلد ٢٠ العمود ٣٠٠

مرقس . فالقديس الشهيد يوستينوس الذي كتب في السنة ١٠٥ للمسيح[١] في محاورته مع تريفون العدد ١٠٦ عندما يذكر آية مرقس (٣ : ١٦ و١٧) وفيها الكلام عن تبديل اسم سمعان باسم بطرس واعطاء اللقب بوانرجس اي ابنا الرعد لابني زبدى يعقوب ويوحنا يعبّر عن انجيل مرقس بهذه العبارة الفريدة « مذكّرات بطرس ». وقد برهن المؤلف الانكليزي البروتستاني ستانتون[٢] ان يوستينوس يشير الى انجيل مرقس لا الى انجيل الزور المنسوب لبطرس.

والقديس ايريناوس اسقف ليون من اعمال فرنسة في نواحي السنة ١٨٠ قال: « بعد موتهما (اي موت بطرس وبولس) مرقس تلميذ بطرس وترجمانه نقل لنا بالكتابة ما كان وعظه بطرس»[٣]

وترتليانوس في افريقية في كتابه ضدّ مركيانوس[٤] قال : « ان ما كتبه مرقس يُنسب لبطرس وكان مرقس ترجمانه.»

. واكلمنضوس الاسكندري ، كما اورد ذلك اوسابيوس المؤرخ[٥] قال: ان الذين سمعوا مواعظ بطرس لم يكتفوا بان يسمعوا تعليم الكلمة الالهية الشفاهي فترجّوا مرقس ان يدوّن لهم بالكتابة ما كانوا سمعوه وكانوا السبب بالحاحهم ليكتب مرقس الانجيل المنسوب اليه.

واورجين يضع في الرتبة الثانية « الانجيل الذي كتبه مرقس حسبما علّمه بطرس »[٦]

ولنا من انجيل مرقس ذاته دليل على انه نتيجة مواعظ بطرس ، فشخصية هذا الرسول تتجلّى فيه لان الواعظ المتواضع يسكت عما يجلب له المديح ويذكر ما يكون نقصاً فيه. وهكذا يظهر بطرس في انجيل مرقس. فلم يذكر مرقس كما ذكر متى (١٦ : ١٦ — ١٩) وعد يسوع المسيح لبطرس بانه يجعله

١) مين الآباء اليونان المجلد ٦ العمود ٧٢٩

٢) Vincent Henry Stanton. *The Gospels as Historical documents Part. I, pp 93 sq. Cambridge 1923*

٣) ضدّ الهرطقات ك ٣ ف ١ العدد ١ ، راجع مين الآباء اليونان المجلد ٧ العمود ٨٤٤

٤) ك ٤ ف ٥ ، راجع مين الآباء اللاتين المجلد ٢ العمود ٣٩٦

٥) تاريخ اوسابيوس ك ٦ ف ١٤ ، راجع مين الآباء اليونان المجلد ٢٠ العمود ٥٥٢

٦) تاريخ اوسابيوس ك٦ ف ٢٥ العدد ٥ ، راجع مين الآباء اليونان المجلد ٢٠ العمود ٥٨١

اساس الكنيسة ويسلمه مفاتيح ملكوت السماوات. مع انه ذكر مجاهرة بطرس بان يسوع هو المسيح (مرقس ٨: ٢٩). ولم يتكلم مرقس عن مشي بطرس على المياه كما ذكر ذلك متى (١٤: ٢٨ - ٣١). ولا عن صيد السمكة التي وجد في فمها استارًا فدفع الجزية عن يسوع وعنه (متى ١٧: ٢٤و٢٥). ولا عن صلاة يسوع لاجل بطرس بنوع خاص لئلا ينقص ايمانه (لوقا٢٢: ٣٢). ولا عن تخصيص يسوع لبطرس ليحضر كل ما يلزم لاكل الفصح (لوقا ٢٢: ٨). فلم يذكر مرقس كل هذه الامور لان بطرس من تواضعه لم يكن يتكلم عنها في مواعظه.

وبالعكس نرى مرقس يتكلم باسهاب اكثر من غيره من الانجيليين عن جحد بطرس ليسوع في دار رئيس الكهنة (مرقس ١٤ : ٦٦ - ٧٢) ويصرح بتوبيخ يسوع له (مرقس ١٤ : ٣٧). فمن كل ذلك نستنتج بكل صواب ان انجيل مرقس هو صدى مواعظ بطرس.

لمن كتب مرقس انجيله ؟

لم يكتب مرقس لاجل اليهود المتنصرين كما فعل متى، ولا لاجل سكان اورشليم واليهودية . بل لاجل المسيحيين المرتدين من الوثنية في رومية . لان اليهود وسكان اليهودية لم يكونوا يحتاجون الى تفسير الالفاظ الآرامية التي وردت في انجيل مرقس مثل «بوانرجس» (٣ : ١٧) اي ابنا الرعد . و«طاليتا قومي» (٥: ٤١) اي يا صبية قومي و «قربان» (٧: ١١) اي هدية. و «افتح» اي انفتح (٧: ٣٤). و «برتيماوس» (١٠: ٤٦) اى ابن تيماوس. و« ابًا» (١٤: ٣٦) اي ايها الأب. و «ألوهي ألوهي لما شبقتني» (١٥: ٣٤) اي الهي الهي لماذا تركتني. ولم يكن اليهود محتاجين الى شرح العبارة «اليوم الاول من الفطير» (١٤: ١٢) بقوله « اذ كانوا يذبحون الفصح». و«التهيئة» (١٥: ٤٢) بقوله «التي هي قبل السبت»

ويذكر مرقس عادات لليهود لم يكن هؤلاء ليجهلوها كقوله: «ان الفريسيين وسائر اليهود لا يأكلون ما لم يغسلوا ايديهم مرارًا تمسكًا بسنة الشيوخ : واذا جاؤوا من السوق لا يأكلون ما لم يغتسلوا واشياء اخرى كثيرة قلدوها ليتمسكوا بها من غسل كؤوس وجرار وآنية نحاس وأسرّة» (مرقس ٧: ٣و٤). ويبين موقع

جبل الزيتون بالنسبة الى هيكل اورشليم : « بينما هو جالس في جبل الزيتون قبالة الهيكل» (مرقس ١٣ : ٣)

ثم ان مرقس يستعمل الفاظاً لاتينية مثل «دينار» (٦ : ٣٧) . « قنطوريون » (١٥ : ٣٩ و٤٤ و٤٥) اي قائد مائة . «ليجيون» (٥ : ٩) اي جوقة . « بريتوريوم» (١٥ : ١٦) المحكمة . «فلاجيلوم» (١٥ : ١٥) مجلدة . «سبيكولاتور» (٦ : ٢٧) سياف . ويفسر « الفلسين » (١٢ : ٤٢) بعملة رومانية : « كوارتس » اي ربع .

وعرّف سمعان القيريني بابنيه الاسكندر وروفس (١٥ : ٢١) المعروفين عند سكان رومية . ولعلّ روفس هو الذي ذكره بولس في رسالته الى اهل رومية (١٦ : ١٣) «سلّموا على روفس المختار في الربّ وعلى امه التي هي امّي» .

وقد ذكر مرقس (١٠ : ١٢) في مسألة الطلاق امراً لم يذكره متى لانه كان مستعملاً عند الرومانيين أن تطلق المرأة زوجها . فقال : «وإن طلّقت امرأة بعلها وتزوّجت آخر فقد زنت» . ولم يذكر مرقس العهد القديم الّا مرّةً جامعاً في موضع واحد (١ : ١ — ٣) ما جاء في ملاخي (٣ : ١) واشعيا (٤٠ : ٣) . اما الآية (١٥ : ٢٨) وهي من اشعيا (٥٣ : ١٢) «واحصي مع الأثمة» فقد ارتأى بعضهم انها ليست اصلية في انجيل مرقس بل اضافها بعض النسّاخ وهي ناقصة في بعض النسخ من انجيل مرقس . وعدم ذكر مرقس للعهد القديم هو لان الوثنيين لا معرفة لهم به

فكل هذه الامور هي برهان جلي على ان مرقس كتب لاجل المسيحيين الذين اتوا من الوثنية في رومية .

الزمن الذي كتب فيه مرقس انجيله

لم يتفق شارحو الكتاب المقدس في تعيين الزمان الذي كتبَ فيه مرقس انجيله . ومنطوق الانجيل لا يبيّن ذلك . الا انه يمكننا من بعض الآيات والظروف ان نعرف تقريباً زمان كتابة هذا الانجيل .

ان الآية الاخيرة منه تُنبئ بانه انقضت سنوات عديدة قبل كتابته . قال مرقس (١٦ : ٢٠) : «فخرج اولئك وكرزوا في كل مكان والرب يعمل معهم ويثبت الكلام بالآيات التي كانت تقارنه» . فالكرازة في كل مكان ، ليس في اورشليم واليهودية فقط لكن ايضاً في بلاد ومدن الوثنيين ، تطلب زمناً غير قليل قبل ان

يكتب مرقس انجيله ويختمهُ بهذه الآية . فاننا نعلم ان بولس وهو من انشط الرسل لم يباشر الا في السنة ٤٣ للمسيح سفره الاول ورسالته الاولى مع برنابا ، اذ انتدبها الروح القدس في انطاكية فتوجها الى قبرس فانطاكية بسيدية فايقونية فلسترة وغيرها من المدن. فالذين عينوا السنة ٤٢ او ٤٣ لكتابة انجيل مرقس هم بعيدون عن الحقيقة.

ومن جهة اخرى توجد براهين على ان مرقس نشر انجيله قبل السنة ٧٠ للمسيح. لانه لو كان مرقس نشره بعد تلك السنة ، وفيها تمت نبوة السيد المسيح عن خراب اورشليم والهيكل ، لكنا وجدنا في انجيل مرقس اشارة ، وإن خفية ، الى هذا الحادث العظيم الذي كان يهم جداً الشعب اليهودي والمسيحي. فمرقس يتكلم عن نبوة المسيح كأمرٍ لم يتم بعد . ولدينا برهان آخر على ان هذا الانجيل كُتب قبل السنة ٧٠ ، فانها لحقيقة ثابتة ان مرقس كتب انجيله قبل ان يكتب لوقا انجيله. ونعرف من سفر اعمال الرسل (١ : ١) . ان لوقا كتب هذا السفر بعد ان كتب الانجيل : « قد انشأتُ الكلام الاول يا تاوفيلس في جميع الامور التي عملها يسوع وعلّم بها » . وسفر الاعمال خُتم بآية تدلّ على ان بولس كان بعد في قيد الحياة في اسره الاول برومية : «واقام [بولس] سنتين كاملتين في بيت استأجره وكان يقبل جميع الذين يقصدونه . ويبشر بملكوت الله ويعلّم بما يختصّ بالرب يسوع بكلّ جرأة ولا يمنعه احد» (اعمال ٢٨ : ٣٠ و ٣١) . ونعرف ان بولس استشهد في السنة ٦٥ او ٦٧ . فتكون النتيجة اللازمة ان مرقس كتب انجيله قبل السنة ٧٠ . فالرأي الارجح اليوم والاكثر قبولاً عند شارحي انجيل مرقس هو انه كتبه قبل السنة ٦٤ .

ومن المقرر انه كتبهُ باليونانية وكانت هذه اللغة شائعة عند الرومانيين . والارجح انه كتبهُ في رومية.

ان التقليد الذي حفظهُ لنا اوسابيوس في تاريخه[1] يقول ان مرقس توجّه الى الاسكندرية واسس هناك كنيسة المسيح ونشر الانجيل الذي كان كتبهُ.

١) ك ٢ ف ١٦ ، راجع مين الآباء اليونان المجلد ٢٠ العمود ١٧٣

النساء الفرنجيات

في انطاكية وعزاز في عهد الصليبيين

بقلم الاديب حبيب زيّات

من احقّ ما يؤخذ على مدوّني اخبار الصليبيين عندنا انهم لم يستقصوا منها الا الوقائع والانباء التي كانت تذهب بالأموال والدماء . فالناظر اليوم في تواريخهم لا يكاد يدري ، في ما عدا الحروب والملاحم ، شيئاً يُذكر من اخبار جوار الفرنج لاهل البلاد ، وتأثير فريق منهم في الآخر في المعايش والمجتمعات ، والابنية والمساكن ، والمآكل والمشارب ، والازياء والعادات ، واللهجات واللغات ، والصناعة والزراعة ، الا بعض اشارات يسيرة وردت عَرَضاً في روايات بعض المعاصرين ، نظير ابن جبير في رحلته ، والامير اسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار . ولا شكّ انه لو كانت سلمت لنا دواوين الشعراء الذين ساكنوا الصليبيين وخالطوهم في كل هذه الحقبة الطويلة ، وقرُب منا متناولها ، لوجدنا في بعض قصائدها ومقطعاتها نتفاً من اوصاف ذلك العصر تشفّ عما كان فيه من حضارة وفنّ ومُصطلح وزيّ .

ومن وقع الينا بعض شعره ، وانفرد فيه بذكر النساء الصليبيات ، ابو عبدالله محمد بن نصر القيسراني العكاوي . عرضت لهُ حاجة في انطاكية سنة اربعين وخمسمائة للهجرة ، فدخلها وطاف سككها واحياءها ، وغشي بيوت لهوها ومتنزهاتها ، وشاهد نساءها وقيانها ؛ وشبّب بالفرنجيات منهنّ ونظم فيهنّ مقطعات رواها لهُ عماد الدين الكاتب ، في القسم الثالث من كتابه « خريدة القصر » ، رقم ٣٣٢٩ من خزانة باريس . واول ما وصفهنّ به زرقة العين وطيب الرائحة وطول الشعر . قال :

لقد فتنتني فرنجية نسيم العبير بها يعبقُ
ففي ثوبها غصن ناعمٌ وفي تاجها قمرٌ مشرقُ
وان تكُ في عينها زرقة فان سنان القنا ازرق[1]

يريد بالتاج ما كانت تصفّفه من غدائرها فوق رأسها. وهو ما صرّح به في ابيات لهُ يصف بها بعض نساء عزاز[2] في عهد الفرنج فيها :

وسبتني لهـا ذوائب شعر عقدتهـا تاجاً على ابراز
مَن معيني على بنات بني الاصفر غزوًا ، فـانني اليوم غاز[3]

وكان لهنّ تحت هذا التاج ، طُرر يصفّفنها فوق الجبين ، واصداغ يسدلنها من جانبي الخدّين ، وهو قوله في الملاح المشرفات من نوافذ البيوت :

فيا عذولي فيهنّ دعْ كلفي وانظر الى الشمس هل لها طرر
وكن معيني على ذوي خُدع ان سالم القلبُ حارب النظر[1]

وفي قينة حسناء سمعها تغني :

فيا لك من وجهٍ كقنديل هيكل عليه من الصدغين محراب مسجدِ[1]

واكثر ما رآهنّ في عزاز حين اجتيازه بها

بعيون كالمرهفات المواضي وقدود مثل القنا الهزهاز
ونحور تقلـدت بثغور ريقها ذوب سكر الاهواز

وامتازت بينهن المرأة الخُمصانة الضامرة الكشح

ذات خصر يكاد يخفى على الفا رس منـه مواقـع المهماز[2]

وفي هذا الخصر الزنار المعقود تحت قلب اقسى من الجلمود :

وفي ذلـك الزنار تمثـال فضّةٍ تنقّـط خدّيه العيون بعسجدِ[1]

وكان حين دخل انطاكية وجاس خلالها ، أُعجب بقصورها الفخمة الشاهقة وابنيتها الحسنة ومنازلها المزخرفة ، وشاهد في كل شباك منها مليحة سافرة تطلّ بوجه برقعه الحياء ، فانشد فيهنّ :

وا حربا في الثغور من بلـد يضحك حسناً كانـه ثغرُ

---

١) خريدة القصر ، ف ٨ ٢) ويسمّيها الصليبيون «Hazart» [المشرق]
٣) خريدة القصر ، ف ٢٦

ترى قصورًا كأنها بِيَعٌ ناطقة في خلالها الصورُ
هالات طاقاتهنّ آهلة يبسم في كل هالة قمرُ
سوافر كلما شعرنَ بنا برقعهن الحياء والخفرُ
من كل وجه كأن صورته بدر ، ولكن ليله شعرُ
فهو اذا ما ألواه حاربهُ كان لتلك الضفائر الظفرُ[١]

ولم يقتصر على تصفّح الغواني في النوافذ والطرقات ، بل ألمّ من اجلهنّ بالبيع والكنائس كعادة اضرابه في ديار الاسلام من طروق الاديار والمعابد في ايام الآحاد والاعياد لاجتلاء ما فيها من الوجوه الحسان . ولم يذكر من كنائس انطاكية سوى كنيسة السيدة . قال وهي قبة شاهقة للنصارى وانشد فيها :

متى عُجتَ يا صاحِ بالسيّده فسلْ عن فؤاديَ في الافئده
وقلبك حذره عن ان يُصا دَ ، فان بها للهوى مصيده
وجوه تباهي قناديلها ببهجة نيرانها الموقده
ترى كلّ مستضعف خصره اذا ما دعا طرفه انجده[١]

وشاهد في كنيسة اخرى لم يسمّها ، ولعلها كنيسة القسيان المشهورة ، راهبة رومية حسناء قصيرة الزنار طويلة حبل العاتق متشحة بالسواد تحكي ثيابها غدائرها باللون فقال :

كم بالكنائس من مبتّلة مثل المهاة يزينها الخفرُ
من كل ساجدة لصورتها لو انصفت سجدت لها الصورُ
قديسة ، في حبل عاتقها طول ، وفي زنارها قصرُ
غرس الحياء بصحن وجنتها وردًا سقى اغصانه النظر
وتكلمت عنه الجفون فلو حاورتها لاجابك الحوَر
وحكت مدارعها غدائرها فاراك ضعفي ليله قمرُ[٢]

وكانت انطاكية قديمًا موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير[٣] . ولما استولى الروم والفرنج عليها ، انضمّ الى هذا الطيب جودة الخمر والشراب . فكان كل من تعذّر عليه الشرب والقصف في ما جاور من مواطن الاسلام ، يقصد انطاكية للتمتع بلذاتها . ولذلك قال

١) خريدة القصر ، ف ٨ ٢) خريدة القصر ، ف ١٤٠ ٣) معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٨٢

ابو العلاء المعري فيها من لزومياته :

لا يترلنَّ بانطاكيّـة ورعٌ كم حلّل الدين عقـداً للزنانير
بها مدام كذوب التبر تمزجه للشاربين وجوه كالـدنانير

فلا غرو ان كان القيسراني انتهز فرصة وجوده فيها لارتياد اماكن الطرب والشراب. وكان فيها وتتنذر ، من جملة القيان المشهورات بالحسن والاحسان ، جارية تروي الشعر العربي اسمها ماريا تغني بالدفّ خفيفة الروح في نهاية اللطف. ومن اصواتها التي تغايظ بها النصارى وتستميل قلوب المسلمين[1]

علقت بحبـل من حبال محمد امنت به من طـارق الحدثان

ولا يخفى ما في هذا البيت من التعريض والاشارة ، وهو من قصيدة للحسن ابن هانئ يمدح بها الامين بن الرشيد اولها .

لمن طال لم اشجه وشجاني وهاج الصبا لو هاجه لأوان

وبعد ان قضى القيسراني اطيب وقت في هذه البلدة الجـامعة بين طيب الهوائين ، خرج منها وهو يتمنى لو بقي فها اسيراً بين يدي الفرنج ليتملّى من لذاتها ونعيمها وانشد :

سرت وخلفت في ديارهم قلبـاً تمنيت انــه بصرُ
ولم ازل اغبـط المقيم بهـا للقرب ، حتى غبطت من أسروا[1]

وتذكر حين انكفأ راجعاً ساعات مرّت له مع ماريا ، فقال فيها :

الا يا غزال الثغر هل انت منشدي : « علقتُ بحبل من حبال محمدِ ! »
ويا هل لذاك اليوم في الدهر ليلة تعود ولو عادت عقيبا بـلا غد !
فالقاك فيها هادي الكاس حادياً وحسبك من سـاع بهـا ومغرّد
الا حبـذا عاري المحاسن عاطل محلى باثواب الملاحة مرتدي . . .
وعهدي بماريا ، سقى الله عهدها ، بما عندها من حاجة الهائم الصدي
وفي ذلك الزنار تمثـال فضـة تنقـط خديه العيون بعسجدِ
وقد غلب المصباح فيه على الدجى سنا قمر في جنح ليل مجمد . . .
فيا لي من وجه كقنديل هيـكل عليه من الصدغين محراب مسجد
لقد اسرتني حيث لا ابتغي الفدا فقلْ في اسير لا يُسرّ بمفتدي[1]

(١) خريدة القصر ؛ ف ٨

أمالي ألسنية : ٤

اصل كلمة «الحواريين»

بقلم الاب مرمرجي الدومنيكي

من اساتذة المعهد الكتابي والاثري الفرنسي في القدس الشريف

مظانه وورودها

هذه اللفظة مشتهرة بين الجمهور بانها « قرآنية » ؛ لكن الباحث يجدها واردة ، فضلًا عن المصحف ، في ما دعوه « الشعر الجاهلي » ، وفي الحديث ، والاناجيل المعرّبة ، والكتب النصرانية الكنسية . ولذا ، يجدر بنا ، توفية للبحث ، ان نتقصّى اثرها في جميع هذه المواطن ، لترى ماذا يراد بها .

في الشعر الجاهلي

جاءت «الحواريون» مفردةً مذكرةً ، في القصائد المعروفة بالاصمعيات ، على لسان الضابئ بن الحارث ، قال:

« وكرّ كما يكرّ « الحواري » يبتغي الى الله زلفى ان يكرّ فيقتلا »

ووردت بهذه الصيغة ايضاً في البيت الآتي المنسوب الى السموأل:

« وسليمان « والحواري » يحيى ومتى يوسف كاني وليت »

الظاهر من البيت الاول ان كلمة «الحواري» مطلقة على تلاميذ المسيح ، وقد سُمّي الجميع باسم الواحد . ويؤيد ذلك البيت الثاني الذي يدعو باسم «الحواري» إثنين من الرسل وهما يحيى (يوحنا الحبيب) ومتى الانجيلي . الّا ان ذلك لا يأتي بادنى دلالة على معنى الحواريّ واصلها .

في القرآن

ذكرت اللفظة ، بصيغة الجمع المذكر ، في ثلاث سور من الفرقان ، كما يلي :

« فلما احسّ عيسى منهم الكفر ، قال : من انصاري الى الله ؟ قال « الحواريون » : نحن انصار الله ؛ آمنا بالله ؛ واشهد باننا مسلمون .» (عمران ٥٢)

«واذ اوحيت الى «الحواريين» ان آمنو بي وبرسولي ، قالوا: آمنا ؛ واشهد باننا مسلمون. اذ قال «الحواريون» : يا عيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال: اتقوا الله ان كنتم مؤمنين.» (مائدة ١١٤،١١٥)

«ايها الذين آمنوا ، كونوا انصار الله ؛ كما قال عيسى ابن مريم «للحواريين» مَن انصاري الى الله ؟ قال «الحواريون»: نحن انصار الله.» (الصف ١٤).

لا يظهر من هذه الآيات الا علاقة تلك الفئة من القوم بالمسيح ، الذي يدعوه المصحف «عيسى ابن مريم» اما معنى الحرف واصله فليس هناك ما يهتدى به اليها.

فاذا كان الشعر الجاهلي والقرآن خلوًا من دلالة ، صريحة ام ضمنية ، على اصل اسم «الحواريين» ، فلنعمد الى المفسرين ، واهل المعاجم ، لعلّنا نقتبس شعاعاً من نورهم . قال الطبري (طبعة مصر ، مجلد ٣ ، وجه ٢٠١) : «واشبه الاقوال التي ذكرنا في معنى الحواريين ، قول من قال: سمّوا بذلك لبياض ثيابهم ولانهم كانوا غسّالين . وذلك ان الحَوَر ، عند العرب ، شدة البياض ؛ ولذلك سمي الرجل الشديد بياض مقلة العين احوَر ؛ والمرأة حوراء . وقد يجوز ان يكون حواريو عيسى كانوا سمّوا بالذي ذكر ، من تبييضهم الثياب ، وانهم كانوا قصّارين . فعرفوا بصحبة عيسى ، واختياره اياهم لنفسه اصحاباً وانصاراً. فجرى ذلك الاسم لهم واستعمل ، حتى صار كل خاصّة للرجل من اصحابه وانصاره « حواريّه » ولذلك قال النبي (ص): لكل نبيّ حواريّه ؛ وحواريّ الزبير. يعني خاصّته ».

قال النيسابوري (في حاشية الطبري ، مجلد ٣ ، وجه ٢٠٤): «حواريّ الرجل صفيّه ، وخالصته . . . وحوّرت الثياب بيّضتها . والحواريّ واحد ؛ ونظيره الحوالي وهو كثير الحيلة ؛ والجمالي الرجل الضخم الاعضاء . عن الضحاك : الذي يغسل الثياب يسمّى بلغة النبط «حواري» فعُرّب . واما الحواريون من هم ؟ فقيل : هم الذين كانوا يصطادون السمك ، فاتبعوا عيسى وآمنوا به . . . قالوا : من افضل منّا ؟ اذا شئنا ، اطعمتنا ، واذا شئنا ، اسقيتنا ؛ وقد آمنّا بك . فقال : افضل منكم من يعمل بيده ، ويأكل من كسبه . قال : فصاروا يغسلون الثياب

فسّروا حواريين.» وقال البيضاوي (ص ٦٩) : « حواري الرجل خالصته ؛ من الحوَر... سمي به اصحاب عيسى، عليه الصلاة والسلام، لخلوص نيتهم، ونقاء سريرتهم. وقيل كانوا ملوكاً يلبسون البيض، استنصرهم عيسى، عليه السلام، من اليهود. وقيل: قصّارين، يحوّرون الثياب.»

وفي وسعنا ان نورد اقوال غير هؤلاء الائمة، وشواهد اهل المعاجم؛ الا اننا نعدل عن ذلك لتشابه آرائهم جميعاً، ولنقلهم الواحد عن الآخر. وقد قال بقول الاقدمين المفسرون العصريون؛ منهم مولوي محمد علي الهندي، الذي نشر القرآن بنصه العربي، وبازائه ترجمته، وبذيله تفاسير ضافية بالانكليزية[1]

وانت ترى انه من العسر استخلاص نتيجة ثابتة من هذه التفاسير والاقاويل المضطربة المتضاربة، لاستنادها، لا الى مصادر تاريخية، بل الى السند العزيز على القدماء، الملخص بهذه العبارة الشهيرة «قيل، ويقال» والسبب في ذلك ان هؤلاء الشرّاح لم يطلعوا، هم بذاتهم، على المستندات ذات الشأن، بل كانوا يسائلون، في ذلك، النصارى الذين دانوا بالاسلام. واغلب هؤلاء كانوا من الطبقة الجاهلة الانجيل، واصول الدين. فنقلوا اليهم هذه الاخبار وغيرها مشوّهة، ممسوخة. اما ما عرفناه من الانجيل والتاريخ الكنسي والمدني، فهو ان اكثر تلاميذ المسيح كانوا صيّادين. ولم يرد في احد هذه المظانّ انهم كانوا قصّارين، او ملوكاً، او غير ذلك.

هذا من جهة التاريخ؛ اما من جهة الاشتقاق اللغوي، فالقول بان «الحواري» آتٍ من فعل «حَوِرَ» الدالّ على البياض، ليَظهر هو ايضاً غير قوي الحجة؛ ومنشأه ان اهل المعاجم وائمّة العربية لم يكونوا في الغالب يعرفون غير لغة الضاد؛ ولاعتقادهم ان ليس في هذه اللسان، ولاسيما في القرآن، الفاظ دخيلة، قد اتبعوا قاعدة مطردة وهي ان يحاولوا ردّ كل لفظة الى اصل عُربي. ولهذا قد خلّفوا لنا في مصنّفاتهم تآويل وتخاريج تضحك الثكلى.

على اننا اذا فرضنا ان «الحواري» كلمة عربية، فنظنّ ان اشتقاقها من

1) *the holy Qor'an (p. 159) by* Moulwi Muhammad Ali, *Lahore, Penjab, India, 1920*

«حوِر» من الامور غير الهينة. ودونك اولًا معنى هذا الفعل كما ورد في المعاجم: «حوِر الغلام والجارية «حورًا» اشتدّ بياض عينه وسوادها، واتسعت حدقتها، ورقّت جفونها، وابيضّ حواليها، مثل الظباء والبقر.» ولا ريب انك لحظت ان مصدر «حوِر» هو «الحوَر»؛ فاذا نسب اليه قيل «الحوَري». واما «الحوَار» المنسوب اليه «الحواري» فليس مصدرًا او اسمًا من «حوِر» ولا معناه البياض، بل «المحاورة والحديث». اجل اننا لا نجد ان قد ورد في اللغة وزن «فُعالي» بيد انه، فضلًا عن ندوره، لا تستعمل صيغته في الغالب، الّا لاعضاء البدن، فتدل على ضخامة فيها، نحو: رُؤاسي، كبير الراس؛ انافي، كبير الأنف؛ اذاني، كبير الاذنين؛ عَضادي، ضخم العضدين. وهذا الذي اضطر بعض المحققين، كالتفتازاني، الى التخريج بقولهم ان اصل «الحواري» هو «الحوَري» زيدت فيه ألف عند نسبته، للمبالغة. ونحن نعلم، من كتب النحو، ان العرب، اذا ارادوا المبالغة في وصف شيء، ادخلوا عليه ياء النسبة في آخره، فيقولون في الاحمر «الاحمري»، وفي الابيض «الابيضي»، وفي الاحور «الاحوري». وعلى كلٍ، سوف ترى ادناه هل لهذه التوجيهات من صحّة.

كلمة «الحواريين» عند النصارى

لمادة «حوِر» بمعنى البياض، وجود ليس في العربية فقط، بل في الارمية، والعبرية؛ ولفظتا هذين اللسانين هما: (Hwar) و (Hāwar)

اما كلمة الحواريين (بدلالتها على رسل المسيح) فلا دخل لها في العبرية ولا عند العبريين. على ان الارميين، الذين تسمّوا سريانًا بعد تنصّرهم — ولذا دعيت لهجتهم الارمية سريانية — قد استعملوا «الحواريين» في كتبهم التي ألّفوها بالعربية؛ وفي اناجيلهم المنقولة من لغتهم الى هذه اللغة؛ ولديهم كلمة وردت كثيرًا في اسفارهم الكنسية وهي: (Héwārē) ومعناها «البيض» وقد نسبها بعضهم الى الرسل، وقالوا انها مقابل «الحواريين» القرآنية؛ لا بل ان لفظة «الحواريين» عينها معرّبة عنها، فما علينا، والحالة هذه، سوى مواصلة التنقيب، لنستطلع كنه الحقيقة.

نظن ان اقدم كتاب، عند النصارى، وجدت فيه كلمة «الحواريين» بعد

عشر القرآن ، هو كتاب الترجمة العربية « للدياطرون » او الانجيل المربع ، الراقي اصله السرياني المفقود الى القرن الثاني ؛ ومعرّبه الى القرن العاشر . ثم في كتاب « التراجم السنية في الاعياد المارانية » لايليا ابي حليم بطريرك النساطرة ، من اهل القرن الثاني عشر . وكذلك في اغلب الترجمات الانجيلية ، المتوالية قرناً بعد قرن ، كالاناجيل الخطية الموجودة في خزانة القبر المقدس ، للروم الارثذكس في القدس ، والمتراوح عهدها بين القرن ١٢ والقرن ١٧ للميلاد . فهذه الاسفار باسرها — كما تحققنا ذلك بمراجعتنا كل المظانّ فيها بذاتنا — تطلق كلمة « الحواريين » على الرسل الاثني عشر . الّا انها ، خلافاً للقرآن ، تسميهم غالباً باسم الرسل او التلاميذ ، ونادراً باسم «الحواريين» ، وفي بعضها اي في كتب الكلدان مثلاً ، تجد كلمة «السليحين» التي هي تعريب (šlîḥê) السريانية ومعناها الرسل .

هل «HEWARE» السريانية تأتي بمعنى الرسل ؟

قلنا ان السريان استعملوا ، بعض الاحيان ، في اناجيلهم العربية كلمة «الحواريين» لتسمية الرسل . بيد ان الاظهر لنا انهم اخذوها عن القرآن ؛ وانها ليست بترجمة عن (Ḥéwârê) اما الحرف الذي عرّبوه فهو كما رأيت اعلاه (šlîḥê) ؛ غالباً «الرسل» ومرةً «السليحين» واخرى «الحواريين» . فلنرَ الآن هل اطلق اسم (Ḥéwârê) على الرسل ، خارج الانجيل .

بين يدينا سبعة معاجم من اشهر كتب اللغة السريانية : اولها واقدمها ، معجم بربهلول ؛ واوسعها واتقنها معجم سميث الانكليزي (*Thesaurus syriacus*) ؛ ثم معاجم بروكلمن المستشرق الالماني ؛ والمطرانين الكلدانيين : اودو ومنّا ؛ والاب برُن اليسوعي ، والاب القرداحي الماروني .

ودونك زيادة في الايضاح ، مختلف معاني (Ḥéwârê) الآتية من فعل (Ḥwar) ومدلوله «حَوِر ، ابيضّ» .

(Ḥewârê) : البيض (الثياب) . — الدراهم — الفضة — البيض (الرجال ذوو اللون الابيض) — الامويون والفاطميون ، للبسهم الابيض — ثياب الشمامسة الانجيليين — لبس اساقفة الفرس — لبس الملائكة .

هذه اغلب المعاني المطلقة على لفظتنا . وما عدا معجمي المطران منّا والاب

القرداحي ، لم نجدها مترجمة بكلمة «الحواريين» في كل المعاجم المذكورة ولاسيما في معجم سميث ذاك الكنز الكبير الحاوي من اللغة السريانية كل آبدة وشاردة. وكنا قد سألنا المطران منّا ان يوقفنا على المصدر الذي استمدّ منه ذلك ، فاجابنا انه اعتمد على الاب القرداحي فنقلها عنه. واما صاحب «اللباب» فلا ندري اين وجدها ؛ ولاسيما انه ، خلافاً لعادته المألوفة لم يأتِ بنصّ من الكتبة السريان ، السابقين او اللاحقين الاسلام ، ادعاماً لرأيه.

SABTA D'ḤEWARE

على انه ان كانت هذه الكلمة السريانية لا تدلّ على «الحواريين» وهي منفردة ، فلربا دلّت عليها وهي مركبة مع لفظة اخرى. وبالحقيقة هناك عبارة اخرى من هذا القبيل ، وهي (šabta d'Ḥéwārē) وقد أُختلِف ايضاً في مدلولها وترجمتها . دونك ما جاء عنها في المعاجم : القرداحي عبّر عنها بسبة (اسبوع) الحواريين او الرسل ؛ والمطران منّا بالسبة التابعة للقيامة والعنصرة ؛ وسميث وبركلمن وبرُن أدّوها بهذا التعبير اللاتيني: (*Hebdomada alburum*) اي اسبوع البيض . اما بريلول فلا يذكر سوى العبارة الآتية: (šābat šābē) اي اسبوع الاسابيع ، وتابعه فيه المطران اودو.

ورودها في الطقوس

لا ذكر لكلمة «الحواريين» في انجيل الملكيين ، وليس عندهم طقس او اسبوع يسمى بها — وكذا الامر عند الارمن — بل يدعى هذا الاسبوع ، في كلتا الكنيستين «اسبوع الفصح» . اما السريان الكاثوليك — وكذا القول عن اليعاقبة — فيطلقون على هذا الاسبوع اسمين: ففي كتاب الاناجيل والحسايات ، نقرأ : «trēn bšabbā, tlāṯā bšabbā d'aqyamtā etc.» اي: «اثنين ، ثلاثاء القيامة . » وفي الفنقيت (اي كتاب الفرض على مدار السنة) نجد «šabta d'Ḥéwārē, trēn bšabbā, tlāṯā bšabbā d'Ḥéwārē.» وفي كتاب النافورة للموارنة نرى في قسم الاناجيل بالكرشوني: «اثنين الحواريين ، ثلاثاء الحواريين الخ» على ان الكلدان — وكذا النساطرة — لا يدعى هذا الاسبوع في طقسهم (šabta d'Ḥéwārē) بل (šābat šābē)

فالناجم من هذا كله ان الطقوس الشرقية ليست بمتفقة في تسمية هـذا الاسبوع ؛ او بالاحرى انها جميعها مجمعة على الاطلاق عليه اسم « اسبوع القيامة او الفصح » وانما تختلف في وسمه باسم «sabta d'Héwārē». فالسريان الغربيون وحدهم ، اي الكاثوليك ، واليعاقبة ، والموارنة قد ابقوا هذا الاسم مع الاسم الاول. وقد ترجمه بعضهم باسبوع الحواريين. اما الكنيسة الغربية ، فقد دعته ، فضلًا عن اسمه العام وهو: «*Hebdomada Paschae*» (اي اسبوع الفصح) باسم آخر وهو «*Hebdomada albarum*» (اعني اسبوع البيض) ؛ الا انها لم تطلق عليه قط «*Hebdomada apostolorum*» (اسبوع الرسل).

على ان من الشرقيين النصارى من يزعم ان الرسل دعوا (Héwārē) اي البيض. ومن ثم فاسمهم الحواريون ، لانهم كانوا يلبسون الثياب البيضاء ؛ ولذا وجب ترجمة (sabta d'Héwārē) «باسبوع الحواريين» لان تلك الايام مختصة بهم.

اما من جهة اللبس فنقول: نعم ان اوسابيوس القيصري قد ذكر ، نقلًا عن هيجيسيبوس ، ان القديس يعقوب ، اخا الرب ، كان يتشح برداء من كتان ؛ نعم ان اساقفة الفرس كانوا يرتدون بالاردية البيضاء . لكن هذا لا يدل على ان الرسل ، من بدء تبشيرهم ، قد اتخذوا لهم ثياباً خصوصية ، تميزهم عن بقية الناس ؛ وانها كانت بيضاء لا غير ؛ مما حمل القوم على تلقيبهم بالبيض . وان كان ذلك حقيقياً ، فلمَ لا نرى اثرًا لهـذه التسمية في بقية الكنائس الشرقية ، فضلًا عن الغربية ؟

اما المؤكد فهو ان الرسل كانوا يلبسون الثيـاب التي كانت مستعملة في زمانهم ، وقد بقي اثرها في اردية الاكليروس الـذي ، حتى القرن السادس ، كانت ملابسه كملابس العلمانيين ذوي المقامات . حتى ان البابا سلستينوس قد ذمّ في منشوره استعمال ثياب خاصة كنسية. واليك ما جاء في كتاب الليترجيات لصاحب الغبطة ، السيد رحماني ، بطريركنا السرياني ، المثلث الرحمات ؛ قـال رحمه الله (ص ١١٦) « ان القسوس والاساقفة بطبقاتهم ، لم يكونوا يتميزون عن العلمانيين في زيهم الظاهر للعيان ، الّا باللحية ؛ اذ لم يكونوا يحلقونها ، دلالة على زهدهم في الدنيا . وكانت اردية القسوس والاساقفة ، في الغالب ،

كاردية الاشخاص الوقورين من العلمانيين . فيلبسون الطيلسان غير المبهرج ، باللون الاسود ؛ وفوق الطيلسان ، يتدرعون بالجبة . وقد ورد في مجموعة التواريخ ، لميخائيل الكبير ، بطريرك السريان اليعاقبة ، عن سيـٰـنوس الذي كان اسقف شيعة النوباطيين في القسطنطينية ، على عهد يوحنا الذهبي الفم ، انه كان يلبس الطيلسان باللون الابيض ، فلاموه . فكان من جوابه لهم : « وفي اي كتاب ورد ان نلبس الاسود ؟ »

فمن هنا نستدلّ على ان الاكليروس كان في القديم يلبس كالعلمانيين، الثياب البيضاء او ذات الالوان الفاتحة — كما الامر جارٍ حتى اليوم ، عند الروم الارثذوكس وغيرهم — وقد درجت العادة ، بتوالي القرون ، ان يتّشحوا بالسواد ، علامة على التجرد والزهد . فان كان الاكليروس ، بعد عدة قرون من تأسيس الكنيسة ، لم يكن لهم ما يميزهم عن العلمانيين ، بزي ثيابهم ؛ فبالاولى حجة لم يكن للرسل ثياب خاصة تفرقهم عن غيرهم . زد على ذلك انه لو كان هذا الاسم قد اطلق حقيقة على الرسل ، فلم يكن لهم سوى لقب عرضي ولا اسمهم الخاصّ المذكور في الانجيل ، والذي دعاهم به معلّمهم ، كما تشهد عليه نصوص كثيرة منها الآتي : « ودعا يسوع تلاميذه الاثني عشر ، واعطاهم السلطان على الارواح النجسة ليخرجوها ، ويشفوا كل مرض وكل ضعف وهذه اسماء الاثني عشر « رسولاً » الاول سمعان ... هؤلاء الاثنا عشر ارسلهم يسوع وامرهم قائلاً : الى طريق الامم لا تتجهوا . »

معنى « HEWARE et SABTA D'HEWARE » الحقيقي

فاذا كان الامر كذلك ، فما مدلول هاتين العبارتين ، وعلى من اطلقتا ، ان كان اطلاقهما على الرسل غير صحيح ؟ للجواب على هذا جواباً شافياً ، يتحتم علينا باديءَ بدء ، ان نعلمك ماهية الاشتراك في الدين المسيحي فنقول : الدخول في حظيرة المسيح كان يتطلب ثلاثة امور : العماد ، والتثبيت ، والتناول . على ان الكنيسة ، لكثرة المقبلين اليها ، اخذت ، منذ الاوائل ، بوضع قوانين لتهيئة الطالبين وامتحانهم في ذا الشأن . فنشأ من هذا ما سمّي في العرف الكنسي « بالموعوظية » . وكان هذا التعليم الاستعدادي يجري منذ بدء

الصيام الكبير ، لكي يتمكن الموعوظون من قبول سرّ العماد « ليلة عيد الفصح » على ان بعض الاحيان ، إمّا لقصر الوقت ، او لداعٍ آخر ، كان عماد المنتخبين من الموعوظين يؤجل الى آخر المدة الفصحية ؛ الى ان جاء زمان عُيّن لذلك ليلة العنصرة. اما الكنيسة الشرقية فزادت يوم عيد الدنح او الغطاس ؛ وبتوالي الايام ، جرت العادة ان يمنح هذا السر في عيد الميلاد وغيره ؛ حتى جاز اخيراً ان يعمّد في اي عيدٍ او احدٍ او يومٍ من السنة.

هذا ، وكان هناك عـادة قديمة وهي ان يلبس المعتمدون ، بعد عمادهم « ثياباً بيضاً » دلالة على تطهّر قلوبهم بنعمة هذا السرّ. وكانوا يبقون لابسيها منذ ليلة القيامة الى الاحد التابع . وطيلة الاسبوع ، فضلاً عن طقس القيامة العام للمؤمنين قاطبة ، كان يجري طقس آخر مختصّ بهم . فكان يقام لهم صباحاً قداس حافل ؛ ومساء دورة ، يتقدّمهم فيها الاكليروس سائرين الى جرن العماد ، حيث يذكر عمادهم . وكان هذا الاسبوع يسمّى « اسبوع البيض »من اجل ثيابهم ، كما صرّح بذلك كثيرون من الآباء والكتبة الكنسيين ؛ نجتزئ ، ادعاماً لقولنا ، بشهادة الربان موزس القائل : « اننا ندعو هذه السبعة الايام « بيضاً » لان الذين تعمدوا في الليلة المقدسة (ليلة القيـامة) يتوشّحون باردية بيضاء في كل هذا الاسبوع » وكانت هذه المدة تنتهي بحفلة ختامية « حفلة نزعِ الثياب البيض » تقام يوم الاحد الجديد ؛ وكانت عادةً قديمةً في جميع الكنائس الشرقية والغربية . ولتأخر العماد ، احيانـاً ، الى العنصرة ، واجرائه آنئذٍ كما في ايام القيامة ، دعي اسبوع العنصرة ايضاً « اسبوع البيض » وفي السريانية «Yawmaṭa ḥewārē d'Pentequṣṭē» لكن ، لما انتشرت عادة التعميد ، منذ الطفولة ، وفي اي يوم من السنة ، زال هذا الطقس «طقس البيض » ولم يبق منه ، فعلاً ، سوى القميص الصغير الابيض الذي يوضع على رأس المعمَّد ، بعد عماده ، دون ان يلبسه . واستمرّ اثره في الاسماء ايضاً ؛ ففي الكنيسة اللاتينية في هـذه العبارات وغيرها : *«Hebdomada in albis, sabbatum in albis, dominica in albis»* . اما الكنائس الشرقية فقد بطل عندها الطقس ومساه ؛ الّا الكنائس السريانية الغربيـة ، فقد ابقت الاسماء

فقط ، مثل «śabta d'Héwārē, etc.»

على انه مهما يكن من الامر ، فلا نرى في هذا الاسم او في هذا الطقس ادنى اشارة الى الرسل ، صراحة او تلميحاً . فاذن الظاهر ان لا صحة للرأي القائل بان (Héwārē) تدلّ على تلاميذ المسيح ؛ وبانه من الواجب ترجمة (śabta d'Héwārē) «باسبوع الحواريين» بل الاظهر هو ان تترجم (Héwārē) « بالبيض » و (śabta d'Héwārē) « باسبوع البيض » كما اثبتناه . واذا كان الامر كذلك ، نجم ان « الحواريين » غير آتية من لفظة (Héwārē) ومن ثمّ فلم يصب المرمى لا المسلمون ولا النصارى في تعليلهم « اصل الحواريين القرآنية » ، وسببه ظنّهم ان الكلمة عربية او سريانية ؛ فحاولوا اشتقاقها من « حَور » (Hwar) واوّلوها تلك التآويل التي لم ينزل بها الله من سلطان[1]

اصل كلمة «الحواريين» الحقيقي

اما اليوم ، فبفضل « المقابلة الالسنية السامية » المتطلبة الوقوف على هذه اللغات الاخوات ، قد عرفنا ان « الحواريين » لا عربية ولا سريانية ، بل « حبشية » . وقبل ان نبين لك ذلك من الجهة الألسنية ، نمهّد لك السبيل باظهار طريقة دخول هذه اللفظة من الحبشية الى العربية . غير خاف على من عرف تاريخ جزيرة العرب ان الحبشة — وهم في الاصل عرب يمنيون ، نزحوا تدريجاً ، الى افريقية ، جملة قرون قبل الميلاد — كانوا قد تنصّروا منذ العصور المسيحية القديمة . وقد استولوا على اليمن عدة مرات . وكان تملكهم الاخير عليه في اوائل القرن السادس ؛ على يد ارياط وابرهة الاشرم . فكان للحبشة النفوذ العظيم واليد الطولى في نشر النصرانية هناك ، قبل الاسلام ، وناهيك بشهرة صنعاء والقليس كنيستها ، ونجران واسقفها قسّ بن ساعدة ، خطيب العرب وشاعرها . ولا حاجة الى اثبات ما كان ، في زمن محمد بن عبدالله ،

١) زيادةً في الافادة ، نحيل القارئ ، في ذا الشأن ، الى الكتب الآتي ذكرها :

1) *Dictionnaire d'archéologie chrétienne et de liturgie. t. I, P. II, pp. 3118 ss.*

2) *Origine du culte chrétien, par* Duchesne, *chap. IX, pp. 299 ss.*

3) *Thesaurus syriacus, auctore* P. Smith, *t. I, p 1231*

من الاتصال بين الحجاز وبلاد الحبشة ؛ وبين الحجاز واليمن . فان اول المهاجرين ارسلهم زعيمهم الى ديار الاحباش ، عند النجاشي . ويذكر المفسّرون ، ومنهم الطبري (مجلد ٣ ، ص ٢٠٨) انه « لما بعث رسول الله (ص) وسمع به اهل نجران ، اتاه منهم اربعة نفر من خيارهم ، منهم العاقب والسيد وماسرجس وماريجسر . وكان اهل نجران اعظم قوم في النصارى في عيسى قولًا .» فاذن عرف محمد الحبشة ؛ وقد خالط نصارى اليمن ؛ ولاسيما اهل نجران ، باساقفتهم وكهنتهم ؛ وقد جادلوه ، فدعاهم الى المباهلة . فلا ريب انه وقف على تسميتهم تلاميذ المسيح « بالحواريين » اذ كانت هذه الكلمة ، مع غيرها من المصطلحات الدينية ، كالمصحف والمنبر ، قد دخلت في كتبهم ودرجت على السنتهم ، من اللغة الحبشية ؛ كما نقل ايضاً الى لسانهم ، غير الفاظ من اللغات الارمية والعبرية والاغريقية ، كالكاهن والاسقف والقسيس والانجيل . فلا غرابة اذن في اطلاق النبي في قرآنه اسم « الحواريين » على رسل المسيح

فاذا عرفت هذا ، هاك تعزيزه لغوياً ، اعلم ان كلمة « الحواريين » صادرة من الفعل الحبشي (Hāra) ومدلوله : سار ، سافر . واسم الفاعل منه (Hawāreyā) وجمعه (Hawāreyāt) ويأتي بمعنى السائر والمسافر والسابق ويطلق على المرسل والمبعوث والسفير . وفي الانشاء الديني والكنسي يدل بنوع خاص على رسل المسيح ، كلما اتى ذكرهم في العهد الجديد . مثال ذلك : قصص الرسل (Gebera Hawāreyāt) وجملة (Mashafa Hawāreyā) تعني : مصاحف او رسائل الرسول (بولس) . واما النسبة فتكون بزيادة واو وياء ؛ مثلًا : (Hawāreyāwī) الرسولي و (Manbar ḥawāreyāwit) تعريبه : الكرسي الرسولي .

الخلاصة

الظاهر ، مما تقدم ، ان لفظة « الحواريين » ، قرآنية كانت ام غير قرآنية ، ليست بمشتقة من فعل « حور » وانها لا تطلق على قوم كانوا قصارين او ملوكاً او انقياء القلوب او انصاراً او صحابة ؛ ولا هي آتية من كلمة (Héwārē) السريانية ؛ لان هذه وصف استُغني به عن الموصوف ، وهو (Lbūšē = البسة) ، فقام مقامه ، دالًا على الثياب البيض التي كان يلبسها

المعتدون الجدد . ومن ثم ، فلا مسوّغ لترجمتها بكلمة الحواريين . امـاً « الحواريون » هذه فهي حبشية ، معناها الرسل ، دخلت العربية بدخول الحبشة الى اليمن ، وعن اهل نجران تلقاهـا عرب الحجاز ، ومنهم نبي الاسلام ، صاحب القرآن . فانت ترى ان الفرقان قد جاء ، في ذا الشأن ، في غاية الاتفاق مع الانجيل ، بتسميته تلاميذ المسيح ، لا باسم خيالي او مستعار ، بل باسمهم الحقيقي الذي دعاهم به ربهم ، والدالّ على دعوتهم وهي ارساله كلّاً منهم الى الورى شاهداً ومبشراً ونذيراً ؛ وهذا الاسم هو ، كما سبق القول ، لفظ « الحواريين » المرادف كل المرادفة لاسم « الرسل ، جمع رسول » وهـذا ما لم يشعر به اهل المصحف آبان وضعه وانتشاره ؛ ولا اطلع عليه العلماء الاقدمون ، من مسلمين ونصارى ، لخلل ملازم طريقـة تقصّيهم في اثر الالفاظ ؛ وهو ما قد ظهر جلياً في هذا العصر ، عصر التنقيب والتمحيص ، بفضل « الالسنية السامية » الكثيرة الفوائد للساميين ولغاتهم .

على اننا ان وقفنا ، بنور العلم العصري ، على حقائق خفيت عن السلف ، فهذا ليس مما يدفعنا — معاذ الله — الى الحطّ من قدرهم ، وبخسهم حقهم . كلّا ! لانهم ان فاتهم شيء فقد عرفوا اشياء . ولذا ، فقبل ان نختم البحث ، نريك شيئاً من الصحة في قول من الاقوال التي ابداها ارباب التفسير ، في شأن كلمة الحواريين . فقد جاء في النصّ الذي نقلناه عن النيسابوري ما يأتي « عن الضحاك : الذي يغسل الثياب يسمّى بلغة النبط حواري » فلاحظ ، بعد الذي علمته ، كيف ان هذا الكلام ، مع ما شابه من النقص ، لا يخلو من بعض الصواب . اجل ! انه قد طاش سهم صاحبه بقوله ان لفظة « الحواريين » تطلق على من يغسلون الثياب ؛ لكنه قد اصاب المرمى بارتيانه انها « ليست بعربية ، بل معرّبة » وإن بَعُدَ عن الحقيقة في خصوص اللغة المأخوذة عنها ؛ اذ « قيلَ » له انها النبطية ، على حين انها « الحبشية »

على كلٍّ ، انت ترى ان هذا الرأي ، وهو من آراء القدماء ، قـد جاء من جهة صوابه ، شاهداً بعض الشهادة على ما بسطناه ، في هذا المقال ، من مختلف الحجج في « اصل كلمة الحواريين . »

العائلة اللبنانية

محاضرة القاها في نادي الشبيبة الكاثوليكية

حضرة الشيخ سليم الدحداح

٢

بعد ان ذكرنا ميزات العائلة اللبنانية اجمالاً ، يحسن بنا ان نصف ميزات العائلة اللبنانية بطبقة مخصوصة من طبقاتها فنتخذ مثالاً عائلة القروي الفلاح .

فلنذهب الى قرية من قرى هذا الجبل العزيز ، سواء كانت على قمة في سفح جبل عالٍ او في بطن وادٍ ، ولنقف امام بيت من بيوت الجبل من الهندسة القديمة ، فنرى حائطين طويلين الواحد من الشمال مثلاً والآخر تجاهه من الجنوب ، وحائطين اقصر منهما الواحد من الشرق والآخر من الغرب ، ولا يتجاوز علو هذه الحيطان اربعة اذرع . وهي مبنية بالحجارة اليابسة مرصوفة مداميكها بدون «مونة» واكثر الاحيان بدون تقصيب ايضاً . سقف هذا البيت بالجذوع والاخشاب وفوقها التراب المرصوص لمنع وكف الماء في الشتاء . وقد استند السقف الى عمودين او اربعة او ستة . وجعل مدخل هذا البيت لجهة الشرق لتلجه الشمس قبل كل شيء ، وامامه رواقة مبنية بالشكل ذاته او قبو سقفه معقود بالحجارة فقط وذلك لاجل الماشية : البقرة او الثور او الحمار مع علفها وحاجات البيت كالحطب للوقود في الشتاء وما شاكل ذلك من ادوات القز وغيرها .

دخلنا هذا البيت في الشتاء فاذا بوسطه قرب احد العواميد مصطبة في جهة منها موقدة فيها نار الحطب تتأجج ، وقد اجتمع حول الموقدة اهل البيت للاستدفاء في البرد القارص ، اذ امتنع عليهم الخروج وربما استحال . وهم جلوس على جلود الغنم والمعزى حول الموقدة وقد اسودت الجذوع والاخشاب في سقف البيت من شدة دخان الوقود . فكان لها منه لون دهان او صباغ خاص !

في الصدر بالقرب من العمود ، نرى رجلاً في السبعين من سنيه والى جانبه عجوز لا تقلّ عنه كثيراً في السن ، ومن حولها رجلاً في الاربعين وبجانبه ستة ابناء اصغرهم في العاشرة واكبرهم في العشرين من العمر ، وبقربهم امرأة في الاربعين تقريباً . هم الجد والجدة والوالدان والاحفاد : عائلة تقرأ في عيون افرادها النباهة وطيب القلب وسلامة الضمير ، وترى على وجوههم لوناً لا تلقاه في سكان المدن وقد اكسبتها النار المشتدة في الموقدة اشتداد الاحمرار .

هذه العائلة تجتمع في المساء عائدةً من شغل الحقل وفلاحة الرزق ، فتعنى بالنظافة ، ثم تصلي ، ثم تأكل طعام المساء ، ثم تجلس حول النار للاصطلاء : للجد مركزه ، وللوالد محله ، ولكل واحد موضعه ، يتحدثون عن اشغال النهار وعمّا ينوون فعله من الشغل في اليوم التالي . ثم يرقدون ، الواحد بعد الآخر ، بدون هم الى الفجر . فيستيقظون على صوت « الاختيار » ، نهض باكرًا يصلّي بصوتٍ عالٍ فيشاركونه في الصلاة ، ويباكر كل واحد الى عمله . فلا تشرق الشمس الّا ويكون الفلّاح في عمله ، كأنه يشتغل في ارضه . فلا يهدأ طول النهار حتى غياب الشمس يظلّ كادًا ، وانت لا تعرف ان تميز هذا العامل مشتغلاً في ارضه منه مشتغلاً بالاجرة عند الغريب ؛ يغار على ارض صاحب الشغل ، كما يغار على ملكه ؛ فالواجب يدعوه الى حسن العمل اينما اشتغل ، ويعتقد انه ، ان لم يعرق في عمله ويتعب ، لا يستحق اجرةً . فهو يتذكر دائماً قول الرب «بعرق جبينك تأكل خبزك» ، فلا يعرف شريعة الثماني ساعات ، ولا يحسب نفسه مستحقاً للاجرة اذا تقاعد عن العمل نهارًا ، او اذا بدأ العمل بعد شروق الشمس او انتهى قبل مغيبها .

لم يكن حينئذ من خلاف بين طبقات الشعب : بين الفلاحين والفعلة ، واصحاب الارض والاغنياء . بل كانت طبقات الناس كلها متفاهمة متراضية سعيدة ، كلّ منها قنوع بحالته . وكانت اعظم مطامع الفلّاح ان يبقى اولاده واحفاده مزارعين مشاركين عند صاحب الملك ذاته ، وعند اولاده وورثته من بعده . واني اعرف عائلات من الفلاحين توارثوا مشاركة المساقاة ، مدة جيل وجيلين في نفس «العودة» ، كما توارثها ملّاكوها عن الاباء والاجداد . وهذا ما

اوجد المثل المشهور : « فلّاح مكفي سلطان مخفي».

فكان كل فرد من العائلة يذهب في الصباح الى عمله ! تنهض الام الى الاهتمام بامر بيتها معتنية بتدبيره مهيئة كل ما يعود الى راحة عائلتها من غسل، وترتيب ، واخذ زوّادات الى العملة ، وعناية بالحيوانات.

والولد يذهب الى المدرسة حيث كان كاهن الرعية ، او راهب من الدير المجاور ، يدرّس اولاد الرعية : الفقراء والاغنياء ، اصول القراءة والكتابة في اللغتين السريانية والعربية مع الصلوات وخدمة القداس والالحان البيعية. وكثيراً ما كانت هذه المدرسة تحت ظلّ سنديانة القرية او شجرة كبيرة فيها.

كان يُرى المعلّم في مدرسته ربّاً مهاباً ، يحترمه الاولاد احتراماً عميقاً خصوصاً اذا كان كاهناً ، لا يجسر احد على ان يرفع نظره من كتابه او كرّاسه . يرون فيه الكاهن والمدبر ، والمهذّب ، والقاضي ، والحاكم العادل المستبد الذي قُلّد السلطة المطلقة عليهم ، لا من قبل وظيفته فحسب ، بل من قبل والديهم. فان الوالد عندما جاء بولده للمرة الاولى الى المعلّم سلّمه اياه قائلاً : « خذ ! هـذا ابني قد عهدت به اليك لي الجلد والعَظْم ولك اللحم . فلا اعرفه الّا منك.»

فكان الولد اذا عاقبه المعلّم لا يفزع الى ابيه ولا الى اهله من العقاب . بل كان اذا لاذ بابيه يناله بعقوبة اشدّ قساوة من تلك . لذلك كان ينصرف الى الدرس ويحترم اوامر معلّمه . وكان كتابه الكرّاسة السريانية ، وكتاب المزامير الداودية ، او كتاب صلوات يدرسه من الجلد للجلد ؛ ويدرس الخطّ ، وبعض مبادئ الحساب.

فيخرج من مدرسة الضيعة رجلَ دين وتقوى ، يتقن قراءة صلوات عديدة وقد تربّى على خلق لا يحيد عنه : تعلّم احترام والده في بيته ، وتعلّم احترام معلّمه في مدرسته . فاذا خرج الى العالم وصار رب عائلة تعوّد ان يحترم السلطة المدنية ، ولا يرى في ذلك غضاضة لانه يكمل ما كان اقتبسه طفلاً وولـداً وشاباً ، معتبراً « ان كل سلطة من الله »

ولم تكن تختلف حالة اولاد الاغنياء والمشايخ في مدرسة الضيعة عن حالة

اولاد الفلاحين . فالتربية عند المعلم كانت واحدة من حيث الدين والآداب والعمل .

* * *

ولنجلس في سهرة من سهرات الشتاء في احدى تلك العيال لنسمع حديث تلك العائلة :

يتكلم الاب فيصمت جميع من في البيت . فيأخذ يروي لاولاده احاديث عن شبوبيته ، وينقل لهم ما رواه له والده وجده من تاريخ العائلة والقرية وتاريخ الحكّام من اصحاب المقاطعة ، ويحدثهم احياناً عن اشغاله في النهار وهو يتحاشى ان يروي لهم ما يمسّ بالآداب ويضرّ بالاخلاق . واذا روى روايةً من هذا النوع يجعلها امثولةً يتحاشى بنوه وسامعوه الاقتداء بصاحبها .

ولم تكن المرأة تتكلم بحضرة زوجها ، ولا الولد بحضرة امه وابيه . وكان اذا زار العائلة زائر غريب تحتجب الفتاة ولا تظهر الّا عند داعي الواجب للعمل او لقضاء حاجات العائلة في خدمة الزائر والضيف . واشد ما يكون احتجابها اذا كان الزائر شاباً جاء يطلب يدها . بل كانت الفتاة اذا ما حملت جرّتها ذاهبة للعين للاستقاء ورأت طالبها على الطريق ، تعود ادراجها الى البيت او تسارع خطاها لئلا يراها وحدها . ولم يكن ذلك مقتصراً على عائلة الفلّاح الفقيرة بل كان يتناول جميع طبقات سكان لبنان .

وكانت العائلات القروية تغار على بعضها ويحافظ افرادها البعض على الآخر ، فاذا مرض احد اعضاء عائلة في قرية ، تقولون ان عائلات القرية كلها مريضة معه . واذا مات واحد كان الحزن شاملًا كأنَّ الميت ميت الجميع .

واذا حدث فرح كأن تزوج احد سكان القرية يشاركه جميع من في القرية بمظاهر المسرّة وبالمال ايضاً ، فكان يأتي ربّ كل عائلة بما يسمونه نقوطاً فيقدّمه للعروس فيكون بمثابة مساعدة على القيام بواجبات العرس ، ولا يضطر المهدى اليه ان يعيد هذا النقوط من مال نقدي او غيره الّا عند تزوّج المنقّط .

ولم يكن اهتمام عائلات الوجوه والمشايخ بالعائلات القروية اقلّ من اهتمامها

بعضها ببعض. او بالحري ان اهتمام العائلات الكبيرة كالمشايخ واصحاب الاقطاع كان عظيماً بابنـاء العائلات القروية، خصوصاً وقت الفرح والحزن، فكثيراً ما كان صاحب المقاطعة او صاحب الملك الذي تشتغل فيه عائلة القروي الفلّاح يقوم هو بجميع نفقات عرس فلّاحه او مصاريف دفن الميت من افراد عائلته. فكانت القرية بهذه الصورة عائلة واحدة.

ومما كان يحفظ العائلات ويصونها من الفساد هو — كما سبق لنا القول — زواج البنين والبنات في سن العشرين او ما فوقه قليلاً، زواجاً متناسباً لا دخل فيه لتجارة البنات ومطامع الراغبين ولا لتفاوت درجات العمر.

وحلّة العائلة اللبنانية وحليتها كانت الصدق لاسيما في المعاملات. فقد كان الرجل يستدين مبلغاً من المال دون سند ولا قيد ولا شرط، ويدفعه في استحقاقه دون مطالبة. ولم تكن هناك فوائد تثقل كاهل المستدين.

حياة جميلة نتخيلها حياةً شعرية لكنها حقيقة ملموسة كان يشعر بها النصارى. وقد امتاز جبل لبنان بهذه الحياة، حياة السكينة والوفاق والسلام حتى ضُرب المثل المشهور «هنيئاً لمن له مرقد عنزة في لبنان!»

وقد اشتهرت هـذه الصفات في القروي المسيحي حتى اصبحت القرى التي يسكنها ملجأً لكل خائف او مضطهد، فلم يتردَّد الامير التنوخي الدرزي في تخبئة ابنَي اخته المعنيّين المسلمين عند ابرهيم الخازن في احدى قرى كسروان في وسَط كلّه من المسيحيين. والى هؤلاء القرويين المسيحيين كان يسلّم الامراء والمشايخ الدروز املاكهم واموالهم، وكانوا يشيدون لهم الكنائس ليغنوهم بالسكنى في قرى الشوف وجزين. كل ذاك يدلكم على مبلغ ما كانوا يعتقدون فيهم من الصدق والاخلاص والنزاهة.

* * *

هذه كانت حالة العائلة اللبنانية، وعلى الاخص عائلة الفلّاح. وقلّما ترى الغريب آتياً للقرية، وقلّما يذهب ابناؤها الى الخارج. وظلت هـذه الحياة التقليدية على حالها الى اواسط القرن المنقضي.

لكن لمّا كثرت المداخلة الاجنبية ، ودخل قرى الجبل الغرباء ، وتغيّرت ضروريات المعيشة ، وضاق نطاق الجبل على سكّانه فاخذوا يغادرون قُراهم سعياً وراء اكتساب الرزق في المدن والسهول المجاورة اولاً ، ثم في القطر المصري ، واخيرًا في اطراف اميركة وافريقية واوسترالية ؛ لمّا رأى هؤلاء الفلاحون ما شاهدوه من الامور والمشاهد التي لم يكن يدور في خلدهم وجودها ، وهم على الغالب من الطبقة غير المتعلّمة ، سكروا بما رأوه وسمعوه ، فتغيّرت احوالهم ومعيشتهم :

فعدم التعليم الكافي ، والمهاجرة وكثرة الاختلاط بمن هم على غير اخلاقهم وعوائدهم ، وزيادة المطامع وعدم التدريج في التطوّر ، والذهول عن مداومة التمسُّك بالتقاليد الدينية الموروثة ، والميل الى التشبه بما نراه من الاخلاق الفاسدة ، وتشتت الوف من اللبنانيين في كافة الاقطار ، كل ذلك افقد العائلة اللبنانية هيئتها وحياتها القديمة . فلم يعد لها صبغةٌ تعرف بها . ولم تعد ممتازةً بتلك الصفات والمبادي التي كانت تميّزها . زد على ذلك ان قرى الجبل لم تعد منفردة كما في الماضي عن سائر العالم فالتي — وهي نادرة جدًّا — لم يهاجر احد من اهلها وسكانها اتاها الغرباء والسياح من كل الطبقات ومن جميع اصحاب الاخلاق والمبادي الحسنة والفاسدة .

فاذا اردنا الكلام عن الحياة اللبنانية في الوقت الحاضر ، وما تأتى عليها من المحاسن والعيوب ، لنقابل بينها الآن وبينها في الماضي ، يطول بنا المجال كثيرًا . واني اقترح هذا الموضوع على غيري ممن يكون اطول باعاً واقدر مني على ايفائه حقه .

مقابلة الآداب : ٤

توارد الخواطر

بين بعض ادباء العرب وغيرهم من ادباء الاجانب

بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

من مدة طالت اكثر مما كنا نؤمّل ، تكلمنا عن مقابلة الآداب : ماهيتها [١] ، وضرورة درسها في هذا العصر [٢] ، وقد شرعت آداب الامم المختلفة تتجاور اكثر من ذي قبل ، ويؤثّر بعضها في بعض على شكل يدفع الى الاطمئنان حيناً ، والى القلق احياناً . اذ نخشى على شخصية ادبنا القومي من الانحلال في ذاك المزيج الغريب الذي يأخذ من ادب كل امة بطرف ، فيحوّر ويبدّل ، حتى ينتج ادباً جديداً يكون كلّاً للكلّ ، يستأنس ببعضه الجميع ، ولا يستأنس بجميعه احد . وهو ما يسميه الناابهون من نقّاد فرنسة اليوم «بالادب العالمي» ويعنون به دارسين تأثيره في ادبهم الشخصي . ولدرس مقابلة الآداب عمل مفيد في تعيين حدود هذا الادب العالمي ، وتمييزه عن الادب القومي الخاصّ بامة من الامم ، مع الاشارة الى كل موضوع مشترك بين المفكرين .

الى هذه الغاية رمينا في المقدمات السابقة . وقد اوردنا بعض الامثلة على توارد الخواطر بين بعض ادباء العرب وغيرهم من ادباء الاجانب ، حاصرين ذاك التوارد في موضوع «الانسان» وصفاته وخصوصاً عظمته ومسكنته . [٣]

الحياة والموت

ولم تكن حياة هذا المخلوق العجيب ، وعذاباته ، وموته ؛ لتقلّ عن ماهيته تأثيراً في ادباء الامم المختلفة ، فتناولوها بالبحث ايضاً ، كما تناولوا الانسان ،

١) راجع المشرق (٢٧ [١٩٢٩] ٢١-٢٦)
٢) راجع المشرق (٢٧ [١٩٢٩] ١٠٩-١١٥)
٣) راجع المشرق (٢٧ [١٩٢٩] ٢٠٠-٢٠٤)

واتفقوا ، عن غير قصد ، في كثير من آرائهم.

وهم لا يشعرون بالحياة ألّا اذا كانت مرّة ، ثقيلة الوطأة عليهم ، فيئنون تحت عبئها ، ويتظلّمون ، ويتشكون . والشعراء يحبّون التشكّي والتذمّر لكل سبب ، ولغير سبب . لأن التشكّي يضرب على وترٍ حسّاس يلاقي صداه في جميع الافئدة ؛ اذ قلّ من الناس من لم يعاكسه دهره في بعض امانيه . والدهر كلمة مطّاطة المعنى ، غامضة التحديد ، تمثل كل ما في حياتنا من عذاب وشقاء ، يهرب منه الانسان فلا يُفلته ، ويخفض له الجانب فلا يرقّ له ، ويهاجمه بشتائمه ولعناته فيضحك منه متهقهاً ويمضي في صروفه . حتى يحار المرء في حياته ، ويئن من عذابها قائلاً مع من ذكرهم سفر الحكمة :

«إنّ حياتنا شقيّة قصيرة . . . إنما حياتنا ظلٌّ يمضي . . .»(١

على ان هذا القصر كان مدعاةً الى العزاء عند بعض البائسين كما كتبت مدام دي سيڤينيه الى ابن عمها :

« *La vie est courte, mon cher cousin : c'est la consolation des misérables* »(٢

وقال ايوب البارّ :

« ان حياة الانسان على الارض تجنّدٌ وكأيّام أجيرٍ أيّامه . مثلَ العبد المشتاق الى الظلّ ، والاجير المنتظر أجرته . . . . لا ألبثُ ان أضجعَ في التراب ، فتُبكّر في طلبي فلا اكون . »(٣

اما هذا الظلّ الذي يصبو اليه ويشتاقه ، فما هو سوى ظلّ الموت المريح من متاعب الحياة . وقد تردّدت هذه الصورة في الشعر العالمي من عربي واجنبي ، تارةً يرافقها بعض التلميح الى اساطير الاقدمين كما في قول رونسار :

Par les ombres myrteux, je prendray mon repos(٤

١) سفر الحكمة ٢ : ١ ، ٥

٢) Mme de Sévigné, *à de Bussy, le 15 Décembre 1685*

٣) سفر ايوب ٧ : ١ ، ٢ ، ٢١

٤) Ronsard, *Sonnets pour Hélène, II, 42*

وطورًا تتجسّم فتُصبح جناحاً ، كما جاء في الاوپرا الشهيرة فوست :

O mort ! quand viendras - tu m'abriter sous ton aile ?

وقد جمع الشاعر العربي الظلَّ والجناح فقال :

ورنّقت المنيةُ فهي ظِـلٌّ   على الابطالِ دانيةُ الجناحِ

ذكره الزمخشري في أساس البلاغة معجباً ، وشرحه قائلًا : «فيـه بيانٌ جلي ان ترنيق المنية مستعار من ترنيق الطائر (اذا رفرف وخفق بجناحيه) حيث جعل المنية كبعض الطير المرنّقة بان وصفها بوصفه من التظليل ودنوّ الجناح.»

واكثر ما يكون استعمال هذه الاستعارات للموت في الحرب ، حيث يخيّم النقع على المتحاربين ، فيُصبح للحِمام استار وحجب. قال هوميروس واصفاً موت بطل في النشيد السادس عشر من الالياذة :

ومن ثمّ اخمدَ انفاسه   واغمض عينيه سترُ المنونِ (١

ومن صور الموت ايضاً تلك الكأس الدائرة على جميع الناس . وقد رسمها الشعراء والمؤلفون في كل عصر ومكان. واقوالهم اكثر من ان يمكننا ايرادها كلّها ، فنكتفي بقول المهلهل :

ما ارجّي في العيش بعد نَداما   يَ ، أراهم سُقوا بكأسِ حَلاقِ (٢

وقول المعرّي :

كأس المنيّة اولى بي ، واروح لي   من ان اكابدَ إثراءً واحواجا !

وقول المتنبي راثياً جدّته :

احنّ الى الكأس التي شربت بها ،   واهوى لمثواها التراب وما ضمّا (٣

وقد توسّعوا في الصورة احياناً فجعلوا كأساً لكل ما يصادف الانسان من الخير والشر ، فذكر صاحب المزامير كأساً بيد الله سبحانه . وجعل هوميروس لدى زفس ، اكبر آلهة اليونان ، قارورتين يسقي منهما العباد واحـدة مملوءة

١) سليمان البستاني : الالياذة ، ص ٨٣٩
٢) اطلب الروائع (٣ [المهلهل] ٢٠)
٣) اطلب الروائع (١٢ [المتنبي] ٢)

شرًّا والاخرى خيرًا[١] ، الى غير ذلك ممَّا ورد في الشعر الاجنبي عن كأس الحياة ، وكأس الملذّات ، وانه ليتبادر الى الذهن ، عند ذكر الكأس ، بيت عنترة :

لا تسقني كأس الحياة بذلّة   بل فاسقني بالعز كأسَ الحنظلِ

* * *

اما كون الموت يريح الناس فمُستفاد من ان الحياة كلّها تعب وشقاء . وهو موضوع آخر يمكننا تسميته بعالمي . وقد رأيناه في التوراة ، وكذلك ورد في الانجيل ، وتردَّد في القرآن ، واشار اليه هوميروس في النشيد العاشر من الالياذة[٢] ولا يتسع المجال لتعداد الشواهد ، فنكتفي بذكر قول ابي العلاء :

تعبٌ كلها الحياةُ ! فما اعـ   ـجبُ إلّا من طامعٍ في ازديادِ!

فلا غرو اذًا ان فتش من رأوها ثقيلة الوطأة ، عن التخلّص منها . وقد يبلغ بهم اليأس الى تمنّي عدم الوجود ، كما فعل ايوب الصديق اذ قال :

« لا كان نهار ولدت فيه ، ولا ليل قيل فيه قد حُبل برجل . ليكن ذلك النهارُ ظلامًا ولا رعاه الله من فوق ولا اشرق عليه نور . . . »

وهو يتوسع في المعنى توسعًا رائعًا حتى يصل الى قوله :

« هلّا فاضت روحي عند خروجي من البطن ! لماذا صادفت رُكبتين تقبلانني او ثديين يرضعانني ؟ اذًا لكنت الآن أضجع فأسكن ، ولكنت أنام فاستريح . » (٣

وقد جعل هوميروس تمنيات من هذا النوع على لسان هيلانة ، مسبّبة حرب طروادة ، وذلك في النشيد الثالث من الالياذة[٤] ، فقالت :

« . . . كلّ الشرورْ   والرزايا الدمُ من اجلي تثورْ
آه لو كانت رحى الريح تدورْ
يوم ميلادي ، وتيّارُ الأوارْ   للجبالِ الشمِّ بي كالطيرِ طارْ
او رمى بي فوق امواج البحارْ »

١) الالياذة : النشيد الرابع والعشرون ، ص : ١١٣١
٢) الالياذة ، ص ٥٩٦
٣) سفر ايوب ٣ : ٣-١٤
٤) ص ٢٦٢

وكذلك ما جاء في القرآن عن لسان مريم :

« ليتني متُّ قبل هذا ، وكنت نسياً منسياً . » (١

وقال احد شعراء الفرس ما ترجمته :

ليت امي لم تضعني ، او اذا وضعتني ليتني لم أرضَعِ (٢

على انه لمّا لم تكن فائدة من هذه التمنيات ، حوّل مبغضو الحياة وجههم شطر حلٍّ آخر وهو الموت ، فطلبوه بكل ما في عواطفهم من قوّة تأثير ، وبكل ما في لغاتهم من جمال وفنّ .

قال ابو العلاء :

رقدة الموت ضجعة يستريح الـ جسم فيها ، والعيشُ مثل السُّهادِ !

وقد عبّر عن المعنى نفسه تيوفيل غوتيه بصورة رائعة قال :

Dieu, pour nous reposer dans les déserts du temps,

Comme des oasis, a mis des cimetières;

Couchez-vous et dormez, voyageurs haletants ! (٣

وفي المعنى نفسه ما كتبه سكارون واراد ان يحفر على قبره :

Passant, ne fais icy de bruict !

Garde que ton pas ne l'éveille,

Car voicy la première nuict

Que le pauvre Scarron sommeille ! (٤

وقال برناردن دي سان پيير :

« *Elle (la mort) est la nuit de ce jour inquiet qu'on appelle la vie.* » (٥

---

١) القرآن (١٩ [مريم] ٢٣)

٢) تعريب سليمان البستاني : الالياذة ، ص ٤٦٨

٣) Th. Gautier, *La Caravane.*

٤) Scarron, *son épitaphe par lui - même.*

٥) Bernardin de St Pierre, *Paul et Virginie*

وظهر الموت لليكونت دي ليل فاستقبله قائلاً ؛ وما اشبهه ببيت المعرّي المذكور اعلاه :

Affranchis - nous du temps, du nombre et de l'espace,
Et rends-nous le repos que la vie a troublé.(١

وجاء لامرتين كما يجي اعزّ المخلصين فصاح :

Je te salue, ô mort, libérateur céleste,
Tu ne m'apparais point sous cet aspect funeste
Que t'a prêté longtemps l'épouvante ou l'erreur. (٢

وكذلك هتف اندري شينيه :

Vienne, vienne la mort ! que la mort me délivre !(٣

وما ذاك الّا لان الموت يُفقد الانسان اوجاعه وآلامه الطويلة مــا طالت الحياة ، كما يقول ابو العلاء :

لعل موتاً يريح الجسم من نَصَبٍ ! إن العناء بهذا العيش مقترنُ !

وكذلك قوله :

متى غدوت ببطن الارض مضطجعاً ، فثمّ افقد اوصابي وامراضي !

وهو يشبه قول جوزف سورَن :

Mourir est un instant, vivre est un long supplice.(٤

وعلى نحو ما تقدّم قول غريسه :

La douleur est un siècle et la mort un moment.(٥

وهنا يجدر بنا القول ان ابا العلاء رأى من فوائد الموت ما لم يرَه غيره ،

١) Leconte de Lisle, *A la mort.*
٢) Lamartine, 1res *méditations poétiques, V. L'Immortalité.*
٣) André Chénier, *Dernières poésies, VII.*
٤) Joseph Saurin, *Beverlei, Acte V, Sc. 5.*
٥) Gresset, *Épître à ma sœur sur ma convalescence, v.92.*

اذ قال انه يخلّصنا حتى من الاهتمام بشؤوننا المادية فنصبح غير محتاجين الى شيء ولا الى احد . وهذا كلامه :

اصبح في لحدي على وحدتي لست الى الدنيا بمحتاجِ

. . .

العيش افقر منا كلَّ ذاتِ غنى والموت اغنى بحقٍ كلَّ محتاجِ

. . .

لكونُ خلبك في رمسٍ اعزَّ له من ان يكونَ مليكاً عاقدَ التاجِ
الملك يحتاج آلافاً تناصره والميت ليس الى خلقٍ بمحتاجِ

وهو ما عبَّر عنه ابو العتاهية بقوله :

ما أكثرَ القوتَ لمن يموتُ !

* * *

ومما يَلفت النظر ان اكثر من يتمنّون الموت ، او يستخفّون بقدره ، يعبرون عنه بلفظ «النوم» و«الرقاد» وعن الحياة «بالسهاد» ، كما وردت عند ابي العلاء ، وبرناردَن دي سان پيير ، وتيوفيل غوتيه .

وهذا الفرد دي ڤيني اذ يطلب الموت على لسان «موسى» يستعمل التعبير نفسه فيقول مخاطباً الله :

O Seigneur ! j'ai vécu puissant et solitaire.

Laissez - moi m'endormir du sommeil de la terre ![1]

حتى ان ابا العلاء جعل بين الموت والنوم قرابةً ، فقال :

وبين الردى والنوم قربى ونسبةٌ وشتّانِ برءٌ للنفوسِ و إعلالُ

ولم تخفَ هذه القرابة على الاقدمين ، فقال سقراط ان الموت اخو الرقاد ، وقال مثله ڤرجيل ، ومثله قول العرب : «الموت اخو النوم» . ومن امثالهم في الرجل اذا مات : «نام نومةً بلا حُلم»

اما هوميروس فقد جعل النوم والموت اخوين في النشيد الرابع عشر من الياذته فقال عن هيرا :

فيها قرَّت بملْ البشر اذ لقيت فيها اخا الموت الرقاد

1) A. de Vigny, *Livre mystique, Moïse.*

ولم يكتفِ حتى جعلها توأمين ، بعد ذلك بنشيدين ، فقال :

لأسرعِ قادةِ كلَّ العباد الى التوأمين : الردى والرُقاد

ولما كان لكل شيء ضدّ ، رأينا غير من تقدّم ذكرهم من الادباء والشعراء يعكسون الاعتبار ، فيجعلون الحياة نوماً والموت يقظةً . قال ابو الحسن التهامي :

العيش نومٌ ، والمنية يقظةٌ والمرء بينهما خيالٌ سارِ

وما اشبهه بقول لابروير ! وها هو بحرفه :

« *La vie est un sommeil ; les vieillards sont ceux dont le sommeil a été plus long ; ils ne commencent à se réveiller que quand il faut mourir.* »[1]

ولكل اعتبار وجه من الصواب كما يتضح للمتأمل . ولكننا نلاحظ ان تصوير الموت باليقظة يكثر خصوصاً في القصائد الرثائية او العاطفية ، التي يطمح فيها الانسان الى التشوّف الى ما وراء هذا الحجاب المسدل على حياتنا الضيقة ، فيتمتع بالانوار الازلية .

* * *

غير ان الموت ما كان ليُجيب من يدعوه ، او يترك من يُعرِض عنه ، اذا لم يشأ ذلك مقدّر الآجال . فهو غاية كلّ حيّ يسير اليها الانسان من نفسه ، وتدفعه نحوها خطواته على الرغم منه ، فكل مولود رهن الفناء ، كما قال ابن سيراخ :

« كل جسد يبلى مثل الثوب لان العهد من البدء انه يموت موتاً » (٢

وكما قال ابو العتاهية :

لدوا للموت ، وابنوا للخراب !

وكما قال غوتيه :

Naître, c'est seulement commencer à mourir.[3]

---

١) La Bruyère, *Les Caractères, XI.*

٢) ابن سيراخ (١٤ : ١٨)

٣) Th. Gautier, *Poésies, España, L'Horloge.*

وكل لحظة من الحياة تقرّبه الى تلك الغاية على نحو قول كورنيل:

Chaque instant de la vie est un pas vers la mort.[1]

فالموت هدف يجري اليه الجميع ، لا فرق بين طويل العمر وقصيره . قال الابيرد الرباحي:

وكل امرئٍ يوماً سيلقى حمامه   وان نأت الدعوى وطال بهِ العمر

ومثله كثير في اقوال طرفة ، وكعب بن زهير ، والمتنبي ، وابي العتاهية. وليس مناصٌ من ذلك. قال هوميروس في النشيد الخامس عشر:

وهل من سبيلٍ دافعٍ غُصص الردى   عن الخلق ، ما امتدَّت حياةُ الخلائقِ!

وقال في النشيد الثاني عشر:

لكنما الموت منه لا مناصَ ، وقد   يأتي بايّ سبيلٍ كان او سببِ

وهو من المعاني المطروقة كثيراً في الشعر العربي. ولعلّ اقرب ما قيل فيه الى بيت هوميروس قولهم:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره   تعدَّدت الاسباب والموتُ واحدُ

اذاً فالموت محتَّمٌ على جميع الاحياء دون استثناء! فهم لدى هبّاته كاوراق الشجر لدى الريح الهوجاء تعصف فتدهورها في الهواء ، وتلقيها جافّة بالية. وذلك قول عديّ بن زيد:

ثم اضحوا كأنهم ورق جـ   ـفَّ فألوَت به الصَّبا والدَّبورُ

وقول ربيعة بن مقروم:

واضحت بنهاء اجسادُهم   يشبّهها من رآها الهشيما

وقول يزيد بن الحكم:

ما عذرُ من هو للمنون   وريبها غرضٌ رجيمْ
ويرى القرونَ أمامه   همدوا كما همد الهشيم!

---

1) Corneille, *Tite et Bérénice*, V. 1.

وقد قال ابن سيراخ في ذلك، ذاكرًا من يولد ايضاً، متخذاً التشبيه نفسه :

« فكما ان اوراق شجرة كثيفة بعضها يسقط ، وبعضها ينبت ، كذلك جيل اللحم والدم بعضهم يموت وبعضهم يولد. »[١]

وهو يكاد يكون اختصارًا لقول هوميروس في النشيد السادس من الالياذة :

فقال : « علامَ اتنصتَ المَبَرْ وغن كأوراق هذي الشَّجَرْ
فبعضاً يبيدُ الهواء ، وبعضُ على منبت بائدِ النبتِ غضْ
ففي كل عام نباتٌ أبيدا به الغابُ تُنمي ربيعاً جديدا
وكلٌّ على إثرِ كلٍّ مشى فجيلٌ تلاشى وجيل نشا ! »

اما ذاك الوقت وتلك الساعة فلا يعلمها احد. وليس في مقدور الانسان ان يؤخِّرَ او يقدِّمَ اجله ثانيةً واحدة : « فاذا جاءَ أجلُهم لا يستقدمون ساعةً ولا يستأخرون »[٢] لانه كما يقول ابو العلاء :

لكل نفسٍ من الردى سببٌ لا يومها بعده ولا غدها !

ولا ينجيها من ذلك هرب لان « الموت ، على قول علي بن ابي طالب ، طالبٌ حثيث لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب ».

وما اروع قول ابي الطمحان في تصوير ان الموت يدرك الانسان حيث كان لا تمنعه حصون ولا تدفع عنه حرّاس ، قال ذاكرًا قصر ريدان المشهور بمناعته في اليمن :

ولو كنت في رَيْدانَ يحرس بابَه أراجيلُ أحبوشٍ وأغضفُ آلفُ ،
اذًا لأتتني حيث كنت منيّتي يخبُّ بها هادٍ الى الموت قائفُ !

ونحن لا نُعدم وجود هذه الصورة في الادب الفرنسي بعد ان نقطع عشرة قرون ، فنستبدل بقصر ريدان قصر اللوفر ، وحرسه برجال الحبش ، فنسمع مالرب يقول ما يترجم تماماً صورة ابي الطمحان :

Le pauvre en sa cabane, où le chaume le couvre,

Est sujet à ses lois ;

---

١) (ابن سيراخ : ١٤ : ١٩)

٢) القرآن (٧ [الاعراف] ٣٢)

Et la garde qui veille aux barrières du Louvre
N'en défend point nos rois.[1]

* * *

اما ما يحدث لدى ذكر الاموات ، بين بني قومهم ، فهو ما تدلّنـا عليه ايضاً وحدة الطبيعة البشرية المتماثلة في جميع العصور والامصار . فان بعض اهلهم من رقيقي القلوب يبكونهم بكاء الخنساء اخويها ، وام هكتور ولدها . اما سائر الاصحاب والمعارف فسرعان مـا ينسون موتاهم ، وسرعان ما تجفّ مآقيهم لطول الغيبة وما ذلك الّا للسبب الذي دفع الفرنسويين الى قول المثـل المعروف (*Loin des yeux, loin du cœur*) وكأنه ترجمة حرفية لبيت ابي نواس .

ومن غاب عن العينِ فقد غاب عن القلبِ

قال ڤيكتور هوغو في هذا النسيان :

Les morts durent bien peu. laissons - les sous la pierre !
Hélas ! dans le cercueil, ils tombent en poussière
Moins vite qu'en nos cœurs ![2]

وقال جيلبر :

Au banquet de la vie, infortuné convive,
J'apparus un jour, et je meurs.
Je meurs, et sur la tombe, où lentement j'arrive,
Nul ne viendra verser un pleur.[3]

وما اشبه القولَين بقول ابي العتاهية :

اذا مـا انقضت عني من الدهر ليلةٌ فـان عزاء الباكيات قليـلُ
سيُعرَض عن ذكري ، وتنسى مودّتي ويحدثُ بعـدي للخليلِ خليـلُ !

---

١) Malherbe, *Stances à du Perrier.*
٢) V. Hugo, *Feuilles d'Automne*, 6.
٣) Gilbert, *Adieux à la vie. Ode IX.*

دير سيدة طاميش

لحضرة القس انطونيوس شبلي اللبناني

٢

كتب خزانة الخطية

كانت خزانته حافلة بنفائس الكتب الخطيّة الثمينة النادرة ، فامتدّت اليها الايدي فبعثرتها وشتّتتها بعد بيع مطبعته. ولم يبقَ منها إلّا بعضها فاتلفت قسماً منها العفونة والرطوبة والعثّ التي أعملت فيها انيابها ، فثقبتها واكلت حروفها ، وقد صانها الرئيس في خزانة مقفلة. واليك وصف ما بقي منها :

١ كتاب « تسهيل صعوبات الكتاب المقدّس تأليف الاب الفاضل النبيل والمعلّم الجليل المطران سمعان الحصروني[١] تلميذ مدرسة رومية العظمى ومطران دمشق الشام صنفه سنة ١٧٣٠ مسيحية ». مجلد ضخم بخطٍّ كرشوني ، يقع في ٤٦٠ صفحة ، بطول ٣٢٨ سنتمتراً ، وعرض ٢٣ س ، وورقه من العادي الصقيل. ويقول مؤلفه المطران سمعان بن يوسف عوّاد الحصروني في مقدّمته انه جمع تفاسير هذه الصعوبات من كتب الآباء القديسين والعلماء ، وعدل عن ذكر اسمائهم حبًّا بالاختصار ، إلّا انه أثبت اسماء ذوي الآراء والاقوال المتضاربة في الشروح وبعد ان استوفى المؤلف الشرح وحلّ ما عَسُر وصعب من اقوال وامثال وروايا (روايات) التوراة والانبياء بتفسير ما تحتوي عليه من الاشارات

١) انتخب بطريركاً في ١٦ اذار سنة ١٧٤٣ ، وتوفي في دير سيدة مشموشة في ١٢ شباط سنة ١٧٥٦ ، راجع سلسلة البطاركة للشرتوني ص ٥٠ ، ولائحة مؤلفات هذا البطريرك في كتاب المخطوطات العربيّة للعلامة الاب شيخو ، ص ١٤٩ وما يليها.

والدلايل واختصرها اختصاراً شاملاً معاني مناقضاتها باجوبة ومسائل ، ورفع الشك عن قلوب المشكين بعضها وتتم ذلك بالتصحيح الاوفى والتصريح الأشفى ، آثر ان يمدّ يد القريحة بتفسير معاني الانجيل المقدّس وما يحتويه من الاشياء التي تحمل عقل القاري والسامع الى المحذور وأوضح ما تنطوي عليه بعض الامثال وتشير اليه الالفاظ والاقوال ... وتخطى ايضاً الى حلّ صعوبات رسائل القديس بولس ومار يعقوب ومار بطرس ومار يوحنا ... الخ الى ان قال : « ان هذا الكتاب يغني القارئ عن تقلّب كتب الآباء القدماء وتفتيش مصاحف المترجمين والعلماء » (باختصار عن المقدمة)

وجاء في آخر هذا الكتاب ما حرفيته :

«علّقه بيده الفانية الحقير في الكهنة القس بواقيم الحدثي الراهب اللبناني وكان النجاز من هذا الكتاب المبارك في خمسة ايام خلت من شهر شباط المبارك سنة الف وسبعة وثمانين للتجسد الالهي وكان ذلك في زمان رياسة الاب مرقوس الكفاعي الرئيس العام الكلي الاحترام في دير سيدة طاميش في زمان رياسة الاب زكريا العجلتوني الرئيس الاكرم على الدير المذكور اللبنانيين ...»

« وقد اوقف هذا الكتاب لمدرسة دير برشين لاجل افادة الاخوة الدارسين الاب مبارك (حليحل) البكتناوي الرئيس العام اللبناني سنة ١٨٧٩ في ١٢ شباط ».

وقد عُلقت على هذا الكتاب هذه الافادة وهي :

« في سنة ١٧٧٩ في اول تشرين الثاني صار مطر عظيم كمثل الطوفان ومن شدة المطر حمل نهر الكلب حملة عظيمة واخذ الجسر صح».

٢ كتاب العلم الطبيعي

«هو ما يتبصّر بذوات الاشياء الطبيعية ولواحقها وموضوعهُ الخاصّ هي الاجسام الموجودة بما هي واقعة في التغيير وبما هي موصوفة بانحاء الحركات والسكنات ، والشيء إمّا انهُ ممتنع او غير ممتنع ، والغير الممتنع إمّا ممكن او موجود ، والموجود إمّا جوهر او عَرَض، والجوهر إمّا خالق او مخلوق ، والجوهر المخلوق إمّا بسيط او مؤلّف».

وهذا الكتاب تأليف القس يوسف السمعانيّ الحصرونيّ تلميذ مدرسة الموارنة برومية . عدد صفحاته ٥٢٢ صفحة ، طوله ٢١٧ س وعرضه ١٥ س ، خطّهُ بالحرف الكرشوني القس اسطفانوس (البحليداتي) الراهب اللبنانيّ في دير مار بطرس ومرجلين برومية سنة ١٧٣٣ مسيحية

٣ كتاب تذكارات روحانية مفيدة مقتطفة من سيرة القديس كرلوس

بوروماوس مطران مدينة ميلانو . جاء في آخره :

« قد استخرج هذا الكتيِّب المنير الجرم الكثير النفع من اللغة الافرنجية الى اللغة العربيَّة القس يعقوب الماروني الحلبي لاجل منفعة القريب»(١.

وقد أُضيف اليه بعض فوائد روحية مفيدة لمن يقرأ ويسمع . ثمَّ تأملات مختصرة على عدد ايام الشهر نقلها من اللغة الافرنجية الى اللغة العربية الشدياق يوسف سليل مدرسة الموارنة برومية العظمى . ثمَّ مرآة الراهب كاملة للسيد فرحات ، وهي التي طبعناها ناقصة في كتاب المحاورات الرهبانية. وهذا الكتاب نسخه بالكرشوني القس جرجس قشُّوع (الغسطاوي) الراهب اللبناني في ٥ كانون الاول سنة ١٧٣٠

٤ التحفة السريَّة للمطران جرمانوس فرحات خط يوسف سابا صقر سنة ١٨٢٧ في ٢٨ نيسان

٥ كتاب في الصلاة العقلية اي تفسير الفضائل الالهية ، مخروم من آخره ، تأليف القس بطرس بن عبدالله بن اسحق البتروني التولاني واعظ مدينة حلب

٦ كتاب تأملات واخبار روحية ، كُتب سنة ١٧٧٨

٧ شهادات وامثلة مقتطفة من كتاب اباطيل العالم لاجل مساعدة الواعظين. خط الشدياق يوسف مارون تلميذ اسطفانوس مطران البترون سنة ١٧٤٠

٨ فصل الخطاب للمطران فرحات ؛ خط يوسف مارون الطرابلسي الانجيلي تلميذ اسطفانوس مطران البترون ، في ٢٩ ايلول سنة ١٧٤٦ . وجاءت في آخره هذه العبارة : « بلغ مقابلةً على المسودَّة بخطّ مؤلفه صحّ »

٩ ديوان المطران فرحات

١٠ كتاب يحتوي حياة بعض القديسين كالقديس مارون الناسك ، والقديس افرام ، والقديس ريشا ، وترجمة مريم المصريَّة ... الخ كتبه بالكرشوني القس جرجس قشُّوع ، في ٦ آذار سنة ١٧٦٨ بدير طاميش.

١١ مختصر السبع رذايل وما يقابلها اعني السبع فضايل ، ويُقسم هذا الشرح الى ستة عشر فصلًا.

---

١) طُبع هذا الكتاب في مطبعة برنابا برومية سنة ١٧٣٩

١٢ مختصر بعض العلوم التي وضعها يعقوب الرهاوي المبيّن فيها عن خلقة الملائكة والعالم والافلاك والنيرات والمكوّنات جميعها . خط عبدالله يزبك المكرزل ، سنة ١٨٢٦ .

١٣ رسالة مختصرة في عبادة الورديّة للعبد الحقير القس اسطفانوس بن ورد(١) الماروني تلميذ مدرسة الموارنة برومية جاء في آخرها : تمّت سنة ١٧٨٠

١٤ تفسير الانجيل لكرنيلوس الحجري اليسوعيّ . مجلّد ضخم ، ترجمهُ الى العربية القس يوسف الباني الحلبي الماروني سنة ١٧٢١ . خط الخوري مارون الاشقر بيت شباب ، سنة ١٨٤١ ، كتبهُ بامر الاب العام اللبناني عمنوئيل الشبابيّ .

١٥ الدرُّ المنثور في تفسير الزبور لاحد الرهبان اليسوعيين . مجلد كبير ، خطُّهُ عربي كنائسي جميل . جاء في آخره : « علّقه بيده الفانية جبرايل القس الراهب اللبناني في ايار سنة ١٧٨٦ .» (لها بقية)

١) راجع مؤلفاته في كتاب المخطوطات العربيّة ، ص ٢١٠

وصف الرهبان

كان من عادة ابن المعتزّ (٨٦١ – ٩٠٨) ان يبكر للصبوح بالقرب من دير عبدون بالمَطيرة ، وهي قرية في ضواحي سامرّاء . فقال في ذلك ، وفيه وصف للرهبان لا يزال صادقاً منذ اكثر من الف سنة :

سقى المَطيرةَ ذاتَ الظلّ والشجرِ وديرَ عبدونَ ، هطّالٌ من المطرِ !
فطالما نبّهتني للصبوح بها ، في غرّة الفجرِ ، والعصفور لم يطرِ ،
اصواتُ رهبانِ ديرٍ ، في صلاتهمِ سود المدارع ، نعّارين في السحرِ ،
مزنّرين على الاوساط ، قد جعلوا على الرؤوس اكاليلاً من الشعرِ .

التذكار المئوي

للمرسلين العازريين في دمشق

بقلم الاب مبارك ثابت اللبناني

١

في شهر ايار من هذه السنة ، عيّد المرسلون العازريون في دمشق عيد المئة السنة الاولى لاستيطانهم هذه المدينة ، وقيامهم مع راهبات المحبة العازريات بخدمة الدين والعلم ، والمرضى والمساكين والايتام ، ومصالح الدمشقيين العائدة الى الرقي الروحي والادبي. مما بسط الالسن في الثناء عليهم ، وجعل لهم منزلة عالية في النفوس.

كانت حفلات العيد في اكمل مجالي الابهة ، والطف مظاهر الرونق ، بالغة اقصى غايات الترتيب والنظام ، جامعة لدواعي الفرح والابتهاج . ودامت ثلاثة ايام تلوّنت فيها الاعمال والمظاهر والافراح مما يوقظ التقوى في النفوس، ويدخل السرور الى القلوب. فمن تمثيل معجب ، الى انشادٍ مغرب ، الى سماع مطرب ، الى مآدب سخية ، الى زينة شائقة ، وخطب خيالية ، ومحاضرات مليحة. فكنت ترى العيد بارزًا في حلة ابتهاج فاخرة مطوّق العنق بقلادة ظرفٍ لامعة.

واقبل الناس من كل الطوائف الى دار الرسالة يهنئون المرسلين والراهبات بالعيد ، معربين لهم عما في صدورهم من عواطف الشكر لابناء القديس منصور الذين ما فتئوا مسافة قرنٍ مواظبين على خدمة الارواح والابدان ، تبديدًا لظلمة الجهل ونشرًا لانوار العلم ، وتخفيفًا من اعباء النوائب واوجاع الفقر والاعتلال ، وتلافيًا لسيّئ غوائل اليتم والاهمال . وممن شهدوا الحفلات ، او بعضها ، مع اعيان المدينة واهل التلاميذ والتلميذات ، الرؤساء الروحيون ، وحضرة الوزير المفوض ، ورئيس المجلس النيابي وغيرهما من ارباب الحكومتين المنتدبة والوطنية.

ولما كان لابناء القديس منصور ولاسيما راهبات المحبة فضلٌ لا يقوم عليه

نكيد، لما يكبدون انفسهم من ضروب التضحيات في سبيل المساكين والمتألمين اخوة المسيح لوجه الله الكريم، لا نرى اننا نطيش سهماً اذا اعتقدنا كون قراء «المشرق» الكرام يرتاحون الى قراءة نبذة نكتبها في تاريخ الرسالة العازرية في دمشق، يتسنى لهم بها الوقوف على تاريخ ابنية الرسالة ومنشآتها الخيرية، مسافة مئة عام ونيف، في قاعدة الامويين القديمة. فنقول:

العهد الاول

١٧٨٣ — ١٨٢٧

تولى العازريون الرسالة في دمشق سنة ١٧٨٣، وكانت من قبلهم للآباء اليسوعيين. واول من قدم الشام منهم الابوان بطرس اتيان ڤيروت وجوزف. ماري غندولفي. فاقاما في دمشق يزاولان اعمال الرسالة المقدسة طول ايامها. وتوفاهما الله الواحد بعد الآخر، فكانت وفاة الاخير منهما عام ١٨٠٥. وكان المرسلون العازريون حدثي الحلول في البلاد، فشتتت الثورات شملهم ولم تستقر لهم قدم في سورية. فاقفلت اديارهم التي هي في الشام، وصيدا، وطرابلس، وعين طوره. ولم يبقَ مفتوحاً الا ديرهم في حلب. وقد ذاقوا فيه من ضروب الاعنات والتضييق والوان المخاوف والمتاعب ما تهلع لهوله القلوب وتقشعر لذكره الابدان. لكنهم اعتصموا بالله وتدرعوا الصبر، فثبتوا عند الواجب غير متزعزعين ولا هيابين، تقفياً للرسل القديسين الذين اقتحموا اشدّ المخاطر وازدروا العذاب والشدائد والموت وكل قوات الارض والجحيم، في سبيل نشر انوار الحق وتوسيع ملك المسيح يسوع.

وظلّ دير الشام مقفلاً خالياً والرسالة معلقة الى سنة ١٨٢٧. وفي تلك الحقبة سمى المجمع المقدس الاب لويس غندولفي العازري زائراً رسولياً في سورية، وكان مشمولاً بالحماية الافرنسية، ثم رُقي الى درجة الاسقفية وجعل قاصداً رسولياً عام ١٨١٧ او ١٨١٦. فكان يتعهد دير الشام مرة كل سنة او كل ثلاث سنين، فيرمم المتهدم منه حفظاً لكيانه ويؤمل الشعب الكاثوليكي بقرب رجوع المرسلين اليه. وله رسالة كتبها في الشام بتاريخ ٢٦ تموز سنة ١٨٢٠

واودعها شكواه واسفه من اقفار دار الرسالة واهمال شؤون الكاثوليك في المدينة ونواحيها ، ووصف دمشق باجل النعوت . ومما جاء في رسالته قولهُ: «اذا جاءني الاجل المحتوم ، وانا الآن على قيد خطوة منهُ ، ولم اخلّف في الدير مرسلًا يتولى حراسته في الاقل ، فقد ضاع الدير وكل ممتلكاتهِ ومشتملاتهِ ، وهيهات ان يستردّ ! ».

على ان القاصد الرسولي لم يظفر ببغيته في ما رزقه من العمر بعد تلك الكتابة ، فوافتهُ المنيّة خامس وعشرين آب سنة ١٨٢٥ ودفن في عين طوره . وهو القاصد الرسولي الثاني من المرسلين العازريين في البلاد السورية . امّا القاصد الاول منهم ، وهو اول قاصد رسولي في سورية ولبنان ، فكان الاب أرنولد بوسّو فرنساوي من ابرشية اراس ، دخل جمعية المرسلين العازريين سنة ١٧٣٣، وصار قاصدًا رسوليًا سنة ١٧٦٣. وكان في الجزائر فقدم منها الى لبنان ومعه اثنان من ابناء القديس منصور وهما الاب فكتور جليان والاخ لويس بيّورت ، فجعل كرسي قصادته في صيدا في دير الاباء اليسوعيين حيث اقام مدة عشر سنين. وكان في كنيسة الروم الكاثوليك خلافٌ ادى الى انتخاب بطريركين في وقت يتنازعان السلطة ويدعي كلٌّ منهما شرعية انتخابه . فازال بحكمته ذلك الخلاف واقرّ الحق لاحدهما دون الآخر. فانحسم الجدال واستتبّ السلام. ثم انه رجع الى باريس وفيها لبى دعوة الله بموت صالح عام ١٧٧٤

اما رسالة الشام فاشرفت على التلف لما نالها من الاهمال التام ، بعد وفاة لويس غندولفي القاصد الرسولي ، اذ لم يعد يفتقدها احد من المرسلين . وظلت على هذه الحال من الاقفار مستهدفة للخراب مدة سنتين ، الى ان قيضت لها العناية الالهية التجدّد على يد مرسلين من ذوي الغيرة والفطنة والتقوى والنشاط هما الابوان بوسّو ولروا. ارسلتهما اليها الجمعية فباغا دمشق عام ١٨٢٧ . فاقبلا يرمّان ما تهدم من بنائها ويصلحان ما فسد من حالها ، ولم يعد المرسلون يخلونها منذ ذلك العهد.

وهذا العيد المئوي الذي احتفلت له الرسالة السورية في هذه السنة على ما رأيت في ما سبق ، انما هو عيد تجديدها منذ مئة سنة ونيف على ايدي ذينك

المرسلين . وكان حقه ان يصير سنة ١٩٢٧ لانها تمام القرن ، فأرجئ الى سنة ١٩٢٩ لحيلولة وفاة المرحوم الاب ڤيكتور غرو رئيس المدرسة السابق دون اقامة هذا العيد في ميقاته .

العهد الثاني

١٨٢٧ — ١٨٦٠

كان الاب بوسّو اول من ترأس الرسالة في دمشق عهد تجدّدها عام ١٨٢٧ . احلته الشام في شهر تشرين الاول من ذلك العام . فاستقبله تعبٌ وهمٌ عظيمان . اما من جهة الدير فلأنه كان قد انتهى الى احطّ دركات الرثاثة . كيف لا يصير الى هذه الحال منزلٌ هجرهُ سكانه مدة خمس وعشرين سنة متتالية ، فلا مأوى يصلح للسكن ، ولا ماعون ، ولا اثاث . واما من جهة الشعب الكاثوليكي فلأنه كان في الشام ، في ذلك العصر ، زهاء الف اسرة من الروم الكاثوليك ، ومئة اسرة من السريان والارمن . وليس لطائفة من هذه الطوائف كنيسة . الا الموارنة لهم كنيستهم ، وعددهم لا يتجاوز مئة وخمسين نسمة . غير انها اضيق من ان تسع سائر الطوائف الكاثوليكية الشرقية ، وان كانت مفتوحة للجميع . ولا يغرب ما هنالك من تغاير الطقوس .

فرأى الاب بوسو ضرورة التشمير في ترميم معبد الرسالة ، وكان في ذلك عوائق كثيرة وصعوبات متنوعة . فانبرى يذللها بعزيمة لا يتعاظمها امرٌ ، وهمة لا يفوقها مطلب . فما زال دائب السعي على قدم النشاط ، حتى فتح ذلك المعبد للمؤمنين في اقصر ما استطاع من الحين . وعكف على الوعظ والارشاد وشرح التعليم المسيحي ، وسائر اعمال الرسالة الروحية لا يأخذه في مهمته ونىً ولا يستوطئ راحة . ولا يقصر في العمل لاستقدام مرسلين يعاونونه على الحصاد الكثير ، ويتولون ادارة مدرسة في الرسالة حتى اظفره الله بمبتغاه .

ففي عام ١٨٣١ قدم المدينة الابوان بِتسِه وبِتست ، فعرضَ عليهما الحاجة الى المدرسة ، وهزّهما لهذا الامر فنشطا له وصرنا من همهما اليه وما ابطآ ان ادركا بغيتهما ، وتجدّدت في الدير المدرسة التي كان الدهر قد اخنى عليها . ثم وجد الاب بِتسه امرأةً لبنانيةً تحسن القراءة والكتابة ، ففتح مدرسة للاناث

واقام المرأة لتدريسهنّ . ثمّ ضمّ اليها امرأة تحسن اشغال الابرة فكانت تعلّم الخياطة والتطريز.

وخلا فكر الاب بوسّو من شؤون الكنيسة والمدرسة في دمشق ، فراح ينشر كلام الحياة وفوائد الرسالة بين سكان راشيا وحاصبيا . ولم يكن ثمّ مدارس ولا اهتمام بالتعليم الابتدائي ، فحسنت له غيرته الرسولية ان يسدّ هذا الخلل فما زال يسعى ويجهد حتى جهز لاسقف الجهة كل ما يحتاج اليه في تأسيس مدرسة لكل من البلدين. وهذه المساعي الرسولية اقتضت ان يسافر الى فرنسة ويقيم فيها برهة من الزمان. ثم جاء رومية واطلع قداسة الحبر الروماني والمجمع المقدس على احوال المسيحيين في دمشق ونواحيها وعرض بعض حاجاتهم الماسّة ، فلقي عطفاً وآذاناً واعية. ورجع الى دمشق حاملاً لقب زائر في سورية عام ١٨٣٩ فاستأنف اعماله الرسولية قائماً بمهمته الجديدة احسن قيام . وكان من افاضل المرسلين متهالكاً في مصالح الدين متجملاً بخلال الخير كثير الرأفة بالمساكين . استقدم في السنة التالية الى فرنسة وطنه فألقيت اليه النيابة العامة في الجمعية ، ثم المديرية الاولى عهدَ كانت الرئاسة العامة على عاتق الاب اتيان.

امّا الابوان تِستِه وباروزّي فخلفهما في الرئاسة على دير دمشق الاب غويلو (Guillot) ، وكان لكرم اخلاقه وكمال مروءته وازدهار فضائله محبوباً جداً وذا منزلة عالية في عيون الجميع . وبلغ من شهرة الفضل والصلاح والنزاهة والصدق حدّ مضرب المثل فكان المسيحيون حتى المسلمون من اهل البلاد يحلفون بحياة « ابونا بطرس » وهو الاسم الذي يعرفونه به . نفع الدين والآداب بمحبوبيته ورقة شمائله وبراعة فضيلته وظرف معاشرته ، كما افادهما بوعظه وتعليمه وغيرته.

وفي سنة ١٨٣٧ ، انتهى الى دمشق الابوان أمايا وبآسِه ، فاكبّ الاول على درس اللغة العربية ولاقى في ابتداء الامر صعوبات شاقة لكنها لم تثبط عزمه لمضاء همته . فلم يستكمل ستة اشهر حتى صار قادراً على شرح التعليم المسيحي بهذه اللغة في مدرسة البنات . وكان الاب بوسّو قد تقدمه في تعلّم العربية ، وبلغ مثله ما توخّاه من استطاعة شرح التعليم المسيحي ، لكنه ما

بلغ الغاية الا بشقّ النفس.

ثم ان الاب أمايا غادر دمشق بعد مدة يسيرة متوجهاً في اعمال الرسالة الى لبنان الشمالي. فجعل مقامه في زغرتا واهدن، وتقرّب من اسرة كرم، والقيت اليه مهمة تثقيف يوسف بك كرم الشهير، وكان في سن السادسة عشرة عام ١٨٤٨. فأحسن تأديبه بالمعارف وعزّز قلبه في مبادئ التقوى ومحبة الوطن وانمى في نفسه الفضائل المسيحية الراهنة.

وكانت مدرسة دمشق قد بلغت شأواً من النجاح والشهرة على قدر ما يُستطاع في ذلك الزمان مع كثرة العوائق والحوائل من قلّة المدرّسين والمدرّسات، وقلة اكتراث الناس للعلم مع تتالي الاحداث وتقلبات الازمان. فمما كتبه الاب كروزه عن هذه المدرسة قوله: «في ذلك العهد كانت مدرسة الشام التي يديرها المرسلون العازريون سائرةً في سبيل التقدم مرضية السير والانتظام تعلّم الافرنسية بشيء من النجاح بدليل ان تراجمة القنصليات في مدينتنا كلهم من متخرجيها على التقريب.»

وكان ان القنصل الفرنساوي رغب الى المرسلين في استقدام راهبات المحبة الى الشام، لانفساح مجال العمل لهنَّ في ذلك البلد الكبير الشديد الحاجة الى امثالهنَّ. وحضّ المسيحيين على طلبهن، فالحفوا في الطلب، وسُيرت رسائل في ذلك الى الرئيس العام. فاستقدم الاب لروا الى باريس وفاوضه في انشاء دير للراهبات في دمشق اجابة لطلب القنصل والمسيحيين. فزيّن له الاب لروا المشروع واطنب في التشويق والترغيب وبالغ في بسط الحاجة وتهوين الامر وتسهيل السبيل. فقرّ الرأي على ما أحبّ، فرجع الى بيروت مكللاً سعيه بالظفر. وفي ٢٣ تشرين اول من عام ١٨٥٤، توجه الى الشام يصحبه الاخ نيقولا والجالية الاولى من راهبات المحبة وهنَّ ستٌ برئاسة الاخت بيكوت(Bicot)، وقدمت معهنّ الاخت جلاس ذات الشهرة البعيدة بمنشآتها الخيرية العظيمة في هذه البلاد، ولاسيا بجودة رأيها وتوقد فهمها وغزارة فضلها وتهالكها في محبة الله والقريب.

في ذلك الزمان، الذي بيننا وبينه مسافة ٧٥ سنة، لم تكن طريق المركبات تصل الشام ببيروت. اما الطريق الذي تسلكه السيارات اليوم،

وكان معروفاً بطريق الداليجانس ، فقد فتحته شركة افرنسية عام ١٨٥٩ ، اي بعد سفر الراهبات الى دمشق بخمس سنين . فلزم القافلة ان تقطع تلك الشقة الشاسعة بين البلدين على ظهور الخيل والبغال ، مجتازةً جبال لبنـان ، وسهل البقاع ، ومضيق ميسلون (وادي القرن) ، واعالي انتيلبنان ، في مسالك وعرة كثيرة العقبات والمنحدرات والمزالق والحفر . ولمّا انتهت القافلة الى شطوره ، اذا الاب غويلو رئيس الرسالـة قد جاء للقائها في ثلاثة عشر شاباً من نخبـة أسر المدينة . فاستراحوا وباتوا . ثمَّ استأنفوا المسير تحرسهم ملائكة الامن في سلامة من كل خطر ومكروه ، الّا ما اصاب الراهبات من تعب الطريق ، حتى انتهوا الى دمشق في ٢٦ تشرين اول سنة ١٨٥٤ .

فكان لقدوم ملائك الرحمة فرح واغتباط عظيمان في المدينة . وجرى لهنَّ استقبالٌ شائق قام به قنصل فرنسة واسرته ، ورجال القنصلية ، وجمعٌ غفير ، من المسيحيين ، ورواكبوهنَّ الى ديرهنَّ بابهى مجالي المودَّة والحماس.

وبعد اسبوع واحد لوصولهنَّ باشرنَ اعمال المحبة المسيحية على دأبهنَّ في كل بلـد احللهنَّ . فجعلنَ باكورة اعمالهنَّ فتح مستوصف عام في منزلهنَّ . فلم يكد خبره يُذاع في المدينة حتى احتشد على بابـه زهاء سبع مئة نفس التماس المعالجة والدواء ، لما كان للناس من صحة الركون الى بنات المحبة والى جودة ادويتهنَّ . فلما رأين كل هذا الازدحام استقدمنَ قوّاساً من القنصلية الافرنسية يحجز الحشد ، ويميز الفقراء من المدَّعين الافتقار .

وزادت بنات المحبة على توزيع الادوية ان جعلنَ يتعهدنَ بيوت المساكين ، حاملات لهم اصناف التعزيات والمعونات .

وكان المرسلون العازريون قد انشأوا مدرسةً ومشغلاً للبنات ، وقلدوا التعليم فيهما امرأتين من نساء البلد على ما رأيت في ما مضى . فتولَّت الراهبات ادارة المعهدين ، وما هي الّا مدة يسيرة حتى فتحنَ ثلاث مدارس وثلاثـة مشاغل تضم ٣٠٠ متعلمة .

ولبضعة اشهر تلت استقرار راهبات المحبة في الشام ، جيء اليهنَّ بينت في احط درجات الإدقاع ، فقبلنها عندهنَّ بمثابة يتيمة ، فما عتم ان جاء بعدها

تسع عشرة بنتاً اخريات ، ومن ثمَّ تأسس ميتم البنات.

وفي اواسط ايلول عام ١٨٥٩ ، كان دير الراهبات قد بلغ غاية قاصية من النجاح وانتظام الشؤون ، بغيرة الاب لروا وحسن تدبيره واستقامة ادارته · وبسعيه لدى الرؤساء أُسندت رئاسة الرسالة الى الاب ناجان ، فاوسع نطاقها واصعدها درجات في سلَّم الرقيّ واحسن سياستها غاية الاحسان · وصارت مدارس العازريين تدرّ لهم الارباح بما يجعلهم في سعةٍ من العيش ويصرفون فاضله الى المساكين والمشاريع الخيرية.

غير ان هذا النجاح الباهر كان اسرع زوالًا من الظل واقصر عمرًا من كواكب الصباح · فانه لم تمضِ ثمانية ايام لفراغ الاخ نيقولا من صنع منجور لما تمّ من البناء ، الّا اشتعلت فتنة السنة الستين التي اكتسحت بعض نواحي سوريّة ، ودمّرت اقليمين من اقاليم جبل لبنان · وكان شبوبها في الشام الساعة الثالثة من مساء تاسع تموز عام ١٨٦٠ ، فسحبت ذيل الخراب على حيّ المسيحيين باسرهِ ، وقوّضت كل ما بناهُ بجهد النفس وكدّ اليدين المرسلون الافرنسيون من مباني المحبة الى المدارس الى بيت السكن · ولولا شهامة الامير عبد القادر الجزائري ، لما نجا بارواحهم المرسلون ، ولا الراهبات ، ولا من في ديرهنّ من يتامى ودارسات · فانه لساعةٍ قبل اطلاق النار والحديد في حي المسيحيين ، دخل على الامير كاتب اسراره وقال له: « لقد اكتنفت المسيحيين المخاطر وامسى الموت منهم على قاب قوسين ، فهل فكّر سيدي في المرسلين والراهبات ؟ انك ان لم تسرع لانقاذهم فانهم لا محالة هالكون.» فقام الامير لساعته ونادى بضع عشرات من رجاله ، وامرهم ان يجيئوا الى داره بالعازريّين والراهبات واليتامى وكل من في منازلهم · فمضوا في ذلك وكانت الساعة الثانية بعد الظهر · وهابهم الثوار لبسالتهم ، فلم يجرأوا على مسّ مخفوريهم باذى ؛ الّا رجلٌ من المسلمين تصدّى لراهبة في الطريق ، فهوى عليه احد رجال الامير بضربة سيفٍ فلقت رأسه فخرَّ صريعاً وصار عبرة ، ووقع خوف الجزائريين على الجميع.

(للبحث صلة)

اسقف شهيد

المطران بطرس شبلي

١٨٧١-١٩١٧

بقلم الاب لامنس اليسوعي

في ٧ شباط سنة ١٩٠٨ ، خلف الكاهن الشاب بطرس شبلي المطران يوسف الدبس على ابرشية بيروت المارونية. وكانت اسقفية الدبس طويلة مخصبة بفضائله السامية ، وعلمه الغزير ، واعماله المتعددة التي اكتسبت له اعتبار الجميع ؛ وكفى بتأسيس مدرسة الحكمة الزاهرة ، وكاتدرائية مار جرجس الفخمة لتخليد ذكراه.

اما الكاهن الذي خلف هذا الحبر الجليل المكلل بالسنين والامجاد فلم يكن يتجاوز السابعة والثلاثين. وكان متحدرًا من احدى تلك العيال اللبنانية التي تحفظ تقاليد الاستقامة والدين خلفاً عن سلف. وُلد في ١٩ كانون الاول سنة ١٨٧١ ، في قرية صغيرة جميلة اسمها دفون من بلاد الشوف . وتلقى مبادئ القراءة والكتابة في مدرسة الضيعة الوضيعة ، حتى اذا ترعرع قدم بيروت ، فدخل مدرسة الحكمة تحت رعاية سلفه الصالح . على انه لم يطل اقامته فيها . لان الرؤساء بعد ان تحققوا مواهب الطالب الصغير ، ارسلوه الى باريس سنة ١٨٨٥ . فدرس هناك اللغتين اليونانية واللاتينية. ثم دخل مدرسة سان سولپيس الاكليريكية الشهيرة ، فاتقن فيها الفلسفة واللاهوت.

وبعد ذلك انتقل الى جامعة باريس الكاثوليكية ليدرس التاريخ واللغات الشرقية كالعبرية ، والسريانية ، والفينيقية وغيرها . واذ رأى نفسه قد اغتنى بكنوز الثقافة الغربية ، فكّر بالعودة الى وطنه ، على الرغم مما كان يُعرض عليه ، في باريس ، من المراكز المهمة . من ذلك ان الكاهن العالم المشهور

ڤيگورو (Vigouroux) اقترح عليه ان يبقى معه في فرنسة ليساعده في كتابة «معجم التوراة» . فرأى الكاهن الشابّ ان وطنه بحاجة اليه ، فشكر العالم المذكور ، ورجع الى بلاده حيث رسمه سيادة المطران الدبس كاهناً في ١٤ تموز سنة ١٨٩٧ .

فبدأ اعماله في لبنان ، بالقاء الدروس في مدرسة الحكمة اولاً ، ثم في مدرسة قرنة شهوان . ولم تلبث ان سارت شهرته بعيداً حاملةً ما اتصف به من العلم والفضائل حتى الى المهاجرين ، وما اشدّ ما كانت حاجتهم الى امثاله من الكهنة ، فكتب اليه امين الريحاني ، رسالة من نيويورك مؤرخة في ٢٦ ايلول سنة ١٨٩٩ . وهذا قسم منها ينمّ عن شخص مختلف عن مؤلف «النكبات» :

«ايها الاب العزيز المحترم . . . وقد لقبتك ايها الاب المحترم «بعزيز» ولا ارى ما يغني عن ذلك سوى العوائد لان لفظة عزيز لم يدرج استعمالها بين العوامّ والاكليروس . اما انا فقد تركت هذه العادة وخرقت حدود الدارج وما دفعني الى هذا العمل الا فرط المحبة لشخصكم اللطيف . ولا اتمكن من اظهار احترامي وَاخفاء محبتي التي يضطرم بها الفؤاد لان المدة التي قضيتها مع حضرتكم والاوقات التي صرفتها بمجالستكم حفرت في فؤادي اثراً عميقاً لا تمحيه الايام ما زلت حياً . وكل مرة اردد ذكركم في فكري وافتكر في حديثكم الجميل وتواضعكم الزائد وحريتكم المتدلة يتحرَّك في فؤادي ذلك التأثير الممزوج بالاحترام البنوي الواجب عليَّ تقديمه والمحبة الاخوية التي اشعر بها رغماً عن تفاوت المقام

» . . . كم من المرّات اجلس في غرفتي متحسراً متاهفاً ممزياً نفسي بالآمال القوية فاقول آه لو كان الخوري بطرس راعينا في نيويرك . فكم نحن بحاجة اليهِ هنا . والطائفة المارونية في نيويرك يلزمها راعي نبيل وعالم جليل يستطيع الارشاد والوعظ وتكون كل اعماله صغيرة ام كبيرة مثلاً يقتبس منهُ الغير ويقتدي بهِ . نحن بنيويرك بحاجة كلية لاب غيور عالم فاضل قوي العارضة كبير العقل واسع القلب ، فانت انت تجمع بشخصك الكريم كل هذه الاشياء . ونحن بحاجة كلية لكم هنا فهل يمكن اتمام ما يخالج ضمير صديقكم المخلص . افتكروا بذلك وتكرَّموا عليَّ بالجواب » .

وفي ذاك العهد ، دعي الى البطريركية في بكركي ، لينظم سجلّاتها ويرتبها ويضع لها الفهارس . وكانت العناية الالهية تقرّبه من الوظيفة التي كان عليه ان يُظهر فيها كلّ مقدرته ، فكان غبطة البطريرك يكلفه القيام بارساليات مهمّة . فزار سنة ١٩٠٠ قرى بلاد البترون ليطلع على حالة الاكليروس فيها . ثم تفقّد الاديار في لبنان ، وفي جزيرة قبرس ، ليدرس احوالها ، ويثبت موازنة الجزيرة ،

واقفاً على احتياجاتهم جميعها. وفي غضون ذلك ، ألف في بكركي ، كتابه عن البطريرك الدويهي وهو أثر جليل ينم عن اطلاع واسع.

***

كان هذا الكاهن المتواضع لا يفكر بسوى متابعة اعماله الروحية بسكون ، اذ وقع عليه اختيار البطريرك والاساقفة ليكون خلفاً للمطران يوسف الدبس. فاحتفل بسيامته في بكركي ، ودخل بيروت ، مركز ابرشيته ، في ٢٢ شباط سنة ١٩٠٨ محاطاً بهتاف ابنائه جميعهم. اما في ما يخص صفات الاسقف الشاب فاننا نترك الكلام لشاهد عيان عاشره مدة فعرفه حق المعرفة ، وهو الخوري اغناطيوس مبارك الذي خلفه ، فيما بعد ، على كرسي الابرشية نفسها. قال بعد ان اثنى على تقوى الاسقف وطهارته:

«تجرده كان عجيباً فيما يختص بمدخوله الشخصي. وبقدر ما كان حريصاً حتى ان حرصه كان يقارب البخل في ما يتعلق بمال الابرشية بقدر ما كان كريماً بماله الشخصي. واني اذكر عندما مشى امام جنازة المرحوم فيليب ثابت في بيروت ورافق الجثة الى عين سعاده دفع له اهل الفقيد مائة ليرة لقاء خدمته الشخصية فبالحال دعاني اذ اني كنت مستلماً حسابات الكرسي وناولني من المائة ليرة خمسين لقاء نفقات الكرسي في المأتم. وبينما كنت عائداً في تلك الساعة الى غرفتي مع الدراهم التقيت بالدار بوفدٍ من اهالي قرية مجدليا (الشوف) اتوا ليطلبوا من سيادته مساعدة لبناء كنيستهم فكلفوني بعرض المسألة لسيادته فدخلت للحال وعرضت عليه التماسهم وكانت الخمسون ليرة الباقية لم تزل على طاولته. فاخذها وقال هذا المبلغ جاء بوقته اعطهم هذه الكمية الآن والله يدبر فيما بعد. وهكذا لم يبق لذاته بارة واحدة مما اعطي له شخصياً.

«ومما يدل على هذا التجرد عن المال الشخصي هو قلة ما تركه بعد وفاته لحسابه الخاص فانه بقي اسقفاً تسع سنين فلم يترك سوى سبعة آلاف غرش عملة قديمة شرك وكل الباقي من مداخيله كان يذهب اما لاعمال خيرية او لمساعدات خصوصية كلها مقيدة في دفاتره الخاصة.»

اما شجاعته في قول الحق ، واستقامة ضميره فقد اورد عليها الشاهد نفسه

مثلاً تزيد قيمته اذا علمنا انه صدر في زمن كان الجميع فيه يخافون على حياتهم قال:

«كان المطران بطرس شبلي رحمه الله ذا ضمير معروف فمتى عرف الحق لا يعود يحيد عنه . عندما ابتدأت الحرب ودخل بعض ذوي المآرب بدعوى زواج في ديوانه واستعانوا برضا باشا قومندان الجبل ومالأهم اعضاء الديوان ذاته بسبب مداخلة رضا باشا في المسألة وخوفهم من الديوان العرفي ، بقي سيادته مصراً على الحكم بعكس ما يريده رضا باشا لان ضميره لم يكن يطاوعه . فدعاه رضا باشا اليه واخذ يلح عليه بالحكم ويسمعه بعض التهديدات ان خالف . فكان جوابه . طالما المسألة هكذا فلماذا ترفعون الدعوى الى ديواني انتم اقدر مني بالسيف فاحكموا انتم ونفذوا بسيفكم اما انا فلا احكم الا بموجب ضميري . فاسكت رضا باشا بهذا الكلام ولم يحكم الا بما نصه له الضمير والوجدان .»

وقد كان بودنا ان نتوقف طويلاً فندرس عاطفة الوطنية في صدر ذاك الاسقف الجريء . وقد برهن عنها مرات عديدة في موقفه تجاه رجال تركية الفتاة ، وفي دفاعه عن استقلال لبنان ، اذ كان الاتحاديون قد اتفقوا على خرق امتيازاته ووجدوا من اللبنانيين انفسهم بعض المساعدين على ذلك . ولكنهم اصطدموا بمقاومة المطران شبلي وتدابيره السياسية الحكيمة . وقد ساعده في ذاك العراك لحفظ امتيازات لبنان ممثلو فرنسة في سورية بعد ان قدروا كلهم صفات الاسقف الجليل . فظل في الميدان يناضل عن وطنه العزيز بلسانه وقلمه ، وبنفوذه الشخصي لدى الحكومة الفرنسوية . قد كان بودنا ان نتبسط في كل ذلك لولا ضيق المقام ، فاكتفينا بالاشارة محيلين من يرغب في التفاصيل الى ترجمة حياته المتقنة التي نشرها ابن اخيه المحامي ميشال شبلي[1] والتي استندنا اليها في كتابة هذه الاسطر .

---

١) المطران بطرس شبلي ، بقلم المحامي ميشال شبلي – المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٣٩ ، ٢٦٣ صفحة .

في شهر ايار من سنة ١٩١٤ ، ركب المطران البحر الى فرنسة ، ليحضر المؤتمر القرباني المقام في مدينة لورد . وبينا كان في باريس اغتنم الفرصة ، فقابل وزراء الدولة الفرنسوية ورغب اليهم في مواصلة الاهتمام بامور لبنانه العزيز . وفي تلك المناسبة وصفته جريدة « الطان » وصفاً دقيقاً فقالت :

« . . . ان المطران بطرس شبلي هو في ابّان العمر قويّ البنية رقيق المعشر ذو لحية سوداء تكتنف وجهه المتدفق لطفاً ورصانة . وهو يتكلّم الافرنسية بفصاحة ، وبلهجة ساكنة ، وبدقة تعبير نادرة ، فيكلّمك بعبارات رشيقة طليّة بليغة . وهذا الاتقان بتكلّم اللغة الافرنسية يدلّ على تملكه ناصية تلك اللغة وادمانه على التحدّث بها ، حتى انك لا تخال انه اجنبي يتكلّم لغتنا ، فلا يضطرّ مثلاً للتردّد قبل التلفظ بحديثه كأنه يفكر بلغة اخرى ثم يترجم افكاره وشعوره . بل انه يتكلّم بدون اجهاد . وما هذا سوى دليل ظاهر على ذكائه وتربيته العلمية الممتازة . »

وفي فرنسة فاجأته زوبعة الحرب العالمية . فكان اول ما فكّر به ان يعود الى ابنائه البيروتيين . وكان عارفاً بحقد الاتراك عليه لما كان اظهر من اجتهاد في سبيل لبنان ، ومن تعلّق بفرنسة ؛ فنصح له كثيرون من اصدقائه ان يبقى في اوربة ولكنه كان متأكداً ان من واجبات الراعي ان يكون بين خرافه في ساعة الخطر . فرجع الى وطنه بعد ان مرّ برومية فحضر فيها دفن البابا بيوس العاشر ، وحيّى خلفه بناديكتوس الخامس عشر مقدّماً له احترام البطريرك الماروني وجمهور طائفته .

وفي ٢٤ ايلول ١٩١٤ ، وصل الى بيروت . ولم يلبث ان بدأ حياة العذاب والاستشهاد التي وصفها بالتفصيل الوافي في « مفكّرته » . وقد نُشر منها في ترجمته اقسام طويلة شيّقة . وما كان اسرع جمال باشا ، سفّاح سورية ، في طلب المطران ومشاحنته في مسألة الفرمان السلطاني الذي كان الباب العالي يريد منحه للبطريرك الماروني واساقفته ، على الرغم منهم . فبذل المطران كل ما في استطاعته في سبيل حفظ استقلال الاكليروس الماروني . ولكن لم يكن مناص من الخضوع امام القوة . على ان هذا التسليم لم يخفّف من غلواء الاتراك ، فاجبروا

المطران على الاستقالة ، ثم حكموا عليه بان يُقيم بعيداً عن ابرشيته . فقبل كل هذه المصائب بصبر مسيحي وخضوع تام للمشيئة الالهية . وان من يطالع مفكرته ، في هذا الشأن ، يتحقق ان ذاك الصبر وذاك الخضوع لم يفارقاه قط .

وفي ٧ نيسان ١٩١٦ سافر المطران شبلي منفياً الى اطنه . فاقام فيها نحو السنة عرضةً لجميع اصناف العذابات في جسده وقد أثّرت فيه المتاعب ، واتحدت عليه الامراض ، وخصوصاً في نفسه الحسّاسة وقد تراكمت عليه الاخبار المشؤومة عن لبنان من جوع ، واوبئة ، واعدام ، ونفي . على انه تعزّى قليلاً بوصول الخوري اغناطيوس مبارك الذي نال الاذن بمشاطرة مطرانـــه آلام النفي . فلم يفارقه حتى قضى الاسقف الشهيد ما قُدّر له من الحياة في هذه الفانية ، فلبى دعوة ربّه في ١٩ آذار سنة ١٩١٧ .

لم تقارب سنة ١٩١٨ الانتهاء حتى تقلّص ظلّ الاتراك فاحتلّ الفرنسويون قيليقية واقاموا فيها مدة ، وكان سيادة المطران اغناطيوس مبارك لا يفتأ يذكر سالفه الشهيد ويسعى بنقل رفاته الى بيروت ، لتجمع الى رفــات اساقفتها ، فيستريح مع سلفائه الصالحين . فنال ما تمنّاه ، واهتم الفرنسويون باقامة هذا الواجب . فظُلّل النعش بالعلم الفرنسوي ، ونُقل الى مرسين ، حيث انزل الى دارعة افرنسية ، فحفّته فيها ثلة من الجند بالتحية العسكرية ، وسارت به الى بيروت . فوصلتها في ٢٧ تشرين الاول سنة ١٩٢١ . وكان ذاك اليوم اشبه بيوم مهرجان اذ اشترك الشعب على اختلاف طبقاته مع الحكومة الفرنساوية والحكومة اللبنانية ، بتأدية واجب الاحترام والاجلال للشهيد الكبير . واذ عُرض النعش في كاتدرائية مار جرجس ، وقد ظلّلته الرايتان اللبنانية والفرنساوية ، وقف تجاهه سيادة المطران مبارك ، وأبّن ذاك الـــذي كان بفضائله وعلمه فخراً لشعبه ، ومحامياً عن وطنه ، وشهيداً في سبيل حريته .

قبر راحيل

بقلم القس عبد المسيح زهر

لقد جاء في الكتاب الكريم ان: «ماتت راحيل ودُفنت في طريق افراتة، وهي بيت لحم. ونصب يعقوب نصباً على قبرها، وهو نصب قبر راحيل الى اليوم.» (تك ٣٥: ١٩–٢٠) وورد في سفر الملوك الاول ايضاً ان صموئيل قال لشاول بن قيس، بعد مسحه اياه قائداً على ميراث الرب: «فاذا فارقتني اليوم يستقبلك رجلان عند قبر راحيل، في تخم بنيامين في صلصح، فيقولان لك قد وُجدت الاتن التي خرجت في طلبها.» (١ ملوك ١٠: ٢) ثم ان ارمياء النبي قال: «هكذا قال الرب: صوت سُمع بالرامة، ندب وبكاء مرّ؛ راحيل تبكي على بنيها وقد ابت ان تتعزّى عن بنيها، لانهم ليسوا في الوجود.» (ار ٣١: ١٥)

على ان الاعتقاد بين اليهود والمسيحيين ما زال شائعاً على توالي الاجيال ان راحيل مدفونة على مقربة من بيت لحم، في الموضع المعروف «بقبر راحيل» على سبعة كيلومترات الى جنوبي اورشليم، وكيلومترين الى شمالي بيت لحم، من عن يمين الطريق الذاهب الى الخليل، قبل مفرق طريق بيت لحم ببضع مئات من الامتار. غير ان بعض ارباب النقد ذهبوا في السنين الاخيرة، اي منذ نحو عشرة اعوام فقط، استناداً الى قول صموئيل، الى ان مدفن راحيل في الرامة المعروفة اليوم «بالرام» وهي قرية صغيرة حقيرة واقعة على ثمانية كيلومترات الى شمالي اورشليم، يسكنها اليوم نحو مئة نفس من المسلمين. وفي جوارها

قبور منقورة في الصخر تنطق بقدمها[1] .

فهلمَّ الان ايها القارئ نتتبع آراء العلماء الذين عُنوا بدرس هذه المسئلة ، ونستخلص زبدة اقوالهم ، ونورد براهين المتعصبين لبيت لحم والرامة ، وبعد ذلك نمحّص بيّنات الفريقين قدر الامكان ، ونرى حجة أيّها تكون العليا .

براهين المتعصبين لبيت لحم

ان الكتاب يصرّح بان : « راحيل ماتت ودُفنت في طريق افراتة ، التي هي بيت لحم .» (تك ٣٥ : ١٩) وان يعقوب لما دنا اجله قال لابنه يوسف وقد اتى يعوده في مرض موته :« واما انا ففي مجيئي من فدان ماتت عني راحيل في ارض كنعان ، في الطريق ، على نحو ميل من افراتة ... وهي بيت لحم . » (تك ٤٨ : ٧) ومما لا ريب فيه ان بيت لحم كانت في القديم تسمّى افراتة ؛ كما ورد في سفر راعوت :« وهم افراتيون من بيت لحم يهوذا .» (راعوت ١ : ٢) وجاء ايضاً في سفر الملوك الاول : « وكان داود ابن ذلك الرجل الافراتي من بيت لحم يهوذا الذي اسمه يسّى .» (١ ملوك ١٧ : ١٢) وبهذا الاسم عينه سمّاها ميخا النبي ، حين انبأ بولادة المخلص فيها : « وانت يا بيت لحم افراتة انك صغيرة في الوف يهوذا . » (ميخا ٥ : ٢) فاذن افراتة هي بيت لحم بعينها . ولكن هل هي افراتة ، التي على مقربة منها دفنت راحيل ، ام يوسف وبنيامين ام غيرها ؟ هذا ما نريد ان نبيّنه بالايجاز في هذا المقال .

اعلم ايها القارئ ان التقليد اليهودي والمسيحي ما زالا متفقين على هذا الامر ، بل ان التقليد اليهودي حسب راي الاب لاگرانج لا يعرف افراتة اخرى غير افراتة بيت لحم[2] . ولكن القائلين بالراي المعارض يدّعون ان هذه العبارة « التي هي بيت لحم » الواردة في سفر التكوين حشو اضافه النسّاخ فيما بعد . بيد ان القديس متى في كلامه عن المذبحة التي سببها في بيت لحم طمع هيرودس وحرصه على عرش الملك قال :« حينئذٍ تمّ المقول بارميا النبي القائل صوت سمع بالرامة ، بكاء وعويل كثير . راحيل تبكي على بنيها وقد ابت ان تتعزّى

١) راجع معجم التوراة لفيكورو : المجلد الخامس صفحة ٩٦١

٢) طالع كتابه في انجيل متى ٢ : ١٧ المطبوع في باريس سنة ١٩٢٣ ، صفحة ٣٥

لانهم ليسوا في الوجود.» (مت ٢ : ١٧—١٨) فلماذا يا ترى استشهد الانجيلي بآية ارمياء ؟ لا ريب ان استشهاده بها لا يخلو من علاقة بين قتل الاطفال الشهداء وبكاء راحيل.

على ان شرَّاح الكتاب من الكاثوليك كانوا على اتفـاق على موضع مدفن راحيل ، المعروف الى يومنا بهذا الاسم . ولكن لمَّا شاع ، منذ عشر سنين ، راي يعارض الرأي الاول تمسك به بعضهم وعدلوا عن الاول. ومن جملة الاقوال التي تثبت زعم المتعصبين لبيت لحم مـا رواه القديس ايرونيموس في رسائله الى استكيوم البتول: «ثم ان بولا قصدت الى بيت لحم ، ووقفت ، الى يمين الطريق ، عند قبر راحيل[1].» وقوله الآخر : « ان كلمة افراتة وبيت لحم تطلق على مدينة واحدة ، اذ انها تترجم بالخصبة وبيت الخبز[2].» وشرحه لآية متى: «ان بنيـامين ولدته راحيل ، وليس في هذا السبط قرية تسمّى بيت لحم وهنا لا بد من السؤال : كيف تبكي راحيل اولاد يهوذا ، اعني اولاد بيت لحم كما تبكي اولادها ؟ اننا نجيب باختصار : لانها مدفونة قرب بيت لحم في افراتة.»[3] او لانّ سبط يهوذا وسبط بنيامين بقيا متحدَين مؤلّفَين مملكة واحدة ، بينما ان الاسباط الاخرى انفصلت وانشأت لها مملكة مستقلة . وزد على هذا ان الملك هيرودس لم يأمر بقتل اطفال بيت لحم وحدها ، بل حكّم هذا الجبّار القاسي القلب سيفه في اطفال التخوم : « فقتل كل صبيان بيت لحم وجميع تخومها.» (مت ٢ : ١٦) فلا ريب اذن ان سيف الظالم اهلك جماعة من اولاد البنيامينيين ايضاً ؛ وذلك لما كان بينهم وبين اخوانهم نسل يهوذا من تعاقب الدار وقرب الجوار.

ثم ان حاجّ بوردو قال : « لمَّا ذهبنا من اورشليم الى بيت لحم (وجدنا) على مسافة اربعة اميال من جانب الطريق الايمن البنـاء حيث دُفنت راحيل امرأة يعقوب ؛ وعلى مسافة ميلين من الجانب الايسر واقعـة بيت لحم.»[4]

١) P. L. Migne, T. XXII, 884. ٢) P. L. Migne, T. XXIII, 893.

٣) P. L. T. XXVI, 27-28

٤) *Itinera Hierosolymitana saeculi IV-VIII*. P. Geyer, p 25

ويوافقه الراهب ادمنانُس في كتابته التي وجّهها الى الاسقف اركولف . والى هذا ذهب ايضاً القديس بيدا في الفصل السابع من كتابه المعنون « الاماكن المقدسة » . وفي القرن الثاني عشر كتب الادريسي : « واما بيت لحم وهو الموضع الذي وُلد فيه السيد المسيح ، فبينه وبين المقدس ستة اميال . وفي وسط الطريق قبر راحيل ام يوسف وام ابن يامين ولدي يعقوب ، وهو قبر عليه اثنا عشر حجرًا ، وفوقه قبة معقودة بالصخر . »

اما القبة القائمة فوق القبر فقد ابتناها ، سنة ١٨٧٩ ، موسى مونتفيوره (Sir M. Montefiore) . وما عدا ما ذكرنا من الشواهد فان التقليد اليهودي والمسيحي والاسلامي ، كل هذه التقاليد لا تعرف غير هذا الموضع قبرًا لراحيل واصحاب هذه التقاليد على اختلاف مذاهبهم ونحلهم يكرمون في هذا المكان عينه قبر زوجة يعقوب .[1]

براهين المتعصبين للرامة

ان البرهان الذي يستند اليه اصحاب هذا الرأي هو ما ورد في سفر الملوك الاول من قول صموئيل لشاول : « ويستقبلك رجلان عند قبر راحيل في تخم بنيامين . . . » (١ ملوك ١٠ : ٢) ويدعون برهانهم بقول ارمياء النبي الذي جعله في فم راحيل لتبكي به بني افرائيم الذين سُبوا من اوطانهم : « صوت سُمع بالرامة ، ندب وبكاء مر . راحيل تبكي على بنيها وقد ابت ان تتعزى عن بنيها لانهم ليسوا في الوجود . » (ارمياء ٣١ : ١٥) على ان النبي ما اكتفى بما قال ، بل قفّى على قوله مخاطباً راحيل عينها : « كفّي صوتك عن البكاء ، وعينيك عن الدموع ، فان لعملك اجرًا يقول الربّ ، وانهم سيرجعون من ارض العدو . » (ارمياء ٣١ : ١٦) ثم ان الكتاب يذكر ان يعقوب بعد دفنه راحيل زوجته واقامته النصب على قبرها : « رحل وضرب خباءه وراء برج القطيع . » (تك ٣٥ : ٢١) فاذا قابلنا بهذه الآية ما جاء في نبوءة ميخا علمنا ان برج القطيع كان على مقربة من اورشليم . قال النبي : « وانت يا برج القطيع ، يا عوفل بنت صهيون ، اليك يأتي ويعود الحكم الاول ملك بنت اورشليم . »

١) راجع معجم التوراة لفيكورو ، المجلد الخامس ، صفحة ٩١٦–٩٢٧

(ميخا ٤ : ٨) فمن هذا الكلام يستنتج ان يعقوب خلّف وراءه قبر زوجته وهو آتٍ من الشمال ، ومتجه الى الجنوب . فاذن راحيل ماتت قبل الوصول الى برج القطيع ، الذي كان في جوار اورشليم . ولهذا السبب استنتج الاب دورم (Dhorme) ان قبر راحيل شمالي اورشليم ، في ارض بنيامين ، وان التقليد الذي يجعله في ارض يهوذا على مقربة من بيت لحم ليس على شيء من الصحة. وقد شايعه على رأيه الاب لاگرانج والاب دوران (Durand) والاب كندامان (Condamin) و (H. A. Poels) والاب اوباخ البندكتي

تمحيص براهين اصحاب الراي الاول

رأينا في اثناء كلامنا ان اصحاب الراي الاول يدعمون برهانهم بما ورد في الكتاب (تك ٣٥ : ١٩ — ٢٠ و ٤٨ : ٧) . غير ان خصومهم يردّون عليهم حجتهم بقولهم ان العبارة المذكورة في سفر التكوين بعد كلمة افراتة « التي هي بيت لحم » حشو وقد زيدت فيما بعد . ولكن من يا ترى يستطيع اقامة الدليل على انها حشو ، ولاسيما انها موجودة في كتب السامريين ، والنسخة السبعينية ، وترجوم اونكلس ، والنسخة السريانية البسيطة ܦܫܝܛܬܐ ، والنسخة العامية (Vulgata) ، فكيف دخلت هذه الزيادة ، على غير تواطؤ ، في هذه النسخ ؟ جواب اصحاب الرأي المناقض انها دخلت قبل الترجمة السبعينية . ولكن كيف دخلت في هذه النسخ ولم يدلّ عليها دليل في الاصل ، بل ماذا اراد الناسخ من زيادتها عمدًا مع علمه بما ورد في سفر الملوك وسفر ارمياء ؟ ولماذا زادها في سفر التكوين فقط ، وكيف قبل اليهود في ذلك الزمان هذه الزيادة ، مع شدّة محافظتهم على سلامة الكتاب ولم يسقطوها فيما بعد ؟ أما ان اليهود والمسيحيين يعتقدون سلامة الكتاب من التحريف والتصحيف ؟

امّا قول متى الرسول انه بعد ذبح اولاد بيت لحم ، تمّت نبوّة ارمياء ، فدليل على وجود علاقة بين تلك المذبحة وبكاء راحيل . فهذه العلاقة على ما يظهر هي شيئان : اما وجود قبر راحيل على مقربة من بيت لحم ، واما كون الاطفال المذبوحين اولادها . الّا ان اصحاب الرأي المناقض لا يرون علاقة بين كلام الانجيلي ومذبحة بيت لحم ، ويعرضون عن تفسير الآية وشرحها . ثم

ان الاب كندامان ذهب الى ان السبب الذي حمل القديس متى على تطبيق هذه الآية ما هو الّا شيوع التقليد المبني على آية سفر التكوين (١٩:٣٥) واعتقاد عامّة اليهود في ذلك الزمان وجود قبر راحيل على مقربة من بيت لحم. فمن هذا القول ينتج ان ذلك التقليد كان غير صحيح. وفي هذا بخس لقدر الكتاب الشريف.

غير ان الاب لاگرانج، تجنباً لهذه النتيجة، اكتفى بتعليل ما ورد في متى بنسبته الى «تشابه الحزن» وقفى على قوله بان لا حاجة الى القول، مع كندامان، ان الداعي لذكر الآية التقليد الذي كان يجعل قبر راحيل قرب بيت لحم[1]. فهل «تشابه الحزن» يا ترى سبب كافٍ لحمل الرسول على ذكر الآية: «حينئذٍ تمّ المقول بارميا النبي ...» اما كان في وسعه ان يقول: وحينئذٍ تمت النبوات التي فيها ذكر البكاء والحزن؟ فاذن قول الخصوم يدلّ على ان كلام الانجيلي مبني على تقليد موهوم لا اساس له، ولا علاقة بينه وبين قتل الاطفال الشهداء.

ثم انه فضلاً عن ذلك ليس حول الرامة اي «الرام» من اثر دالّ على قبر راحيل، ولم يكتشف الى يومنا ما يزيل الغموض عن هذه المسئلة؛ بل ليس للخصوم سند سوى الآية الواردة في سفر الملوك، وتعيين موقع «برج القطيع». فطالما اعتقد شراح الكتاب دائماً وجود قبر راحيل عند بيت لحم، فاية حاجة الى ترك التقليد الشائع، والتمسك براي لا يعضده برهان متين، وتؤيده بيّنات ناهضة؟ على اننا اذا رجعنا الى تقاليد اليهود، رأينا انهم لم يعرفوا افراتة سوى افراتة بيت لحم كما قال الاب لاگرانج نفسه، وانهم اعتقدوا دائماً قبر راحيل على مقربة من بيت لحم، في الموضع المعروف بهذا الاسم الى يومنا الحاضر. بقي ان اصحاب الراي الثاني، الذين عدلوا عن هذا الراي الى الراي الجديد، مضطّرون لتصحيح دعواهم ان يبينوا غلط اليهود في هذا الامر، ويثبتوا زعمهم بان «التي هي بيت لحم» حشو، بل هم مضطرون الى اثبات رأيهم بالادلة الواضحة قبل زمان الترجمة السبعينية. على انهم يدعون ان التقليد

١) طالع كتابه «في متى» ٢: ١٧ المطبوع في باريس سنة ١٩٢٣، صفحة ٣٥

على عهد ارميا. كان شائعاً بان الرامة مدفن راحيل ؛ ولكن كيف انقرض وتلاشي وامحى هذا التقليد ، ومتى حلّ محله التقليد غير الصحيح ؟ يجيبون ان السبي هو الذي امات الاول واحيا الثاني. وهنا يقوم اعتراض آخر على هذا القول وهو: لو كان تقليد الرامة صحيحاً لما نسيه اليهود في مدة جيلين ، لان في الرامة عينها اجتمع اليهود ، ومن الرامة سيقوا الى الجلاء ، كما جاء في سفر ارمياء : «الكلمة التي كانت الى ارمياء من لدن الرب بعد ان اطلقه نبوزرادان رئيس الشرطة من الرامة ، اذ كان اخذه مكبلًا بالقيود ، بين جميع جلاء اورشليم ويهوذا الذين أُجلوا الى بابل» (ارمياء ٤٠ : ١) فلو كان لبكاء راحيل على اولادها الذين أُجلوا علاقة مع قبرها ، لما نسي اليهود قبر امهم بعد رجوعهم من بابل. فاذا احتجوا بان الرامة اصبحت بعد الجلاء مجهولة ، اجبنا: ان قرب هذه البلدة من اورشليم ، ووقوعها على مسافة ثمانية كيلومترات من المدينة المقدسة ، وقيامها على طريق بيت ايل وشيلو والسامرة لما يقف في وجه نسيانها . فاذن بكاء راحيل على بنيها لا يدلّ على ان قبرها في الرامة.

تمحيص براهين اصحاب الراي الثاني

برهان المتمسكين بهذا الراي ما ورد في سفر الملوك الاول (١٠ : ٢) من ان قبر راحيل في تخم بنيامين. فاذا امعن القاري نظره في قول صموئيل لشاول وتدبّره مليّاً ، رأى وفهم ان النبي لا يقول ان قبر راحيل في ارض بنيامين بل في تخم بنيامين. فلو كان قبرها في الرامة لما جاز لصموئيل ان يقول انه في تخم بنيامين ، بل كان يجب عليه ان يقول انه في ارض بنيامين ؛ لان حدود بنيامين كانت تمتدّ الى جنوبي اورشليم ، كما جاء في سفر يشوع: «ويصعد التخم الى وادي ابن هنّوم[1] ، الى جانب يبوس جنوباً وهي اورشليم ، ويصعد الى راس الجبل الذي هو تجاه وادي ابن هنّوم غرباً في طرف وادي الجبابرة شمالًا.»

١) وادي ابن هنّوم كان معظمه حدًّا بين سبط يهوذا وبنيامين. وهو يبتدئ عند بركة ماملا ، ويهبط الى بركة السلطان ، وينحدر جنوباً في شرق ، ويحدق بجبل صهيون حتى يتصل بوادي قدرون. ولا يعرف من هو ابن هنوم الذي تسمّى باسمه هذا الوادي . لعله كنعاني اذ ان اسم الوادي ورد في سفر يشوع . وكان اليهود يقرّبون فيه القرابين البشرية اكراماً لمولك. (راجع ٢ اخبار الايام ٢٨ : ٣ وارمياء ٢ : ٢٣ و٧ : ٣١ و٣٢ : ٣٥ و١٩ : ٢ و٦)

(يشوع ١٥ : ٨) هذا حدّ يهوذا من الشمال. امّا حدّ بنيامين الجنوبي فهو: «ثم يهبط الى طرف الجبل الذي تجاه وادي ابن هنوم الذي في وادي الجبابرة شمالًا وينحدر في وادي هنوم الى جانب يبوس جنوباً ، ثم يهبط الى عين روجل.»[١] (يشوع ١٨ : ١٦) فاذن اورشليم كانت في سبط بنيامين وبيت لحم في يهوذا ، ومدفن راحيل بين المدينتين ؛ وكذلك جاز لصموئيل ان يقول انه في تخم بنيامين فهذا القول يعضد الرأي الاول.

ثم ان كلام ارمياء (٣١ : ١٥) لا يجدي اصحاب هذا الراي نفعاً ، لانه لا يصرّح بوجود قبر راحيل في الرامة بل يقول : « صوتٌ سُمع بالرامة ، ندب وبكاء مرّ ؛ راحيل تبكي على بنيها.» فاذا تدبّرنا هذا القول ظهر لنا ان قبر راحيل ليس في بيت لحم ، ولا في الرامة ، بل في موضع بين المكانين . اذ النبي يقول : « صوتٌ سمع في الرامة » فكأن صوت ذلك البكاء والندب الصاعدين من قبر راحيل قد بلغ الرامة ، موضع اجتماع اليهود قبل جلائهم . فهذا التعبير ضرب بديع من تصوّر الخيال ، ولاسيما ان مدفن راحيل ، وموضع ذلك الاجتماع ، متلاصقان لا يفصل بينهما سوى خمسة عشر كيلومترًا . اما ان الخيال يقرب البعيد ويمد القريب ؟

ولكن ما السبب الذي حدا بارمياء الى الجمع بين الرامة وبكاء راحيل؟ السبب على الارجح اجتماع اليهود في ذلك المكان من حيث سيقوا الى الجلاء ، ففارقوا اوطانهم وبرحوا بلادهم ؛ فكأنَّ هذا العمل اثار عواطف راحيل واستنزف دمع عينيها رأفة بمصاب بنيها . فقول النبي لا يدلّ على انها مدفونة هنالك. على انه قد كان ايضاً بين المجلوّين اولاد بنيامين « ابناء الالم» الذي ولدتهم راحيل بالالم وسبيوا هلاكها. فلما رأت ان هولاء الاولاد ، اولاد الالم ، مسوقون الى الجلاء كقطعان الغنم ، علا نحيبها واشتد بكاوها ، فرنّ صداه في الرامة. فاذن سبب بكاء راحيل سبي اولادها لا وجود قبرها ، اذ لا علاقة

١) كان القدماء يظنون عين روجل بير ايوب ، ولكن المتأخرين يذهبون الى انها عين ام الدرج الواقعة في اسفل جبل صهيون من الشرق ، ويسمي الافرنج هذه العين عين العذراء . (راجع معجم التوراة لفيكورو المجلد الخامس ، صفحة ١١٠٨)

بين البكاء والقبر.

اما ما ورد في ميخا من ذكر برج القطيع فنقول : ان برج القطيع ورد لاول مرة في سفر التكوين (٣٥ : ٢١) ويُراد به على الرأي الارجح برج صغير كان في جوار بيت لحم ، يأوي اليه الرعاة ويراقبون من فوقه قطعانهم في مسارحها . ومن اسمه تعرف غايته . وقد كانت عادة الرعاة في ذلك العصر ان يتخذوا لهم ابراجاً في البرية ، كما يشهد بذلك سفر اخبار الايام الثاني ؛ اذ ان عزيا الملك : «بنى ابراجاً في البرية ، وحفر اباراً كثيرة ، اذ كانت له ماشية كثيرة في الساحل والسهل...» (٢٦ : ١٠) هذا وان القديس ايرونيموس يجعل برج القطيع على مسافة الف خطوة الى مشارق بيت لحم: «بيت لحم حيث يرى قبر يسى وداود ، وعلى مسافة الف خطوة برج عادر الذي تاويله برج القطيع[١].» ومن الصعب تعيين موقعه بالضبط. ثم ان برج القطيع الوارد ذكره في نبوة ميخا يُراد به اورشليم من باب المجاز[٢] ، فضلاً عن ان الآية مستغلقة حتى ان الاب لاگرانج وكندامان لا يستندان اليها ولا يتخذانها برهاناً لدعم قولهما . «فبرج القطيع» هذا اما اسم علم ، واما اسم جنس مجازي . على ان الآية تدل صريحاً ان برج القطيع هو عين اورشليم وهو علم ، ولكن اسم الجنس لا يعيّن موقعه. فهل يحسن والحالة هذه اتخاذ هذه الآية كبرهان على صحة راي المتعصبين للرامة ؟ وما زال في حقل الرعاة شرقي بيت لحم آثار برج قديم ، فلعله مجدل عادر او برج القطيع ، طبقاً لما جاء في كلام القديس ايرونيموس اذ قال : « وعلى مقربة من هناك نزلت (بولا) الى برج عادر اعني برج القطيع حيث رعى يعقوب قطعانه ، واستحق الرعاة الساهرون في الليل ان يسمعوا: المجد لله.»[٣]

فمن هذا كله يستدل على ان البراهين المؤيدة وجود قبر راحيل الى جانب بيت لحم اقوى. والمرء مخيّر في اتباع الراي الذي يرى رجحان براهينه . ولعل اعمال الحفر والاكتشافات تجلو غامض هذا السر وتحسر عنه اللثام ، وكل آتٍ قريب.

١) P. L. *T. XXIII, p. 879*

٢) *Cf.* S. Jerôme, *Quaest. in Gen. loc cit.*

٣) P. L. *T. XXII, 885-886.*

القضاء الماروني وعلاقته بالشرع الروماني

مع ذيل عن الاحوال الشخصية

بقلم المحامي الكنسي الخوري لويس الخازن

عنوان كتاب نفيس الله حضرة الاب العالم يوسف زياده «كتاب اسرار البطريركية المارونية» يقع في مائة وعشر صفحات، بقطع ثمانية . ثمنه نصف ليرة سورية

قلنا على صفحات بعض الجرائد اليومية[1] انه رغم كثرة طبع الكتب والتآليف، فالمفيد منها لم يزل نزرًا؛ ويدور في خلدنا ان تأليف حضرة الاب زياده هو من الكتب المفيدة:

اولًا من الوجهة التاريخية لاسيما وان تاريخ التطورات الشرعية في بلادنا، واصل نشأتها، لم يزل في عقل الله . وحقًا فقد توخى حضرته اثبات وجود شرائع قانونية مدنية لدى الموارنة منذ قديم الايام.

ثانيًا: من الوجهة العلمية العملية، لانه من الثابت ان جزءًا من تلك الشرائع قد انتسخ وتبدّل مع تبدّل الظروف والايام . ولكن قسمًا كبيرًا لم يزل مرعيًا في المحاكم الكنائسية المارونية وخلافها، خصوصًا فيما يتعلّق بالاحوال الشخصية، والاوقاف، وبعض امور لها مساس بالاحوال الدينية، كمحاكمة رجال الاكليروس وما شاكلها . وحتى يوم تاريخه ليس لدينا مؤلف يُرجع اليه في ضبط القوانين والشرائع التي يتحتّم على الدوائر السير بموجبها لدى الاحكام بين المتداعين.

نعم يوجد شيء من ذلك في دستور طائفتنا المعروف بالمجمع اللبناني . ولكن ما هنالك لا يفي بالمرام، لأن مدار المجمع اللبناني على الاسس الدينية، وما يناط بها رأسًا من الامور المدنية . وما خلا ذلك، يجب الرجوع به الى الحقّ العام، والى اوامر الكرسي الرسولي، والى العرف القديم، وهذا تجده مسطّرًا في كتاب الاب زياده.

فانت ترى من هنا الفائدة الكبرى من تأليف يسرد لنا بايضاح ما كانت عليه الاحكام منذ قديم الايام . وغير خافٍ على احد ان طائفتنا في مهدها

1) البرق الغراء، عدد ٣٢١٥

كانت تُساس بموجب الشرائع الرومانية البيزنطية ، وعليه اخذ حضرته يقابل بين شرائعنا والشرائع الرومانية ، موردًا بايجاز نقاط الاتفاق والتنافر بينهما .

وكتابه يقسم الى اربعة ابواب : فيشتمل الاول على توطئة (ص ١—١٠) ألمع فيها المؤلف الى نشأة الشرع بين ظهرانينا ، وكيف انه قد أُخذ في معظمه عن الشرع الروماني ، ما خلا ما كان منه مناطًا بالاحوال الدينية وما يتفرع عنها رأسًا . وذهب الى ان الشرائع المارونية تنطوي كلها في كتاب يدعى « مختصر الشريعة » لواضعه المطران عبدالله قرأالي ، وقد اخذ معظمه عن كتاب « الناموس » ، وهذا مأخوذ بدوره عن كتاب الشرع الروماني المعروف بالكتاب « السوري الروماني » . ثم اخذ في الباب الثاني بيّن ما اشتمل عليه كتاب المختصر ، فيورد جلّ موادّه مادة مادة ، ثم يقابلها بالشرع الروماني والشرع الاسلامي ، ولا يغفل ان يذكر احيانًا ما جاء في صدد ذلك في المجمع اللبناني . وهو يدعوه القسم الاول (ص ١٠—٤٣). ثم يعمد في الباب الثالث (ص ٤٣—٧١) وهو يدعوه القسم الثاني ، الى اثبات كون الشرائع التي نوّه عنها قد وضعت في موضع العمل . اخيرًا الباب الرابع (ص ٧١—١٠٦) وهو يدعوه: « ذيل في المواد المذهبية والاحوال الشخصية » ينطوي على سبع واربعين حجّة او بيّنة تثبت تسليم ولاة الامور الى الموارنة ، والى سائر الطوائف ، بالحق في الاحكام فيما يتعلّق بالاحوال الشخصية وخلافها .

هذا هو كتاب الاب زياده . وانت ترى ممّا تقدّم كم عانى حضرته من المشقّات في جمع شتات موادّه وشوارده لاثباتها بقالب شيّق ، وعبارة وجيزة ، الامر الذي يستحقّ عليه اعظم الشكر من ذوي العلم ، ولا غرو فالفضل يعرفه ذووه .

ولا يغبر نضارة التأليف ما جاء فيه من الشوائب . فالنقص لا ينفكّ عن الاعمال البشرية مهما بالغ المجتهدون في اتقان اعمالهم . وحضرة صاحب التأليف تراه مثل كل عالم يقول في مقدّمة كتابه ما نصّه « نقابل بجالص الشكر ما يتحفنا به القرّاء من التنبيه الى ما قد يقع فيه من الهفوات.»

والذي اراه انه يلزم في عدة ابواب زيادة اسهاب ، مع زيادة ايضاح ،

وتمحيص لزوال ما فيها من غموض وابهام ، او لزيادة الفوائد . وفي مواضع كثيرة يجب تنوير القارئ ، ولو بحاشية صغيرة ، لمعرفة امور لا يلزم ان تفترض معرفتها لدى جميع القراء . من ذلك مثلاً قوله ص ١٨ : «مجمع ضيعة موسى المنعقد سنة ١٥٩٨» فما هي هذه ضيعة موسى ، واين يوجد هذا المجمع ، ومن عقده؟ . . . الى آخر ما هنالك . وكذلك ايضاً يجب شرح الكلمات والتعابير القديمة الواردة في المختصر كقوله ص ٢٠ : «وان امتنع قابض الاربون وفرك الموافقة ردّ ما قبضه مضاعفاً» فما معنى «فرك الموافقة» ؟ وما معنى «اربون» ؟ ثم مما يلزم الانتباه اليه تعريب بعض الكلمات من ذلك قول المؤلف ص ٦ «واللغة الغريغورية» ولا ريب في انه يقصد اللغة الكرجية (*Géorgienne*) لانه لا علم لنا بوجود لغة في الكون تدعى «غريغورية» . كذلك ايضاً فقد جاء ص ٥ ما نصه : «اما الفتاوي فمنها ما هو مقتبس من الفقه الاسلامي ومنها ما هو مقتبس من القوانين التي اعتمدنا البحث فيها الآن والمثبتة في الكتاب المعروف «بكتاب مختصر الشريعة» وكان قد سبق وقال ، ص ٤ ، ان صاحب المختصر والفتاوي هو المطران عبدالله قراألي .

فلدي في مكتبتي الخاصة نسختان عن كتاب المختصر[1] ونسختان عن الفتاوي . وقد قابلت هذه مع الفتاوي المعروفة تحت اسم «الفتاوي الخيرية» التي جمعها ابرهيم بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز عن الشيخ محيي الدين ، وهذا يقول بدوره انه اخذها عن والده خير الدين الرملي – نسبة الى الرملة البيضاء – فوجدتها مأخوذة عنها حرفاً بحرف . اخيراً كان على المؤلف في مواضع كثيرة ان يلمح ، ولو بالاشارة ، الى ما هي عليه الامور حالياً ولا يكتفي بسرد ما كانت عليه قديماً ، دون ادنى اشارة الى الحاضر . ولكن كل هذا لا يحط من قدر الكتاب الثمين كما ذكرت آنفاً ، وربك ولي الصواب والهدى .

١) يوجد لاحدى هاتين النسختين الموجودتين عندي ملحق يقع في مائة وخمس وسبعين صفحة – خطت بالكرشوني في ٣١ كانون الاول سنة ١٧٤٨ مسيحية بمدرسة عينطورا . – يتضمن عدة مسائل لاهوتية قانونية كمعرفة واجبات القاضي ، وما يطلب منه ، وما هي التأديبات الكنائسية ، وما شاكل ذلك قد أُخذت عن كتاب الاب اليسوعي الشهير بوسمباوم .

بحث في الفلسفة اللغوية

لحضرة الخوري بطرس البستاني

لحضرة اللغوي المعروف الخوري بطرس البستاني بحث جديد في الفلسفة اللغوية يؤيد فيه نظرية خاصة به مفادها ان يُستنتج معنى الكلمة بواسطة الحروف التي تتركب منها. وقد بدأ بحثه بحرف الغين مبيناً انه يدلّ على الخفاء اذا وقع في اول الكلمة. فرأينا ان ننشر توطئة هذا المؤلف النفيس ونردفها بمثال من موضوعاته ، راغبين الى علماء اللغة من قرّائنا الكرام ولاسيما المستشرقين منهم ، ان يبدوا آراءهم في هذه النظرية الجديدة.

يراد بالفلسفة اللغوية النظر في اوضاع اللغة وردّ فروعها الى اصولها ، وتمييز المعنى الحقيقي من المعنى المجازي ، واماطة النقاب عن سر الوضع ، واستجلاء مقاصد الواضع والاسلوب الذي جرى عليه في ابداع الالفاظ والتفنن في معانيها. فاذا احكم المرء هذه الصناعة وضع يده على اعنّة اللغة ، فكانت له اسلس مقادةً من الفرس الذلول ، ولم يفته شيء من الأوابد والشوارد ، ويصيب الهدف في جميع مباحثه وتحقيقاته وتخريجاته اللغوية بحيث يصبح وكأنه ممن عاصروا واضعي اللغة وشهد حلقاتهم ، وسمع مباحثاتهم ، او كأنه قد تلقن منهم سرّ الوضع ، ووجوه التصرّف في الكلمات وطرق اشتقاقها واحسان استعمالها. ولا يغرب عن البصائر النيّرة ما في هذه الصناعة من الغوامض والدقائق ، وما تستلزمه من اطالة الروية وجودة النظر ، والتدقيق في البحث ، والتوغل في مجاهل الاستقراء والاستقصاء ، وما تستدعيه من الجهد الجاهد والعزيمة الصارمة ، وادمان المطالعة ، وتصفح امّات اللغة والغوص في اسفار اللغويين الأعلام الذين خاضوا عباب اللغة واخرجوا من غورها كثيراً من اللآلي اليتيمة ، وأودعوها كتبهم منثورة بين اضعافها.

وانه ليتعذر على كل باحث أن يستشفّ كنه اللغة ، ويستبطن مسائلها

ويحيط علماً باوضاعها ، ويحسن التصرّف في الفاظها ، اذا لم يكن راسخ القدم في فنّ البيان ، متبحرًا في علم المجاز الذي هو مصباح اللغوي الوقاد ودليله الرشيد في مفاوز المعضلات. فاذا كان كليل النظر فيه ضلّ الطريق السويّ ، وكبا في جميع ابحاثه اللغوية الكبوة اثر الكبوة كأنه يخبط الليل الدامس، ولم يقوَ على كشف شيء من اسرار اللغة وضوابطها ، ولم يفقه معاني الكلمات على ما وضعها الواضع ، حتى لقد يحار في وجوه استعمالها ويعتاص عليه ان يضع كل كلمة في موضعها وينظمها في سمطها . ونحن اليوم في امسّ الحاجة الى اتقان هذه الصناعة من كل وجه ، حتى يتسنى لنا البحث عن تلك الكنوز المطمورة في دفائنها ، المذخورة في خزائنها من عهد بعيد ، وحتى يتاح لنا ان نفهم الالفاظ على وجهها ونحكم صياغتها.

وأعضاء المجامع العلمية هم ولا ريب من احوج الناس الى معرفة دقائق اللغة والتعمّق في فلسفتها ، لانهم هم الامناء على هذه الوديعة الثمينة وعليهم المعوّل في وضع كلمات جديدة للمستحدثات العصرية. فاذا لم يكونوا من المطلعين على غوامض اللسان العربي والواقفين على اسراره ، لم يهتدوا الى الطريقة التي انتهجها السلف الصالح في وضع الالفاظ ، وركبوا متن الشطط واختاروا لتلك المستحدثات اوضاعاً نافرة عن مواضعها غريبة في بابها ، ينكرها العرب الخلصاء ايّ انكار ، اذا نُشروا من رموسهم وتغلغلت في اسماعهم.

ولا مشاحة ان اللغة بعد الفتوح الاسلامية قد اعتور الفاظها شيء من الفساد ودبّت الى طائفة منها عقارب العجمة لاختلاط الغزاة بالأعاجم. ولم يكن لذلك العهد الا القليل منها مذخورًا في خزائن الكتب ، فلم تمتد اليه ايدي التصحيف والتحريف والمسخ والافساد. فكان ان اثارت الحمية العربية فريقاً من اقطابها البلغاء فأوغلوا في الصحراء حيث يقطن العرب الصُرحاء ، وانشأوا يخالطونهم ويحادثونهم ويشافهونهم وينقلون عنهم كل ما يسمعونه منهم من الكلم والروايات والاشعار والمطارحات الى غير ذلك ، مما كان يحفظه سكان المدَر عن ظهر قلوبهم متناقلينه خلفاً عن سلف . فجمعوا منهم ما جمعوا مما نراه اليوم في المعجمات ، ودواوين الشعر ، واسفار البلاغة . ولا ريب ان الذي جمعوه هو

اقلّ مما كانت تتداوله القبائل العربية المشتتة في تلك الصحاري الشاسعة الاطراف. فضلًا عن ان كثيرًا من الالفاظ قد ضاع على تراخي الايام مما كان معروفاً عند العرب العرباء الذين تواطأوا على وضع اللغة، لان الحافظة مهما قويت هي اعجز من ان تقوى على ضبط لغة بلغت من الاتساع ابعد مدى. وبديهيٌ ان اللغة التي تدور على اسلات الالسنة في التخاطب والتفاهم لا يمكن ان تشمل جميع الالفاظ اللغوية، على ما نراه اليوم في اللغات الحية، مع انها لا تحوي من الكلم ربع ما يحويه لساننا العربي، فكيف اذا ضممت الى الفاظ اللغة ما كان يرويه الرواة من المنظومات والاشعار مما يتعذر ضبطه على الراوية أيًا كان ومهما بلغت حافظته. ولهذا بقي شيء كثير من الالفاظ التي لم تكتب والقياس يقضي بان تكون. فكان اهمالها ثلمة في جدران هذه اللغة ومدعاة الى الارتباك.

ومهما يكن من الامر فان عرب البادية الذين التقط منهم اولئك اللغويون ما التقطوه من الفرائد، لم يكن للسواد الاعظم منهم المام بالفلسفة اللغوية، ولا معرفة بسرّ الوضع لتقادم العهد بينهم وبين آبائهم واضعي اللغة. فلم يكن من ثمَّ بدٌّ لاصحاب المعاجم في صدر الاسلام، ومن عقبهم من اللغويين في خلال القرون الاربعة للهجرة، من ان يسدّوا تلك الخلّة. فاخذوا يشرحون الالفاظ، ويضعون اسفارًا للمترادفات والفروق مستندين في ذلك الى معرفتهم اللغوية الراسخة، والى ما انتهى اليهم من الشعر الجاهلي والمخضرمي والاسلامي، والى القرآن والحديث، حتى قُيّض لهم ان يصلوا باللغة الى الحدّ الذي هي عليه اليوم. ولولا هذا المسعى المبارك لباتت اللغة العربية ضربًا من المعميات والاحاجي، واندرجت في الاكفان مع اللغات الميتة. فالحمد لله اولًا، ثم لاولئك الائمة على ما اذخروه لنا من نفائس الجواهر مما نسطره بمداد الشكر على صفحات الصدر، ويخلد لهم الفضل الى يوم النشر.

على انهم مهما بذلوه من المجهود في هذه السبيل، لا يزال كثير من الالفاظ تحت غمامة الغموض ولا يبرح في حاجة الى الشرح والتخريج حتى اصبح كتّاب هذا العصر في قبضة الحيرة لا يعرفون كيف يضعونها في مواضعها. وكأن اولئك اللغويين قد وضعوا معاجمهم لنفوسهم، حتى ابقوا ذلك النقاب الصفيق على محيًا

اللغة الوسيم وتركوا للاعقاب من بعدهم مركباً خشناً وطريقاً مستوعراً . ولا يخامرنا ادنى مرية في انهم لو شقوا حجاب الغيب وعرفوا ما يطرأ على اللسان من الطوارئ وعلى بنيه من الوهن والقصور ، ثم لو ادركوا ما سوف تنتجه القرائح من العلوم والفنون والاختراعات والاكتشافات ، لذللوا تلك العقبات وكفونا اليوم مؤونة التنقير والتنقيب والتمحيص والتدقيق ، وردّوا عنا السهام التي يرشقنا بها الاغيار من ان لغتنا قد امست بعد تلك الاستنباطات الطريفة ، والمبتدعات الحديثة ، عقيمة قاصرة لا تفي بحاجات المتكلّمين بها . وحسبنا بهذا التعبير مهمازاً لشحذ غرار العزائم ، واستثارة الهمم والاندفاع بكل قوانا لسدّ هذا الخلل ، والّا ازداد النشء العربي في هذا العصر نفوراً من امّهم الرؤوم وعقوقاً لها .

او ليس من العار على المتضلعين من هذه اللغة الشريفة ، ولاسيما في هذا القطر الغاصّ بالجهابذة المحققين والعلماء المدقّقين ، ان يسترسلوا الى الدعة مؤثرين الونا على العناء ، في حين ان اخوانهم ، في اكثر الاصقاع العربية ، قد نهضوا تلك النهضة المباركة ودبّت في صدورهم الحمية فتنافسوا في انشاء المجامع اللغوية والحلقات العلمية ، سدًّا للثلم الواسعة التي فغرها في بناء اللغة ما يشذ عن الاحصاء من المخترعات في العلوم والفنون على تنوّعها ، مما يكاد يؤلف لغةً مستقلّة بنفسها ، ومما لم يكن له ادنى أثر على عهد اجدادنا الألباء الذين اورثونا هذا التراث الثمين الذي هو من اقدس الذخائر وانفس الاعلاق .

هذا وما من شيء أندى على كبدنا ، واشهى الى نفسنا ، من ان نرى نخبة علمائنا يتبارون في الباس اللغة برداً حضرياً قشيباً ليس فيه شيء من خيوط العجمة ، وأن يؤلفوا مشيخات علمية ينخرط في سلكها كبار الائمة الراسخون في المعارف اللسانية والبيانية ، المتبسطون في تاريخ العرب ، وقد حذقوا بعض اللغات الاجنبية الراقية ، واطلعوا على آداب كتابها والمفكرين فيها حتى يتعاونوا ومن ينضم اليهم من الفقهاء والاطباء والفلكيين والرياضيين والمهندسين على إحداث كلمات جديدة لجميع الاستنباطات العصرية والمبتدعات الفكرية ، فيلحقوا لغتهم باللغات الحية ويجلسوها على العرش الجدير ببلاغتها الحريّ بجلالها .

ولقد غرس الله في فؤادنا منذ طراءة سننا اشد الميل الى لغتنا الشريفة حتى

همنا بها هياماً كاد يشغلنا عن عدة لغات اقتبسناها في ايام الدراسة فتفرغنا لتصفح طائفة كبيرة من كتب علمائها البلغاء منذ عصر الجاهلية الى عصرنا هذا. وأُتيح لنا ان ندرك شيئاً من اسرار هذه اللغة فرأينا ان ننشره في سفر نجمع فيه الى ما استقيناه من تلك العيون الفيّاضة ، شيئاً من المعلومات التي اهتدينا اليها بالاستقراءات والاستقصاءات من زهاء ربع قرن ، لعلنا نؤدي لابناء الوطن المحبوب خدمةً يحلو لنا الاضطلاع بها.

وقصارى ما نرجوه من مكارم اللغويين السمحاء ، ان يطيلوا أناتهم لأن البحث جديد مبتكر . وكل جديد مستغرب ولاسيما عند ابناء الشرق الذين يميلون الى التقليد والجمود . فاذا عثروا في ابحاثنا وتخريجاتنا على شيء لا يقرّ رأيهم عليه ، فليدلوا الينا بحججهم ، ونحن لهم من الشاكرين . وهنا لا بدَّ لنا من كلمة تمهيدية توقف المطالع على الطريقة التي تمشينا عليها فنقول :

ان العرب العرباء قد وضعوا لغتهم شيئاً فشيئاً ، وكان اول ما تواطأوا على وضعه الكلمات التي كانوا يشعرون بحاجتهم اليها اثناء التحادث ، وهو امر طبيعي . ثم كانوا كلما تقدموا في ميدان المعرفة ، يحدثون الفاظاً جديدة حتى نمت لغتهم ذلك النموّ المدهش.

وكل من يستقرئ الفاظ اللغة منعماً النظر في مدلولاتها ، يرى اكثرها يرجع الى اصلين كبيرين يتفرع عنهما ما لا يقع تحت حصر من الكلمات ، اولهما ما دلّ على معنى الخفاء او على شيء منه ، ويُدرج فيه كل الالفاظ الدالة على الاستتار والانحراف والاسراع وما يقرب من ذلك . واما الثاني فهو ما دل على الظهور ، ويندمج فيه كل ما دلّ على الوضوح والتفرّق والانفصال والاتساع والانتشار وما شاكل ذلك . وقد وضع العرب للمعنى الاول اي معنى الخفاء ، لفظة غاب من غابت الشمس اذا غربت ، وهي ادلّ الالفاظ على الخفاء وفرعوا عنها الوفاً من الالفاظ بطريق القلب والابدال كما يتضح لك ذلك في خلال بحثنا هذا . واما المعنى الثاني وهو الظهور فسنبسط الكلام عليه بعد فراغنا من البحث الاول.

ولا مندوحة لنا قبل الشروع في هذا البحث الخطير ، من ان نوقف القراء

على ان العرب عندما وضعوا موادّ اللغة قدموا في الوضع الاشياء المحسوسة على المعقولة . فاصبحت المحسوسات في كل مادة بمنزلة اصل للمعقولات. وكثيراً ما تكون المحسوسات في مادة واحدة متفرعة من محسوس آخر هو اصل لها. ثم راعوا العلاقة بين الاصول والفروع في جميع الالفاظ اللغوية كما راعاها البيانيون في المجاز ، فكل كلمة لا ترجع الى اصلها لا يكون للواضع فيها يدٌ . ولكنها دخلت الى متن اللغة من غير ابواب ، او انها وضعت بعد ان احتجب عن البصائر سرّ الوضع ، فخرجت عن القياس عاطلة من ذات الحلي النفيس الذي لولاه لما كان للغة هذه المكانة في الصدور. ونحن انما نعتمد في بحثنا هذا على المقيس لا على الشاذ. واننا نعتبر اللغة قياسية في الاصل وما شذّ من كلماتها عن القياس انما شذوذه إما لكونه من الدخيل ، او لفساد في نقله ، او لوضعه بعد ضياع سر الوضع او لسماعه من اناس لا يوثق بفصاحتهم ونقاء عروبتهم ، او غير ذلك مما لا يدخل في دائرة بحثنا . فاعلم من الآن هذا فتكفي نفسك مؤونة تخطئتنا وتكفينا مؤونة الرد عليك.

وهذه العلاقة بين الاصول والفروع ، يكفي ان تكون شبه علاقة حتى يرجع كل فرع الى اصله . وسينجلي لك ذلك أبين جلاء في غضون تفريعنا للالفاظ وتخريجنا لها ، وما معوّلنا الا على الله ملهم الرشد والصواب.

السلسلة الاولى

ومن ثمّ يبدأ السلسلة الاولى وفيها يدرس الالفاظ المبدوءة بالغين والمتفرّعة عن «غاب» بعد قلب لامه ، فيبيّن وجه الخفاء في جميعها ، ويستدرك الكثير من المتروكات على اصحاب المعاجم من قدماء ومُحدثين. وها نحن ننشر ما يقول في «غاب» ومتفرعاتها .

غاب

ولقد فرّعوا عن فعل غاب ، من قولهم غابت الشمس ، معاني كثيرة تدلّ جميعها على الخفاء. أبين دلالة حتى لا تفتقر الى الايضاح فقالوا: غاب الرجل ضد حضر. وغاب عن بلاده اذا سافر او بان عنها. وغاب الشيء في الشيء اذا اختفى فيه. وغاب الشي عن فلان اذا بعد وتوارى عنه.

ثم قالوا : غاب فلان فلاناً اذا ذكره اثناء غيابه بما فيه من السوء ، فاذا لم يكن فيه قيل: بهته بهتاً وبهتاناً اي قذفه بالباطل وقال عليه ما لم يفعله . او يقال : وقع فيه وقيعة ، اي تناوله بما ليس فيه او ذكر فيه ما ليس حقاً .

مزيداته

أغاب

أغاب القوم: دخلوا في المغيب . واغابت المرأة اذا غاب عنها بعلها او احد من اهلها فهي مُغيب او مُغيبة.وضده المرأة المُشهد وهي التي حضر زوجها

اغتاب

وقالوا اغتاب فلان فلاناً ، اذا عابه اثناء غيابه وذكره بما يكره من العيوب وهو حقّ اي صادق.واسم المصدر منه الغيبة بكسر الغين، واما الغَيبة بفتحها فهي مصدر غاب الذي هو في معناه.

غيّب

وقالوا غيّب الرجل الشيء عن فلان ، أبعده وواراه . وغيّبه في الارض وغيرها اخفاه . ومنه قولهم غيّب الميتَ غيابُه اي واراه ، والغياب القبر . وهو مجاز عقلي اسند فيه الفعل الى المكان وهو الغياب . واما في الحقيقة فهو مسند الى من دفنوه في غيابه اي قبره . فيكون الاصل : غيب القوم الميت في غيابه اي دفنوه فيه . وقد وردت هذه العبارة في المعاجم على هذا الشكل : غيب فلاناً غيابُهُ : دُفن في قبره . ولا يخلو هذا التفسير من بعض الالتباس ولاسيما على الناشئين الذين يصعب عليهم ان يفرقوا بين المجاز العقلي والاسناد الحقيقي.

تغيّب

وقالوا : تغيب الرجل عن بلده اذا بان عنه وسافر ، وتغيّب عني فلان اي غاب.وتغيب عني الامر بطن وخفي

غايب

وقالوا: غايب فلان فلاناً ضد خاطبه.ولم يرد هذا الفعل في « لسان العرب » بل ورد مصدره حيث قال: المغايبة خلاف المخاطبة.ولم يزد عليه حتى ترك عقدة مستحكمة.والذي نراه ان «غايب» هذا بمعنى غاب . فاذا قلت لصديقك: علامَ

غايبتني في محنتي يكون المعنى علام غبتَ عني. وقد جاء في «الاساس» ما نصه: « وتقول انا معكم لا اغايبكم » فانه يريد بذلك انه لا يغيب عنهم ولا يفارقهم. وليس لهذه العبارة غير وجه من التأويل.

ومما يزيد المسألة جلاء ان الضمير انما سمي ضمير خطاب لان صاحبه يكون حاضراً عندما يوجّه اليه المتكلم الحديث، او في حكم الحاضر اي كأنه حاضر، وذلك كأن يخاطب المتكلم شخصاً غائباً عنه ولكنه يتصوره في حضرته امام. واما ضمير الغيبة فانما سُمّي كذلك لان صاحبه يكون في الغالب غائباً عن المتخاطبين وقت المحادثة، او في حكم الغائب لانه لا يوجّه اليه الخطاب. فاذا عرفت هذا يتبين لك المراد من قولهم « المغايبة خلاف المخاطبة، وغايبه ضد خاطبه.» لان المخاطبة تفيد الحضور والمغايبة تفيد الغياب، وكلاهما متضادان. وما كان اغنانا عن هذا التخريج لو فسر اصحاب المعاجم غايب بغاب والمغايبة بمصدره وهو الغياب. على انه ليس تحت هذا الامر كبير طائل لان غايب نادر الاستعمال ولنا في غاب مرادفه غنى عنه فهو اشيع منه استعمالاً وافصح لغة واسلس لفظاً. ونحن لم نتبسط في هذه المسألة الا لنثبت ما في المعاجم من الغموض ونلفت انظار اعضاء الندوة اللغوية الى جلاء كل ابهام.

الاسماء المتفرعة عن الغيب مصدر غاب

الغيب(١

الغيب : كل ما غاب عنك . ومنه قولهم : يؤمنون بالغيب . وسمعت صوتاً من وراء الغيب اي من موضع لا اراه.

والغيب : السر لانه مكنون في الصدور . ويأتي في معنى الشك ايضاً. ووجهُ الخفاء فيه ان المرء لا يرتاب في شيء ما لم يكن غامضاً عليه غموضاً يولد في فؤاده الريبة . فاذا كان جلياً فلا مجال للشك.

والغيب من الارض : ما اطمأنّ منها اي سهل وانخفض فغيّبك.

---

١) اثبتنا هنا الاسم الذي هو اصل المادة ثم الحقنا به الالفاظ المتفرعة عنه ليسهل رد الفرع الى اصله. وكذا فعلنا عند ذكر فعله. وسنجري على هذا النمط في جميع الالفاظ، وان خالفنا فيه نسق المعجمات الحديثة.

والغيب من الجُبّ: قعره. والقعر من كل شيء خفيّ مستور لا يظهر ما فيه.

الغَيبة

الغيبة: الوهدة من الارض اي المكان المنخفض والهوّة. ووجهُ الخفاء فيها ظاهر.

الغابة

الغابة: الوهدة من الارض. والأجمة ذات الشجر المتكاثف. ووجه الخفاء فيها كونها تغيّب من يكون تحت اشجارها او يتوغل فيها اي يذهب ويبعد.

والغابة: الجمع من الناس. وهذا المعنى متفرّع عن المعنى السابق على سبيل المجاز لان الجمع الكثير يشبه اشجار الغابة من حيث الكثرة والازدحام. امّا وجهُ الخفاء فيه فهو ان الذي يكون في هذا الجمع يضيع بين افراده ويختفي فيهم بحيث لا يُهتدى اليه الّا بشقّ النفس، كما يضيع المتغلغل في الغابة بين ادواحها المتلاصقة وتحت اغصانها المتشاجرة المتكاثفة. وايّ شيء ادلّ من هذه الكلمة على معنى الخفاء، بل اية علاقة اقوى من هذه العلاقة بين الفرع والاصل اي بين الجمع من الناس والغابة.

وجمع الغابة الغاب والغابات: غير ان الاول ليس بجمع حقيقي كالثاني، بل هو اسم جنس يُفرق بينه وبين مفرده بالتاء التي يسمّونها تاء الوحدة. ويقال له شبه الجمع او اسم الجنس الجمعيّ. فاذا دلّ على حيوان كان بعضه مذكّرًا نحو طار الحمام وبعضه مؤنثاً نحو رعت الغنم. واذا دلّ على غيره أُطرد فيه التذكير فتقول اثمر النخل، وطاب التمر، وغاب كثيف، وروض اريض، وثمر يانع، ونجم وقّاد، وسحاب مكفهرّ.

واصل الغابة غَيَبة قُلبت ياؤها الفًا لتحرّكها وانفتاح ما قبلها. وجمع فَعَلة على فعل كثير في اللغة ومنه عجلة عجل، ونسمة نسَم، ونغمة نغم، واجمة اجم، واكمة اكم، واسلة اسل، وعلقة علق، وصدفة صدف، ورحَبة رحَب.

وقد جاء من الأجوف على هذه الصيغة من الجمع كثير من الالفاظ مثل ساحة ساح، وحاجة حاج، وساعة ساع، وراحة راح (وهي باطن الكف)، كما جاء من الناقص على الصيغة نفسها كثير من الكلمات قد جمعت هذا الجمع مثل نَواة نوى وحصاة حصى ودواة دوى ومهاة مَها، الى غير ذلك ممّا يكاد لا

يُحصر . فعلامَ يقول الصرفيون في باب جمع المؤنث المكسّر ان كل كلمة على فَعَلة (بفتح الفاء والعين) تجمع غالباً على فعال مثل ساعة سياع ورقبة رقاب . ولم يرد ذكر في كتبهم لفَعَل جمع فَعَلة (بفتح الفاء والعين فيهما) . أفما كان الاجدر بهم أَلّا يحصروا جمعها في فِعال او يقولوا على الاقل انها تجمع غالباً على فعال واحياناً على فَعَل . على ان ما ذكرناه من الكلمات على وزن فعلة وجمعها فعَل هو جزء مما يحضرنا اقتصرنا عليه تفادياً من الاطالة .

الغَيبان (بفتح الغين)

الغيبان من الشجرة : عروقها التي تغيَّب في الارض . ومن النبات : ما غاب عن الشمس فلم تُصبه . ويصحّ ان تطلق هذه اللفظة على النبات الذي يُربَّى او يعيش في الظلّ . وذلك كالنبتة التي يسمّيها العامّة « حشيشة الفيّ » وان يسمّى المكان الذي يُوارى فيه أي يُغيَّب عن اشعة الشمس « المَغيَب » او « المَنبَت » من نبّت الزارع النبات اذا ربّاه واعتنى به . ولا نرى بأساً من ان يُدعى الظلّي نسبة الى الظلّ وان تُسمَّى جميع النبتات من هذا النوع « الظلّيات » . واسم المكان منه « المَظَلّ »

الغَياب

الغَياب من الشجر : عروقه التي تغيب في الارض . والغياب ايضاً القبر وقد مرّ . ووجه الخفاء فيه أبين من ان يُصرّح به لانه يغيّب الميت متى دفن فيه . ولم يرد في المعاجم جمع له . وكونه في الاصل مصدراً لا ينافي ذلك . فقد جمعوا الرمس على رموس وأرماس والقبر على قبور وكلاهما مصدر في الاصل وكان حقّه ان يجمع على افعلة . وهو الجمع الغالب في كل موصوف مفتوح الفاء ممدود الالف مثل زمان ازمنة . ولعله لم ينتهِ الينا جمعه لتقصير في النقل اولكون العرب استغنوا عن جمعه بجموع مترادفاته وهي اكثر دوراناً على السنتهم واقلامهم .

وهنا مجال للنظر في جمع رمس على ارماس ، فقد جاء في كتب الصرف ان ما كان على فَعْل لا يجمع على افعال ما لم يكن معتلّ العين مثل ثوب اثواب وسيف اسياف . او معتلّ الفاء مثل وقت اوقات ، او مهموزها مثل ألف آلاف ، او مضاعفاً مثل عمّ اعمام . ولمّا كان الرمس وما جاء على وزنه من

الاسماء قد جُمع على افعال وليس فيه شي. مما ذكر، رأينا ان نستفتي شيخنا العلامة عبدالله البستاني سراج اللغة الوهّاج، فحججنا ذات يوم كعبة ادبه في رهط من عشّاق اللسان العربي فاذا به مكبٌّ على تعهّد «بستانه» الخصيب الفيّاح. فبعد ان حيّيناه بالامامة اللغوية وردّها علينا بما عهد به من طلاقة المحيّا وابتسامة الثغر ورحابة الصدر، دار الحديث في تلك الحلقة الادبية على افعال جمع فعل فقلنا: ما رأيك يا شيخ في انهار وازهار وما شاكلها من الجموع مما جاء مفردها على فعل. قال: لا بأس في ذلك ولا نكير. وذلك ان بعض القبائل العربية كانت تحرّك عين فَعل في بعض الاسماء للتخفيف فتجمعه على افعال وهو جمعه المطّرد. وبعضها كان يبقيها على اصلها فيجمعها اما على فعول مثل دهر دهور او على افعُل مثل نهر أنهُر. واكثر ما كان التحريك يقع فيما كانت عينه من حروف الحلق. غير انه ليس بمطّرد فلم يقولوا مثلاً في بحر بَحَر فيجمعوه على ابحار ولا في شهر شهَر فيجمعوه على اشهار.

قلنا: وما قولك فيما كان على شاكلة ارماس وأشكال وأضراب وانجال، مما ورد مفرده في اللغة على فعْل بتسكين العين لا بتحريكها وعينه ليست حلقية. قال: انما راعوا في هذه الاسماء واشباهها المشاكلة بين المترادفات. فقد حملوا الرمس على الجدَث فقالوا ارماس كما قالوا اجداث. وحملوا الشكل على الشبَه (بفتح الباء) فقالوا الاشكال كما قالوا الاشباه وحملوا الضرب على المثَل (بفتح الثاء) ومعناه الشبه والمثل فقالوا الاضراب كما قالوا الامثال. وحملوا النجل على الولد فقالوا انجال كما قالوا اولاد. ومثله النسل وهو مرادف للولد فقد قالوا فيه انسال. وحملُ النظير على النظير شائع مستفيض في اللغة. اهـ.

قلنا: او ما كان الاجدر بالصرفيين ان يذللوا هذه العقبة في اصول اللغة فيقولوا في فَعْل انه يجمع غالباً على افعُل مثل نفس انفُس، وعلى فعول مثل قلب قلوب، واحياناً على افعال مثل لحن الحان وفرخ افراخ وزند ازناد، ونادراً على فعال مثل بحر بحار.

وعمرك الله كيف لا يُتّق لصيغة افعال ان تضم الى جموع فَعْل (بتسكين العين) وفي اللغة ما ينيف على ثلاثمائة لفظة تجمع على هذه الصيغة ومفردها فَعْل

هذا وقد ورد في متن اللغة كثير من الالفاظ في معنى القبر منها ما هو مألوف كالرمس والمدفن والضريح والتربة والحجرة والجدث . ومنها ما هو غير مألوف ولكن لا بأس من استعماله كالخير والحفرة والغياب والجنن والرَّجمة (بفتح الراء) . ومنها ما هو مهجور والاكفان أليق به ، كالجثوة والجدف والوتيرة . وقد جاءت الرُّجمة (بضم الراء) للحجارة او للعلامة التي تنصب على القبر. واما الجبَّانة فهي المقبرة اي موضع القبور.

على ان بعضهم يعتبر الحفرة من مترادفات القبر وهي ليست كذلك . لان الحفرة في الاصل ما حُفر في الارض وهو عام يشمل القبر وغيره . فاذا سُمّي بها القبر كان ذلك من تسمية العام بالخاص وهو مجاز مرسل . والعلاقة بين العام والخاص علاقة شمول اي ان العام يشمل الخاص ويجعله في دائرته.

ومنهم من يظن اللحد مرادفاً للقبر وهو في الحقيقة الشقّ المائل يكون في جانبه اي جانب القبر. واطلاقه على القبر مجاز مرسل ايضاً من باب اطلاق الجزء على الكل. والعلاقة بين الاجزاء ومجموعها أبين من ان تُذكر.

* * *

وعلى هذه الطريقة من الوضوح ودقة الملاحظة يتتبع سائر الالفاظ المبدوءة بالغين مثل : غاث الواوي واليائي ، ومشتقات غاد ، وغار الواوي واليائي ، وما يشتق من غاس ، وغاص ، وغاض ، وغاط ، وغاظ ، وغاغ ، وغاف ، وغال الواوي واليائي ، وغام ، وغان ، وغوي ، وغيًّا .

ثم يبدأ السلسلة الثانية واولها غبّ ، فغبث ، وغبر الى آخر ما هنالك ، متتبعًا حروف المعجم في ترتيبه ، ذاكرًا جميع ما ورد في المعاجم من المشتقات ، مستدركًا عليها مما لم يورد وامكن وجوده ، مما يزيد نظريته فائدة في عيون دارسي اللغة.

شقاء الاولاد الصغار

في روسية

بقلم الاب تونل اليسوعي

هو الله مبدع الانسان ، ومؤسس العائلة ، قال لأبوينا الاولين ولذريتهما : « انموا وتناسلوا » وربطهما بعقدة الزواج العديمة الانفصام ، حفظاً لحياة البنين وتربيتهم ؛ واعلن في الوصية الرابعة الواجبات المتبادلة بين الابوين والبنين صيانةً لبقاء الجنس البشري . وجاء المسيح ، فلم يغيّر الناموس القديم ، بل تممه فجعل الزواج سرّاً من اسرار البيعة السبعة وحرّم الطلاق وقال : « ما جمعه الله لن يفرقه انسان » (متى ١٩ : ٦ ؛ مر ١١ : ٩) ورمق البنين خاصة بعين حنان الهي ورأفة لا حد لها ، فتهدّد باشدّ العقوبات من يجرأ على اذاهم وقال : « من شكك احد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فاجدر له لو عُلّق في عنقه حجر الرحى وزجّ في لجة البحر » (متى ١٨ : ٦) فلا عجب من ثم ان نرى الكنيسة الكاثوليكية تتمسك بالمبدأ الالهي ، فتعلن وحدة الزواج وقداسته ، وتراعي حقوق الابوين وتعظمها كما عظمها الخالق بالوصية الرابعة ، وتبذل قصارى جهدها في العناية بالاولاد منذ دخولهم العالم : فتحتضنهم بالمعمودية ، وتثبتهم بنعمة الله بالميرون ، وتسنّ في سبيل صالحهم الروحي والمادي سائر الشرائع ، التي من شأنها ان تحفظ لله جيلاً مختاراً وامةً مقدسة . » (١ بطر ٢ : ٩)

اما البلاشفة الشيوعيون فمن جملة ما اقترفوه على الحياة الاجتماعية من الجنايات انهم سحقوا نظام العائلة ، وجرّدوا الابوين من سلطتهما ، واتخذوا الناشئة آلة اختبارية لتطبيق مباديهم الجنونية ، واستعبدوها في سبيل الدعاية الى الشيوعية

والمكافحة عن الثورة العامــة التي يبغون اثارتها في العالم . واليك ملخصات اقوالهم :

« ان العائلة انما هي اختراع من مخترعات الكنيسة ، ونظام غرضه مجاراة الفئة الغنية على اميالها بالتمتع برغد العيش ورفاهيتــه . فمن واجب الشيوعيين اتلاف العائــلة ... ولا بد لهم لبلوغ غرضهم من ان يقبضوا على زمــام المرأة ... فيجب اذن عليهم ان يسحبوها من بيتها ، ويميتوا فيها عاطفــة الانانية وغريزة الحب الاموي.» وقالوا : « لا بأس من كيان الزواج لكنه لا يربط الزوجين بواجب حقيقي متبادل ولا يضطرهم الى السكنى معاً او الى حفظ العهود . ويكفي ان يعرب احدهمــا عن ارادته بالطلاق لكي يتم الطلاق شرعاً...»

وبلغ من البلاشفة الكبرياء وعماء البصيرة الى الاشادة بمباديهم على رؤوس الملا ، والدعاية الى اعتناقها ، زاعمين انها الدواء الشافي لادوائنا الاجتماعية وانها قديرة ان تُعيد للجنس البشري عصره الذهبي بل ترجع به الى سعادة الفردوس واليك حادث مصداقاً لكلامنا :

في ١٤ نيسان من العام ١٩١٨ ، قام تروتسكي احد زعماء بلشفية موسكو وخطب في جمهور من العمّال ، فقال:

« اننا سننشئ دولة الاخاء . وهذه الدولة هي الارض التي اورثتناها الطبيعة . فنأتي على استنباط خيرات الارض طبقاً لمبادي التضامن ، فنقلب وجهها ونجعلها جنة رحيبة غناء ، ومرتعاً يمرح فيها اولادنا كانها الفردوس ! كانت ايام آمن فيها البشر بحقيقة الاساطير الفردوسية . لكن ايمانهم لم يكن الا اضغاث احلام وعنواناً لتلهف نفس الانسان الاسيرة شغفاً بحياة حسنى ... اما نحن فنقول ان تلك الجنة سنخلقها على الارض بايدي العمّال وسوف تكون مفتوحة للجميع لاولادكم واولاد اولادكم على مدى الدهور »[1]

ومما يؤسف له كثيراً ان بعض المجلات والصحف العربية تعلق بكل

1) Rézanof, *la 3e Internationale communiste. Le Komintern. Bossard, 1922. p 17*

حديث مستظرف وتشيد به ، وغايتها القصوى ان تلهي القراء بكل ما امكنها من حسن او قبيح فتقصّ عليهم من اخبار البلشفية ، ومن حركات التجدد في البلاد المسكوبية ، وترقية الامة وتعليمها ، ما يوهم السذج ان هناك نهضة ورقياً . اما الحقيقة فان بلاد المسكوب التاعسة اخذت تبيد عن بكرة ابيها لان دودة الخراب تنخر عظامها بشخص بنيها التاعسين ، كأن لعنة المسيح حلّت عليها . كيف لا وقد زعزعت اركان العائلة ، وشككت الاولاد الصغار فاصبحوا اولاد افاع ، وانقلبوا على امهم الرؤوم شرّ منقلب : نشأوا قطيعاً هائلاً يهيم على وجهه في مشارق البلاد ومغاربها ، يجرّ الاوبئة والدمار ويقف شاهداً حياً على انحطاط الاداب ، فيسم جبهة البلاد الروسية بسمة الذلّ والعار . وسوف نرى ان حكومة السوفيات نفسها صارت تنظر الى امر الاولاد المتروكين بحيرة وخشية وان الصحافة والمجلات لا تأتي على حديث في بلاد المسكوب الا وتذكر فيه الاولاد المتروكين عبرة وانذاراً

* * *

في العام ١٩٢٨ ظهر كتاب عنوانه « موسكو على المكشوف » الفه رجل قضى خمساً وثلاثين سنة في روسية ، فكان في الماضي قنصل بلجكة فيها ، ثم ندب ممثلاً لجمعيات الاسعاف التي تألفت لاغاثة المنكوبين في روسية . هذا الرجل هو مسيو جوزف دويه[1] وصف حالة الانحطاط الادبي الذي صارت اليه بلاد السوفيات فقال . (وجه١٠٣) :

قد يكون تأثير العائلة ونفوذ الابوين حائلاً دون بلوغ المدرسة البلشفية غايتها من نفث سمّها في الناشئة واسقاطها في دركات العار ؛ ولكن اين العائلة؟ واين هما الابوان للاولاد الايتام او المتروكين؟

سلبت البلشفية الافراد حقوق الملك ، فسيّبت الفقر المدقع ، وطرحت سكان قرى برمتها فريسة للجوع . اما الذين نجوا من مخالبه فتاهوا في البراري والمدن ، ملتمسين لقمة يسدّون بها رمقهم . هلك الكبار في التيار الهائل ، وعاش الصغار . فتكوّنت منهم نواة ما عتمت ان نمت وتفاقم شرها بسبب

(١) Joseph Douillet : *Moscou sans voiles*. Paris, 1928

البلشفية . لان حكومة السوفيات ، باعلانها سقوط العائلة وحلها عقدة الزواج ، فكت اواصر القرابة ، واخرجت البنين عن طاعة الابوين وارسلتهم على وجوههم فمضوا وانضموا الى الهاربين من براثن الجوع وصاروا آفة من آفات البلاد اذ اصبحوا جيشاً جراراً دأبه الخراب.

احصت مجلة العالمين عددهم فقالت : لقد اختلفوا في احصائهم . فقالوا انهم كانوا ملايين بين ١٩٢٢ و ١٩٢٤ وقالوا بضع مئات الوف ، او عشرات الوف، في العام ١٩٢٥ .

ونشرت الموسوعة السوفياتية ، للعام ١٩٢٨ ، احصاء الاولاد المتروكين فقالت انهم ٣٣٤٠٠٠ . ان البون لشاسع بين احصاء واحصاء..فما هي الحقيقة ؟ هي ان الحكومة قللت عدد الاولاد المتروكين خشية من إثارة الرأي العام في البلاد عليها.

والاعداد الضخمة اقرب الى الحقيقة . جاء في اعمال مؤتمر السوفيات الثالث عشر (١٩٢٧) : « نقصنا الاولاد المتروكين في المراكز العظمى ، فتوهم الناس انهم قلوا عدداً في البلاد كافة . ولكن اخبار الولايات تبدد الاوهام . » وفي العام ١٩٢٨ ، اعترفت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بان الاولاد المتروكين في شوارع المدن فقط يحصون بالالوف.وقالت جريدة البرافدا:« لا مغالاة بالقول ان عدد المتروكين من الاولاد الى اليوم لا يزال يحصى بالملايين.»

كيف يعيش هؤلاء البائسون . ليس منهم في ملاجئ الحكومة الا فئة صغيرة. اما السواد الاعظم منهم فيسيحون في البلاد : يقصدون الى اماكن الاصطياف ، شمالاً في فصل الحر ، ثم يرجعون على اعقابهم ويرحلون الى الجنوب ايام الشتاء . وقد يفضلون الاقامة في المدن وخاصة في موسكو على امل ان يجدوا فيها معيشتهم بطرائق سهلة ؛ وقد يدفعهم اليها احياناً رغبتهم بالعلم ورجاؤهم بدخول مدرسة .فيجولون الشوارع ويستعطون ويسرقون ويحتالون على ايجاد مأواهم في الليل . الى اين الذهاب ؟ الى البيوت الخراب ، الى المحطات في حافلات القطار الحديدية ، الى اينما حصلوا على مسقوف او محل دافئ ولو جوف قدر الاسفلت الواسعة المخصصة لطبخ اسفلت الطرقات ، وعلى هذا المنهج

يسلكون في موسكو وفي غيرها من المدن الكبرى كلينغراد وقازان وسامرى ورستوف واودسا .

ويلاه ! الى اي عمق هبط البلشفيون بالناشئة الروسية . وما اشد قساوتهم على الاولاد الصغار ! ان هؤلاء المساكين المتروكين اغلبهم من عائلات العمال والفلاحين وهم بازدياد يوماً على يوم . جرى احصاء سنة ١٩٢٧ ، جاء فيه ان ١٥ بالمئة من المتروكين عمرهم يتراوح بين الثلاث والسبع سنوات ؛ و٥٧ بين الثامنة والثالثة عشرة . وهذا دليل واضح على انهم جاوزوا الى الوجود على عهد البلاشفة فلا حبذا عهد التوحش والذل !

وان من كان البلاشفة اوصياءهم صاروا مرتحاً للمفاسد والرذائل . فانتشرت في مصاف الاولاد المتروكين جراثيم الامراض الجسدية والروحية : السكر ، والقمار ، وشرب المخدرات كالكوكايين ، وتسربت في عروقهم سموم الامراض الزهرية . وزادتهم حالتهم الرثة وفقرهم المدقع وقاحة ونشاطاً على ارتكاب الجنايات . فابتدأوا بسرقة الخبز واستحلوا مال الحرام . وصاروا يتواطئون على السيدات في الطرق يعدو احدهم بسرعة الباشق فينتزع الكيس الذي في يدها ، واذا قاومته عضها بنابه ويا ويلها من عضة المغتصب الصغير المصاب بالامراض المعدية .

ورب صغير بينهم لم يردعه رادع عن ارتكاب القتل . فيا لها من ناشئة تعساء . يا لها من أمة بائرة !

وضعوا لائحة الجرائم في الجمهورية الاشتراكية المتحدة السوفيتية المسكوبية فكان عدد الجنايات التي ارتكبها الاولاد المتروكون خارجاً عن موسكو ٢٩,٥٢٧ منها ١٣,٦٤١ سرقات خيل . ٨٨ سرقات بالسلاح ، ومنها ٢٦٥ اضرامات النار تعمداً ، و ١١٨ قتل و ٣٢٤ تقطيع اعضاء وجروحات . و ٢٣٦ جريمة ضد الاداب .

وكان بين ١١٨ قاتل ، عشرون يتراوح عمرهم بين عشرة واثنتي عشرة سنة ، واثنان وعشرون دون السنة العاشرة من عمرهم . وكانت نكبات الحريق تقريباً كلها من صنيع اولاد لم يتجاوز عمرهم الحادية عشرة .

اما في موسكو فقد احضروا عام ١٩٢٥ امام لجنة القضاء للغير بالغين رشدهم ٢٤٤٥ ولداً كان منهم ٤٠٠ مريض و ١١٤ معتلًا من تأثير المخدرات و ١٦ مريضاً بالسيفيلس و ٥٥ معتوهاً.

وفي العام ١٩٢٦ بين ١٠٢ ولداً من المتروكين المعروضين للفحص كان اثنان فقط لا يستعملان المخدرات . ومن ١٩٢١ الى ١٩٢٤ وقف خمسون الفاً امام لجنة القضاء للاحداث وكان منهم خمسة بالمئة مصابين بالامراض المعدية .

نعم ان حكومة السوفيات فتحت ملاجئ للاولاد المتروكين ولكن عددها وتجهيزها دون المطلوب بما لا يقدر . ان اثنين واربعين بالمئة من الملاجئ ليس فيها اسرة كافية لعدد الاولاد فينام هؤلاء اثنين او ثلاثة في سرير واحد . وقد عششت فيها الحشرات كالقمل والبق والبراغيث ، وهي ناقصة من الحاجيات الضرورية لصحة الاولاد وتعليمهم . والشاهد على الحالة التعيسة المخيمة على ملاجئ الحكومة هي الصحافة البلشفية نفسها : وصفت الملجأ السابع عشر في مدينة قازان فقالت : « هي غرفة صغيرة ملؤها فرشات لا الحفة عليها . هناك خرق بالية عوض الكتان . وفي كل سرير ولدان . والفرشات محشوة حشيشاً يابساً منتناً كريه الرائحة . وبالقرب من الشبابيك برك مياه تجمعت من ذوبان الثلج . ساقوا الاولاد الى الحمام في الربيع مرة واحدة فقط ، وانقطعوا من ثم عن تغسيلهم . وليس في الملجأ حنفية . وكل يوم في الساعة السابعة صباحاً ، وفي البرد القارس ، يتراكض الاولاد عارين في الطريق ليغتسلوا بالحنفيات العمومية . »

ومن هم المعلمون في تلك المعاهد ؟ منهم المعلم هكيموف وقد طُرد من وظيفته لما اثبت عليه من الجنايات المخالفة للآداب ... وادت الحالة التعيسة ببعض البنات الى الانتحار للتخلص من الحمل والولادة ! ومنهم استاذ آخر ! هو سيدر الشيوعي الذي لا ينفك عن الضرب وهو يكتسي ويكسي عائلته بالاقمشة التي ارسلها المحسنون للاولاد . اما هؤلاء المساكين فليس عليهم الّا لباس الكتان في قلب الشتاء ، ولا بدلة لهم ، ولا احذية ، وهم في حاجة الى من يعلمهم النظافة ويعتني بهم . وقد اصبحت دور المنامة والاقامة في الملاجئ اشبه بالمراحيض .

وهذه الحالة على تعاستها تتفاقم يوماً فيوماً، لان السوفيات عاجزون عن مواصلة اسعاف الاولاد المتروكين. كان عدد اللاجئين منهم الى دور الحكومة ٥٤٠,٠٠٠ سنة ١٩٢١. ثم صار ٢٥٢,٣١٧ عام ١٩٢٣، الى ان بلغ ٢٠٠,٠٠٠ عام ١٩٢٧، فتقلص ظلهم في الملاجئ، لا عن قلة عددهم في البلاد وهم فيها ملايين كما بيناً سابقاً، ولكن لانهم لم يستطيعوا الصبر على مصاعب ملاجئ الحكومة. فمن هذه الادلة كفاية للشهادة على النظام السوفياتي الحالي بانه عاجز عن مداواة الداء، وايواء الاولاد المتروكين وتزويدهم بما يحتاجون اليه من العناية في سبيل تربيتهم نفساً وجسداً.

وفي كلامنا حجة دامغة على ان الذين نقضوا نظام العائلة، وهددوا سلطة الابوين وشككوا الصغار، استمطروا على نفوسهم لعنة المسيح ومقت البشر.

ولعلك تهز رأسك، ايها القارئ اللبيب، وتقول: لقد حلت في بلادنا الشرقية كوارث عدة، اماً البلشفية فنحن آمنون شرها والحمد لله!

ولكن هل خطر على بالك أن للبلشفية يداً عاملة في الشرق، وان لها فيه جيشاً لا يستهان بعدده. في العام ١٩٢١ احصوا عدد الجيش الشيوعي الدولي فكان في مصافه ١٥٠٠ من سكان مصر، و ٥٠٠ من سكان فلسطين، و ٢٠٠٠ من اهل العجم، و ٥٠٠٠ من غيرهم.

ونشرت الصحف في حينها[1] اخبار علاقات الثوار السوريين مع الشيوعيين الافرنسيين المتفقين مع موسكو على احداث الثورة البشرية العامة. واكد لنا الخبراء[2] ان البلشفية هي المناصرة لكل عناصر الاضطراب في الشرق، والمعادية لروح الانتدابات كافةً، لا طمعاً بان تكتسب للبلاد الشرقية استقلالها ولكن لتسقطها في وهدة الفوضى كما نشاهد الامر في افغانستان. فيصير الشرقيون بين يديها آلة هائلة تنفخ نيران الحروب على العالم. فليس اذن خطر البلشفية بعيداً عنا، كما انه ليس بعيداً عن سائر العالم. ولذلك دعانا الاب الاقدس في رسالة الصلاة، في شهر آذار، الى الابتهال طالبين من الله عز وجل ان يكسر شوكة الشيوعيين الملحدين ويعطي العالم الامن والسلام.

١) المشرق ١٩٢٩ ص: ٦٦ ٢) P. Gautherot, *le monde communiste*. Paris, 1925

الحياة النسكية في لبنان

محاضرة القاها

في نادي الشبيبة الكاثوليكية

الخوري بطرس غالب

ان من اعجب مظاهر الحياة الكاثوليكية في هذه البلاد الحياة النسكية. ولكن لا سبيل الى ان ندرك بعض الادراك ما كان عليه من البطولة الزهّاد الذين انتحلوها فجنّوا بمحبة الصليب، وساروا شوطاً بعيداً في طريق الكمال الانجيلي ألّا بتفرسنا بمحيّاهم الوضّاح الساطع بنور التضحيات اليومية، والتجرّد التام، والانقطاع الكامل عن العالم، وحرمان الذات ما جاز التمتع به من خيرات هذه الدنيا. لذا قد انتقيت ثلاثة حبساء عاشوا في ثلاثة اعصر مختلفة، كانوا فيها مثالاً حيّاً للحياة النسكية، يرمون الى اماني واحدة وغاية واحدة، وان تنوّعت الطرق التي سلكوها بلوغاً اليها.

كانت حياتهم الباطنة تنيرها نعمة خاصة تشفّ عنها اعمالهم اليومية؛ ورغم عراكهم الشديد المتواصل ضد عدوّ خلاصهم، كنت ترى الفرح مشرقاً على وجوههم. فكان اولئك الغاصبون الشديدو المراس الذين توخّوا فتح ملكوت السماوات من اودع الناس، والطفهم معشراً؛ وكان لجنونهم من الجاذبية ما جمع حولهم مئات التلاميذ.

١

احد اولئك الثلاثة مارون الناسك الذي تُعيّد له الكنيسة المارونية في ٩ شباط. فانه قد بلغ في حياته مبلغاً من البسالة اهّله لان يكون اباً للحياة النسكية في بلاد قورش، ثم في لبنان الكبير، بواسطة تلاميذه؛ ومؤسساً لطائفة ما انفكت امينة لصليب يسوع، ومخصبة بالنسّاك والحبساء.

عاش مارون خارج الحدود اللبنانية ، لكن مثله وشهرته جلبا الزائرين من البلدان المجاورة ، فرجع عدد غفير منهم معطرًا بأريج قداسته ، ومعتمرًا بما رآه من اعمال الزهد ، وصرف بعضهم شطرًا من حياتهم بجانبه ، ثم انحازوا الى الجوار فاعتزلوا في رؤوس الجبال او في المغاور ، ناسجين على منواله في التقشف وشظف العيش.

الى هؤلاء التلاميذ اشار تودوريطس ، اسقف قورش ، حين ذكر ، في تاريخ الحبساء الذي ألفه ، بستان القداسة الشهي بثماره اللذيذة الذي غرسه مارون في نواحي قورش. اختار هذا الحبيس العظيم معتزلًا على قمة جبل في هيكل كان في القديم مكرساً لعبادة الشياطين ، وربما كان مؤسسوه من اجداد اليزيدية . فبنى له كوخاً كان يأوي اليه احياناً من العواصف والامطار. وانقطع الى التأمل وممارسة الاماتات المدهشة . فقص اولًا شعره — لان الحبساء يبتدئون بقص الشعر ثم يرسلونه ولا يقصونه فيما بعد — ولبس المسح مكتفياً من الغذاء بالعشب ، ممتنعاً عن الثمار لا يشرب سوى الماء القراح . وكان يصرف وقته في الصلاة ويعاقب جسده اشد العقاب ساهرًا ليله لا يخصص للنوم من وقته الا ما كان ضرورياً للراحة . فلا تجده الّا غائصاً في لجة الصلاة العقلية ، او عاكفاً بلذة سماوية على تلاوة السواعي في مواقيتها ، او مكبًا على قراءة الاسفار الالهية.

على انه وان نفر على قمة الجبل ارادة ان يقطع كل علاقة تصله بالعالم ، ما لبث ان رأى محبسته اصبحت محطاً لرحال الزائرين . فان شهرة فضائله ، وعرف قداسته ، ذاعتا حتى في الاماكن القاصية ، فتقاطر اليه الناس من كل بلاد قورش وما جاورها : سقماء وخطأة ، وتعساء ، وراغبون في الكمال الانجيلي . فاخذ يتزايد عدد تلاميذه ، وقد ذكر تاودوريطس اشهرهم فضيلةً وتقشفاً ، فانهم ما اكتفوا بالتشبه بمعلمهم ، بل تفننوا في الاماتة مستنبطين طرق جديدة يذللون بها الطبيعة . فعلى انقاض المادة واجسادهم اقاموا بناء حياتهم الروحية في معزل عن ضوضاء العالم وبعيدًا عن جراثيمه القتالة.

ولا يخطر على قلب بشر ما اخترعوه ، لرغبتهم في التضحية ، من وسائل اماتة الشهوات . فانهم كانوا يصرفون حياتهم في الفضاء لا يرضون ان يحجب عن

ابصارهم السماء التي يتوقون اليها ستارٌ ولو سقفاً يقيهم البرد والحرّ.

وها انا ذاكرٌ لكم اسماء البعض من اولئك النساك القديسين تلاميذ القديس مارون.

فان منهم، على ما شهد لهم القديس مارون نفسه، من فاقوه زهداً في الدنيا، وصرامة على النفس، وتمكناً في القداسة، من مثل زابينا الذي التمس مارون بركته لفرط اجلاله اياه.

ولم يكن اقل منه بطولةً يعقوب الذي وصفه تاودوريطس بانه جدير بكل مديح. تقفّى اثر معلمه وازدان بجميع الفضائل. حبس نفسه في شقّ ضيّق واكبّ على الاماتة والصلاة، فلما كثر زائروه وخشي ان يشوشوا عليه نظام رياضاته الروحية اليومية، غادر مغارته واوغل في الجبل، فاقام في موضع بعيد يعيش فيه في الخلاء معرّضاً جسده الليل والنهار للتقلبات الجوية. وعلى بدنه مسح من شعر غليظ، وفي ساقيه قيود من حديد، يقتات بيسير من عدس مبلول. نيفاً وثماني وثلاثين سنة استمرّ على هذا العيش الذي يرعبنا مجرد ذكره، ويملأ انفسنا تعجباً.

امّا زميله ليماوس فحبس نفسه ايضاً في شقّ صخر لا يزيد على ان يسعه واقفاً على قدميه. ولا سقف من فوقه، ولا جُنّةَ تقيه الرياح والمطر وحرّ النهار. وكان الزوّار يأتونه من كل صوب وهو لا يملك صدّهم عنه. فصنع كوّةً صغيرة في حائط سجنه يحدّث منها طالبي نصحه وارشاده ومعونته. نزلت به علة بدنية فابى ان يخفف المها بعلاج. ولسعته افعى في جسمه، فصبر على شدة الاوجاع. واولد عنده ازدياد الالم والضنك ازدياد السرور.

وجعل عدد الاعلاء اللاجئين اليه يتزايد، فانشأ مأوى للعميان وذوي العاهات والمعوزين والغرباء ممن يأتون الجبل اجتناء اثمار عنايته. وكان يهيئ نفقات المأوى مما تجود به رحمة المؤمنين، ويغتنمها فرصةً لبعث اولئك المساكين على تسبيح الله وتمجيد اسمه القدوس.

ان هؤلاء النساك الذين تتمثلهم كاناس نفروا من معاشرة بني جلدتهم، او كجنود انهزموا من ساحة معركة الحياة، ما كانوا قط يضيعون وقتهم او

يلتمسون الراحة بعيداً عن المعارك اليومية بل يعيشون عيشة الابطال المشفقين على الغريب . يهتمون بالابدان توسلاً الى نفع الارواح. ان القداسة تطمح بفتح القلوب ، ولها الجرأة والاقدام لتوكلها على الله . فقبل ان توجد «مؤسسات الاسعاف العام» جعل النساك المنفردون على قمم الجبال وفي بطون الاودية يجلبون الاعانات الى الاعلاء والغرباء ، مذكّرين المسيحيين بما يجب عليهم من التعاون على الحياة.

اما يوحنا السائح فحبس نفسه في كهفٍ مدة خمسة وتسعين يوماً. ثم خرج الى جبلٍ اقام على ذروته خمساً وعشرين سنة ، هدفاً لتقلبات الفصول ، قوته الخبز والملح ، وكسوته مسح من شعر المعز تجمعها معاً صفائح ثقيلة من حديد. تحنن عليه صديقٌ فغرس لوزةً بالقرب من موضع كان الحبيس يأخذ فيه يسيراً من الراحة ، فلما كبرت الشجرة قطعها الحبيس ليبعد عن خاطره كل تجربة قد تطرأ عليه للتمتع بالظلّ او بثمر اللوز.

اما الناسكان انطيوخوس وانطونيوس فليست سيرتهما اقل غرابة . فان الاول بنى حائطاً في وسط صخر . والآخر انفرد على ذروة جبل عالٍ . وكان كلٌّ منهما يصرف نهاره منتصباً على قدميه ، يتأمل ، ويميت شهواته ، ويكبد جسده عذاب الجوع والعطش . ولم يكن وقر السنين ، ولا وهن ابدانهما بصرامة النسك الهائل ، ليفتّا من عزمها الذي تعضده نعمة الله.

وكان اكثر اولئك النساك يدفعون النعاس بمثل الوسيلة الآتية وهي انهم كانوا يحملون على اكتافهم خشبة ثقيلة فاذا اثقل النعاس اجفانهم لشدة التعب وطول السهر تسقط الخشبة الى الارض فيهرب النعاس من صوت وقعتها.

ومتى اصبحت اجسامهم المنهكة غير قادرة على اطفاء ما بهم من ظماء الى التضحية كان المسيح المصلوب الذي اوحى اليهم ذلك العيش الغريبُ يدعوهم الى ملكوته ليكللهم بمجد القديسين.

وماذا نقول في النساك العموديين الذين اختاروا ان يعيشوا عيشة غريبة الصرامة ، فصرف بعضهم العمر على رأس عمودٍ ، والبعض الآخر في تجويف شجرة او على افنانها ؟ انعدّهم من ذوي الحماقة والتطرّف ، كما عدّهم من قبل

بعض اساقفة انطاكية وروساء كهنتها ؟ ما ابله الحكمة البشرية التي تقيس على قامتها اولئك النساك جبابرة الحياة الروحية ! ان الله ما لبث ان صنع العجائب على ايدي هؤلاء العموديين وسكان الشجر ، واعلن فضائلهم السامية كي يراها اشد الناس عناداً ويعلموا ان تلك السيرة تروقه عزّ وجل . وانه اذا لم يكن الجميع مدعوّين اليها ، فعليهم ان ينظروا اليها بعين التعجب والاستحسان ويعرفوا ان الروح القدس قد اوحى بها .

وقد يخطر ببال بعض المتشدقين ان يتهموا اولئك النساك بشدة التروع الى الاستقلال . غير ان التجربة كانت تريهم انهم كانوا من اشدّ ابناء الكنيسة طاعةً وخضوعاً . فانهم لدى اول اشارة تبدو من رئيسهم الشرعي ، كانوا يتركون منسكهم وعمودهم وشجرتهم ، ويقبلون بطيب نفس الى ما يصرفهم اليه الاساقفة من وعظ او مجادلة لاهوتية او صنع اعجوبة تأمرهم الطاعة باجتراحها

ولا يقم في وهمكم ان اولئك الحبساء كانوا جهالاً ، بل انهم كانوا مولعين بالدرس مستمرّين على طلب العلم . فالتأمل مقروناً بالصلاة وبنعمة الله كان يكشف لهم عن اسرار الاسفار المقدسة .

وكانوا مرسلين يهبط عدد كبير منهم الى ابواب لبنان وينسلّ في هذا البلد عن طريق عكار ولبنان الشمالي ، ومنهم القديس سمعان العامودي الذي يُروى عنه انه زار الجبة .

وقد اوردت[1] القصّة التي جاء فيها ان هذا العمودي العظيم قد انتهى حتى الى بشراي بدعوة من سكان ذلك الاقليم وكانوا لا يزالون على عبادة الاوثان . وذلك ان وحوشاً ضارية كانت تعيث فساداً في بلدهم ففزعوا الى الناسك القديس ، فامرهم ان ينصبوا على تخوم ارضهم حجارة ينقشون فيها صلباناً . فلما فعلوا ذلك توارت الضواري والزحافات المؤذية .

ونما عدد النساك في لبنان لان كل ما في لبنان ، ولاسيما الوادي المقدس (قديشا) ، يدعو الى التأمل وتسبيح الخالق القدير : جمال الوادي ، زمجرة المياه تجري متدافعة الى البحر ، صفير الرياح يتغلغل في المنعطفات ، الصخور الشاهقة التي

---

١) المشرق ٢٦ [١٩٢٨] ٣٦٣

تتألف منها اسوار ذلك المعقل معقل الحياة النسكية وقد فرّقت يد الطبيعة الاشجار في اخاديدها ، اريج الارز المحيي تحمله نسمات السحر والاصيل وتعطّر به ارجاء النهر المقدس ، السماء تارة صافية تتوقد فيها مصابيح النجوم وتارة مكفهرة متلبدة بالغيوم الحبالى بالصواعق والعواصف ، زقزقة العصافير ما بين الورق والرنم والازهار الحقلية . تلك قدرة الخالق تتجلى في كتاب الطبيعة الكبير . والحبساء يدرسون ذلك الكتاب وينعمون النظر فيه . كل شيء يتعرى في نظرهم من ثوب المادة الثقيل لانهم اذ آثروا الفلسفة الالهية ، هدموا بكل سرعة ودون تردد الحاجز الكثيف الذي اقامته الهيولى بينهم وبين الروح . فهؤلاء الناس عليهم مسحة المسكنة والذل لكنهم من اعظم الحكماء ومن اكابر ابطال الروح .

وهذا سرّ الجاذب الذي كان يُميلُ اليهم الناس حتى اشدهم تعلقاً بالمادة ، ويذكرهم ان لهم نفساً كما للنساك وان تلك النفس مخلوقة لغاية سامية .

تغلّب فيهم الروح على المادة فجعلهم رسلاً تجلى عملهم الرسولي في اربعة اقطار المسكونة ، وفي كل الازمنة .

٢

اما المثال الثاني للسيرة النسكية في لبنان فيقدمه لنا القرن السادس عشر . ان هذا الحبيس هو ايضاً من تلاميذ القديس مارون . ويدعى يونان المتريتي نسبة الى متريت مسقط رأسه وهي قرية في لبنان الشمالي .

حارب اللحم والدم مدة خمسين سنة ، فاحرزت نفسه بابلائها في قتال الجسد اكليل المجاهدين الابطال .

لم يكن يأكل الا مرّة في اليومين . وكان طعامه شيئاً من الحبوب المسلوقة بالماء . امّا في الصوم الاربعيني فما كان يذوق غذاء الّا يومي السبت والاحد ، ويمتدّ صومهُ من العنصرة الى الميلاد ومن عيد الدنح الى الفصح . وكان تصرفه مطابقاً لروح الكنيسة حتى في اماتاته وتقشفاته . ولم يكن يشرب الماء الا يوم السبت ولا يشربه الا صرفاً ، وان كانت المحابس لا تخلو من جيّد الخمر . وكان في سبّة الآلام يسجد اربعاً وعشرين الف سجدة . وفي سائر ايام الصوم يركع حتى يجري عرقُه . ولا تجهلون ان العرق لا يجري بسهولة من

جسم هزله السهر والصوم واشغال الحقل الشاقــة . وكان في تلك الركعات ، المعروفة عند النساك والرهبان بالمطانيات ، يرتل المزمور المئة والثامن والاربعين وما يليه ، وتسبحة الفتيان الثلاثة في الاتون.

يا له تغييراً بديعـاً لهذه التسابيح المرتلة تكريماً للخالق تنطق به بلسان حالها طبيعة تلك الاودية والجبال المقفرة وتلك السماء المشرقة ثم القاتمة :

« سبحوا الرب من السماوات ! سبحوهُ في الاعـالي ! سبحيه يا سماء السماوات ، ويا ايتها المياه التي فوق السماوات ! سبحي الرب من الارض ايتها التنانين وجميع الغمار ! النار والبرد ، الثلج والضباب ، الريح العاصفة الممضيــة كلمته . الجبال وجميع التلال . الشجر المثمر وجميع الارز . الوحوش وجميع البهائم . الدبابات والطيور ذات الاجنحة ، فان اسمه وحده عالٍ ، وجلاله فوق الارض والسماوات !

« باركي الرب يا جميع اعمال الرب ، ايتها السماوات والمياه وكل ما فوق السماوات ! باركي الرب يا قوات الرب ! ايها الشمس والقمر ، يا نجـومَ السماء وجميع الامطار والانداء ، ايتها الارواح التي يقيّدها الرب ، ايتها النار والحرُّ ، ايها البردُ والجليد ، ايها الصقيع والثلج ، ايها الليل والنهار ، ايها النور والظلمة ، ايتها البروق والسُحب ، ايتها الجبال والتـلال انبتة الارض ، ايتها الينابيع والبحار والانهار ، الحيتان وطيور السماء ، الوحوش والبهائم ، القطعان وبني البشر ، كهنة الرب وعبيده ، ارواح ونفوس الصديقين ، ايهـا القديسون والمتواضعو القلوب ، سبحوا الرب وباركوه ومجدوه ! »

ينشد الحبيس هذه الآيات وفي ختام كلٍ منها يركع مطانية ، وهو يقول: ولك يليق المجد يا الله !

وكان يونان على سيرتــهِ الصارمة وقسوته على نفسه محلّى برحمة وحنوّ لا نظير لهما وقد عالج ان يكتب سيرته تلميذه جبرايل الاهدني . لكنه ما شرع يخطّ حياة معلمه حتى ثبت عجزه فطرح القلم من يده ، مكتفياً بكتابة ما يلي معتذراً قال : « ها اني انا الحقير ارمي القلم من يدي الخاطئة لئــلا يقولَ القارئ كيف ان هذه الشجرة المثمرة اخرجت هذه الثمرة الفجة المرة . » عن

بالشجرة المثمرة يونان وبالثمرة المرة تلميذه.

وعزّز الرب قداسة يونان بموهبة صنع الآيات، فكان مرةً ان نفد الزيت من المحبسة فصلّى الحبيس فامتلأت الخابية وطفحت، فاستولت الدهشة على تلميذه وصار لا يدري ما يفتكر. فالتفت اليه معلمهُ وقال: مجد ربنا يسوع المسيح، وانظر الى عجائبه على يد احقر عبيده. واوصاهُ ألّا يخبر احدًا بذلك قبل ان يتوفاهُ الله.

ولما احسّ رجل الله بدنوّ اجله وانعتاقه من قيود هذه الحياة الفانية، ارسل الى بطريركه يطلب بركته، فجاء البطريرك نفسهُ وشهد ساعة وفاته. فلما خرجت نفسه طائرة الى السماء، بدرت الجموع الى المحبسة يلتمسون بركة من كانوا يكرمونه كوليّ ويطلبون شفاعته.

وللحبيس يونان تلاميذ كثيرون. منهم يوحنا اللحفدي الذي خدم، وهو مريض وناحل البدن، معلمه القديس مدّة اربع عشرة سنة. وكان في اسبوع الآلام يركع ستًا وعشرين الف ركعة. وقد ظهر له معلمه المتوفى وعزّاهُ ودعاهُ الى وليمة الحمَل.

ومنهم جبرايل الاهدني. وهذا تراءى له معلمه يونان وامرهُ ان ينشر صخرةً كانت تعوقه عن توسيع كنيسة دير قزحيا. فنفّذ جبرايل امر معلمه وبحسب رغبته اليه بنى في الكنيسة ثلاثة مذابح احدها على اسم السيدة العذراء، والثاني على اسم القديس انطونيوس، والثالث على اسم القديس مكاريوس. وجاء في التاريخ: «ان الحبيس العظيم جبرائيل كان رجلًا متقشفًا جدًا يركع الف ركعة في اليوم ولا يذوق الماء مطلقًا من ابتداء الصوم الى خميس الاسرار. ومع كل هذه الاتعاب والتقشفات والصلوات العقلية المستطيلة لم ينقطع عن نسخ الكتب البيعية حتى ملأ جبل لبنان كتبًا من خطه الجميل.»

لم يكن هذا النسخ بالعمل الهيّن. فان الناسخ مع ما كان يكابده من القعود القرفصاء ساعات عديدة، ومن ضبط العقل الضروري لنسخ الكتب الطقسية من وجه الدقة المطلوبة. كان يلذه ان يتلو مرارًا في اليوم المزامير وميامر آباء الكنيسة تكريمًا للجلال الالهي، وللعذراء القديسة، والشهداء القديسين

ويظهر ان شهرة قداسة هؤلاء الحبساء قد بلغت الى الغرب بدليل ان فرنسوا دي شسطويل وافى لبنان واقام في تلك المحابس اثنتي عشرة سنة مكبًّا على درس الكتاب المقدس بلغته الافرنسية . وعاكفاً على الصلاة العقلية وانواع الاماتات الجسمية المختلفة ، وكان صديقاً للبطريرك العلامة جرجس عميره الذي استاهل بتقواه وعلمه ان يلقبه البابا بلقب « نور في كنيسة المشرق ».

ومغارة حوقا القائمة كوكر النسر تجاه قزحيا لا يزال يفوح منها عطر فضائل ذلك الرجل الذي جاءت مشوراته الحكيمة باعظم فائدة للطائفة المارونية في ايامها العصيبة . كما ان محبستي القديسين يعقوب وسركيس في اهدن ما برحتا تحفظان الى اليوم ذكرى ذلك الحبيس الافرنسي ، الذي تقفى سيرته النسكية اربعة آخرون من بني جلدته انقطعوا الى الله في مناسك لبنان .

وبين حبساء قديشا كان يُنتخب بطاركة الطائفة المارونية واساقفتها . ولم يزل البطاركة والاساقفة الى ايامنا هذه يغطون رؤوسهم بالاسكيم (غطاء رأس الراهب) تذكيرًا للاساقفة انهم حين يقبلون كمال الكهنوت ، يلتزمون سيرة النسك والاماتة على مثال الحبساء الذين اوجدوا الطائفة المارونية .

وكان عدد الحبساء يزداد مع السنين وتكثر المحابس بازديادهم فاقتضى ذلك انشاء زيارة وادارة عامة ، لما يترتب عليها من توفر المنافع وحسن النظام وكان الحبساء اول من شعر بتلك الحاجة . فاقاموا منهم واحدا سموه رئيس المحابس وعهدوا اليه بالسهر على القانون والتهذيب . وكانوا يقلدون هذه الرئاسة رجالًا امتازوا بالقداسة ، او جمعوا بين القداسة والعلم كرئيس اساقفة دمشق سركيس الرزي تلميذ مدرسة رومية المارونية الذي أُخذ من المحبسة وأُكره على قبول مطرانية دمشق . وهذا امر يندر حدوثه ، ثم استدعي الى رومية لترؤس اللجنة التي الفها الحبر الاعظم لاعادة النظر في ترجمة الكتاب المقدس .

(للبحث صلة)

دولة العلويين

بقلم الاب لامنس اليسوعي

لا نخال احدًا ينسبنا الى المبالغة اذا قلنا ان كثيرًا من اللبنانيين والسوريين يعرفون بلاد اميركة واوسترالية اكثر مما يعرفون بعض مقاطعات من بلادهم وكم من اللبنانيين لا يلمّون ، او يلمّون بطريقة سطحية ، بتاريخ الدولة التي تحدّ لبنانهم من الشمال ! وكم منهم يعرفون حالتها الحاضرة بالتفصيل ! ليس من الصعب ان نعدّ على الاصابع الذين زاروا تلك البلاد ، وشاهدوا كل ما امتازت به من كنوز الآثار الرائعة ، ومظاهر التقدّم الاقتصادي السريع . حتى اصبحت تلك الدولة ، بفضل الحكم الفرنساوي ، ارض اختبار تستفيد منه بلدان الشرق الادنى عامة ، ولبناننا خاصّة . أوَليس من الغريب ان يأتي الاجانب من البلاد القاصية فيزوروا آثار العلويين بينا نحن ، على مقربة من تلك الآثار ، نقلّد بعض سكان القاهرة الذين يحيون ويموتون ولا يرون الاهرام الّا من سطوح دورهم !

ان عدم المبالاة بما حولنا من الآثار قد كان له ما يجيزه قبل الحرب . اذ لم يكن من السهل ان يسافر الانسان في بلاد العلويين ، وقد تركها الحكم التركي في مؤخرة مقاطعات سورية مدنيّةً وعمرانًا ، حتى كان الجائل فيها يرى انها لم تتقدم قيد شبر عمّا كانت عليه في القرون الوسطى ، ويلمس من ثمّ ما كان يُفسد حكم الاتراك من المبادئ المقرَّرة لدى الباب العالي وهي ان الشعوب الجاهلة اسلس قيادًا ، واسرع خضوعاً لحاكميهم . هذا فضلًا عن رغبة حكام الامس في تذليل العلويين وعقابهم على انهم لم يتحمّسوا للنظام التركي . فلم

يكن من طرق في بلادهم سوى بعض المجازات ، اذا استثنينا طريق المركبات الواصلة بين طرطوس واللاذقية ، على شاطئ البحر . اما الامن فكان أبعد من ان يبلغ المبتغى . ولهذا فلم يكن يجسر على المجازفة بدخول تلك البلاد إلّا بعض اصحاب الجرأة من علماء الآثار القديمة ، على الرغم مما كان يبذله الاهلون من حسن الضيافة التي تحققناها مرارًا اثناء رحلاتنا من ١٨٩٩ الى ١٩٠٤

اما في ايامنا فقد انقلبت تماماً هيئة تلك البلاد . اصبحت الطرقات تخطط نواحيها فتجري عليها السيارات اي ساعة شئت ، وفي اي فصل من السنة اردت . وعلى الكثير من الطرق المعالم الدالّة على الجهة والبعد . اما اشهرها فطريق اللاذقية - حلب وهي تجتاز النهر الكبير على جسر من البتون المقوّى يشتمل على قنطرتين سعة كل منها اربعون مترًا . وغدت الكهرباء تنير عاصمة البلاد ، مدينة اللاذقية ، وغيرها من المدن المهمّة كجبلة وصافيتا . وكذلك توزّعت مراكز البريد والبرق وشعبها في جميع اطراف الدولة . وأنشئ للتلفون ايضاً مراكز في المحالّ المهمّة . وقد لا يكون في شرقنا بلدٌ اسرع فيه التقدّم إسراعه في بلاد العلويين . فان جميع الذين زاروا مؤخرًا هذه الدولة الفتيّة ، رجعوا مأخوذين بتلك الخطوة في سبيل النجاح التي خطتها في بضع سنوات . وان النتائج الحسنة الحاصلة في زراعة القطن التي بلغت قيمتها خمسة اضعاف في مدة سنة ، واتساع دائرة الاعتماد الزراعي ، واعمال الريّ التي يخصص لها كل فائضات الموازنة ، وتوسيع مرفأ اللاذقية ، وسائر مشاريع تنظيم المقاطعات والتحسين البلدي ، الخ . كل ذلك يبشر بخير مستقبل لتلك الدولة ، ويشهد بفضل الحكومة التي تديرها ، فتخلّصها من العقبات المتعدّدة التي يوفّرها في غيرها من البلاد تدخّل الاهلين بالسياسة ، وتسير بها في سبيل العمل الجدّي المنتج الى محجّة الرفاهية والهناء . فيا لسعادة العلويين اذ لا مجلس لهم ولا نوّاب يعرقلون الامور ! ويا لسعادة دولة تخصص نصف موازنتها للشؤون الاقتصادية ، وللاشغال العامة ، اذ ليس عليها ان تعول جيشاً من عقماء الموظفين !

كثيرًا ما سمعنا الذين زاروا اللاذقية قبيل الحرب يقولون انها مدينة قذرة حقيرة . وهكذا رأيناها سنة ١٩٠٤ . اما اليوم فقد اصبح فيها حيّ اوربي

تخترقه وتحيط به الشوارع المنتظمة بين الميناء والمدينة القديمة . وهي مُنارة بالاضواء الكهربائية ، وقد وُزّعت في بيوتها المياه الصالحة للشرب ، وجُعلت لها المجاري على طريقة عصرية ، وفُتحت فيها الشوارع الواسعة تتصل بالبحر ، واعتني بحديقتها العمومية . حتى اصبحت تظهر بمظهر المدينة اللطيفة الجميلة ، فتحسدها على اشياء عديدة عاصمة جمهوريتنا . واننا نتحقق هذا الجمال اذا قابلنا لاذقية اليوم بما كانت عليه قبل خمس وعشرين سنة ، حين زرناها فاذا بها خالية من الحياة والحركة ، واذا بمرفأها الصغير مقفر الّا من بعض القوارب . وقد سرّنا اليوم ان حكومتها تفكر بتوسيع المرفأ وببناء صقالة تبلغ المائتي متر طولًا .

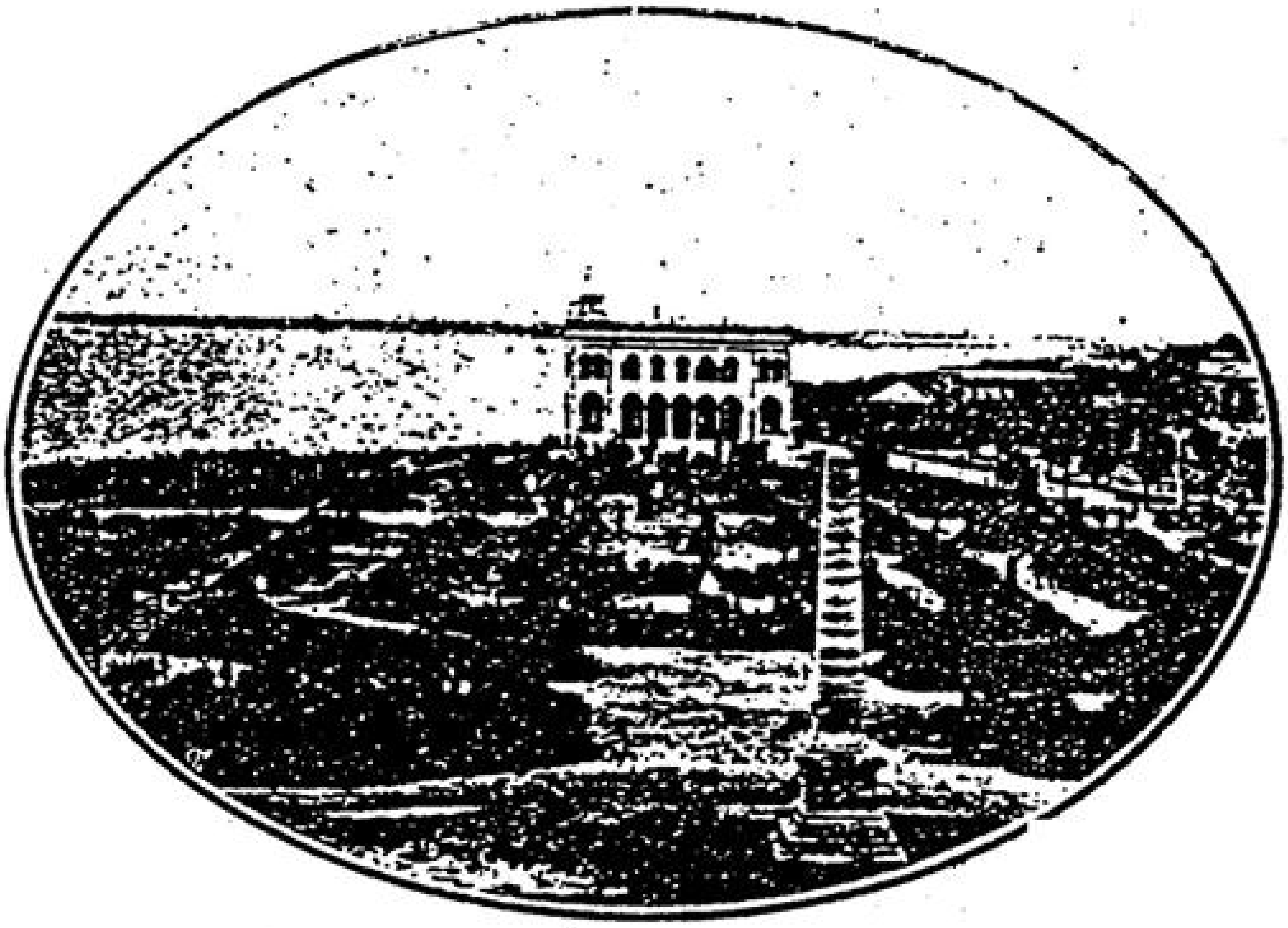

اللاذقية : الحديقة العمومية ، ومركز السياحة

(تصوير جاكو)

لا يخفى ان مستقبل بلاد العلويين يستند الى الزراعة ويزدهر بازدهارها . ولهذا صرفت حكومتها كلّ اهتمامها في هذا السبيل فتقدّمت زراعتها تقدُّماً محسوساً . فزاد عدد مغروسات التوت ١٠٠,٠٠٠ نصبة ، ومغروسات الزيتون ٦٠,٠٠٠ في سنة واحدة . ولم يكن يُزرع ، في سنة ١٩٢٠ ، سوى نوع واحد من القطن من الصنف الدون ذي الالياف القصيرة ، ولم تكن تتجاوز

مساحة الارض المزروعة الـ ١٠٠ هكتار . اما اليوم فقد استبدل بذاك الصنف انواع جيدة من القطن الاميركي والمصري وزادت مساحة ارضه حتى بلغت ٣٠٠٠ هكتار ، وهو يُزرع خاصة في سهول جبلة واللاذقية . وفي كل من هاتين المدينتين معامل للحلج . ولا تفتأ الحكومة تنشط الزراعة ، فتعفي بعض المزروعات من الضرائب ، وتشتري البذار الصالح فتعين به المزارعين . وتعمل على تحريج الارض الجرداء ، بينا نحن نكتفي بالكلام في الموضوع ، وقد عيّنت ١٧ موظفاً للسهر على اعمال التحريج والمحافظة على الغابات التي مساحتها ٧٠,٠٠٠ هكتار . اما كنوز البلاد المعدنية فاهمها معادن الاسفلت الموجودة قرب طريق اللاذقية - حلب ، على نحو اربعين كيلومترًا من اللاذقية . وقد نالت احدى الشركات حق الامتياز باستخراج هذا المعدن

هذا ومن شاء من قرائنا الكرام زيادة ايضاح عن دولة العلويين ، عليه بكتاب جميل قيّم خصّه بتلك البلاد حضرة الليوتنان الكولونيل پول جاكو[1] ، قائد عساكر تلك الدولة سابقاً . فجمع فيه عدداً مهماً من المستندات عن هذه البلاد المجهولة ، واخرج منها تاليفاً شيّقاً فيه كل ما يُعرف عنها من حيث الجغرافية ، والتاريخ ، والآثار . واضاف اليه نتائج ملاحظاته واختباراته ، مزيّنة بسلسلة من بيانات الرحلات غاية في الدقة والضبط . فوفر بذلك اللذة للسائح الغريب ، والفائدة لرجل العمل . وبينا كنا نقرأ هذه الصفحات الملأى بالاعجاب ، كنّا نراجع في فكرتنا منظر المشاهد الخلّابة التي متعنا العين بها منذ ربع قرن يومَ لم تكن الارض تعرف اساليب النقل العصرية . اما اليوم فان السيارة تتكفل بايصال المسافر الى جميع ما يهمّه منظره من الآثار . وقد شاقتنا تلك الذكريات بواسطة هذا الدليل الامين ، فاستقينا من كتابه اهم موادّ هذا المقال ، وقد تفضّل واتحفنا برسومه الجميلة

ذكرنا ان اهم ما يستجلب الزوّار الى تلك البلاد ، ما فيها من آثار قديمة يجلّلها الزمان بغباره . واطرف ما في تلك الآثار جزيرة رواد العجيبة التي

[1] Lieutenant Colonel Paul Jacquot, *l'État des Alaouites, terre d'art, de souvenirs et de mystère; guide touristique. Beyrouth, Imprimerie catholique*, 1929, XVII-291.

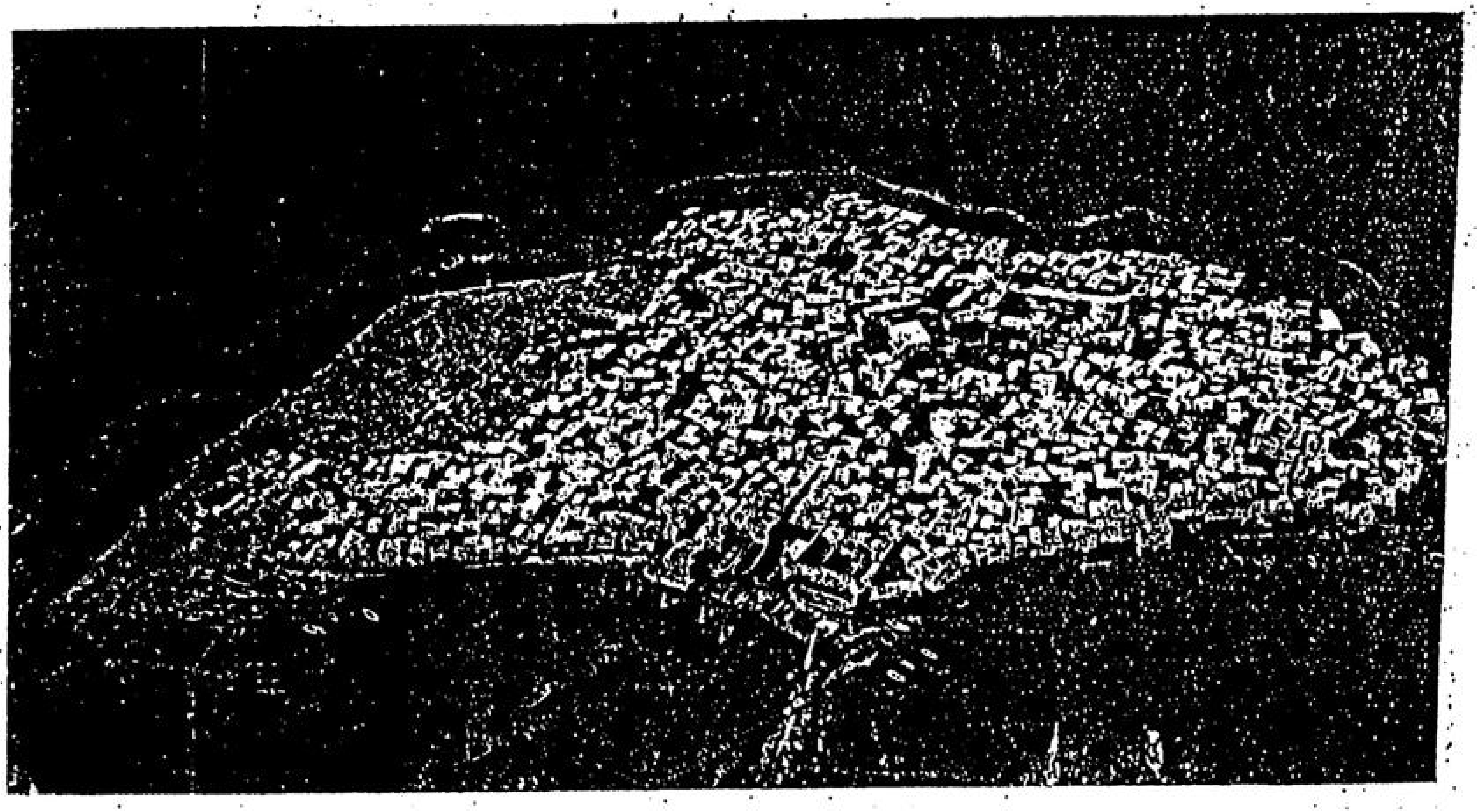

جزيرة زواد

منظر مأخوذ من طيارة (Photo. 39° Aviation)

يمكننا اعتبارها بجملتها اثرًا عاديًا ، يتغلغل تاريخها في اقدم الازمنة ، ويظهر اسمها في اوليات فصول سفر التكوين (١٠ : ١٨) . وهي اشبه بصخرة كبيرة في البحر منها بجزيرة ، فلا تزيد مساحتها عن ٨٠٠ متر طولًا بـ ٥٠٠ عرضاً ؛ ولا يتجاوز عدد سكانها ٢٧٣٠ وكلهم من المسلمين السنيين . على ان تلك الصخرة ظلّت ، قرونًا عديدة ، مركز امبراطورية عريقة في القدم ازدهرت في الالف الثالث قبل المسيح ، فوطّدت سلطانها على جميع فنيقية الشمالية ، وانشأت مدن الشاطئ من طرابلس الى مصبّ العاصي ، وبسطت نفوذها حتى سورية الداخلية ووادي الفرات ، وحاربت اعظم الامبراطوريات القديمة كبابل ، واشور ، وفارس ، فكانت كثيرًا ما تنتصر عليها بفضل مركزها في وسط البحر . فكان تاريخها ، مع تاريخ صور وصيدا ، من امجد تواريخ المدن السورية ، واوفرها حوادث . وفي ايام الحرب ، احتلّها القومندان ترابو ، فجعلها مركز اعاشة للبنان ؛ فحفظ بمساعدة البحارة الفرنسويين حياة الالوف من ابناء الوطن . فخلّد في لبنان ذكرًا يحفّه الشكر وعرفان الجميل .

واذا قطع المسافر المضيق الصغير الذي يفصل جزيرة رواد عن الشاطئ ، يصل الى مدينة طرطوس ، وفيها كنيسة تُعدّ من اجمل البيع الصليبية يبلغ طولها ٤٠ مترًا بعرض ٢٧ . وهي مبنية على اسم السيدة . زارها جوانفيل وذكرها في مذكراته التي نشر «المشرق» مؤخرًا شيئاً منها[1] .

وفي داخلية البلاد ، على منتصف الطريق بين صافيتا ومَصياف ، في وسط جبل يكاد يكون مقفرًا ، قام هيكل بايتوسه الذي تسميه العامة « حصن سليمان » . [2] وهو اعظم هيكل في سورية بعد بعلبك . ولو لم تكن أثّرت فينا ضخامة هذه الآثار الاخيرة فحرمتنا الاعجاب بكل ما هو دونها ، لكان لحصن سليمان تأثير شديد علينا . وهو يشتمل على حرم مقدّس طوله ١٤٤ مترًا بعرض ٩٠ مترًا . بُني بحجارة يتراوح طول الواحد منها بين الستة والتسعة الامتار بعلوّ ثلاثة امتار . وقد زرناه سنة ١٨٩٩ . وهو ، في الحالة

١) راجع المشرق (٢٧ [١٩٢٩] : ١٦٦ و ٢٦٣) ٢) وقد جعلنا فيه احدى مشاهد روايتنا التاريخية « حبيس بحيرة قَدَس » (ص ٢٣ من الطبعة الثانية)

التي يظهر بها اليوم ،لا يرقى الى ابعد من القرن الاول بعد المسيح ، لكنه بُني على آثار هيكل قديم جداً كان يحج اليه اهل رواد فيعبدون فيه احد آلهة الجبل.

ولا يتصورنّ القارئ الكريم ان ليس في بلاد العلويين سوى العاديات الوثنية القديمة ، فان هناك ايضاً مجموعة بديعة من الحصون المبنية في القرون الوسطى ، كحصون صافيتا ، والمرقب ، وصهيون [1] ، وقدموس ، ومصياف . على ان اشهرها هو ، دون شك ، حصن الاكراد الذي دُعي بحق حلية الهندسة الحربية في القرون الوسطى . وهو على نحو عشرين كيلومتراً من تل كلخ ، يُشرف على طريق طرابلس - حمص في وادي النهر الكبير الفاصل بين دولة العلويين والجمهورية اللبنانية . كانت تلك الطريق في العصور القديمة مجازاً لجيوش الغزاة ؛ فلزمها ان تراقب ، ولزم تلك النقطة ان تحصّن دائماً . اما الحصن المذكور بهيئته الحاضرة فيرقى الى عهد الصليبيين . وقد كان اوفر حظاً من سائر حصونهم ، فقوي على عمل الدهر حتى اصبح اليوم اظهر جدّة من جميعها ، كما انه اشهرها بتعدد طرق الدفاع التي جُمعت فيه ، وبانتخاب موادّ بنائه ، وبطرق هندسته وتزيينه . وقد نشر «مشرق» هذه السنة (ص ١٧٢) صورة اجمالية له مأخوذة من الطيّارة

كان هذا الحصن ، قبل سنة ١٨٦٠ ، لا يزال محفوظاً كما تركته آخر شرذمة من فرسان الصليبيين في ٨ نيسان ١٢٧١ ، وكما يظهر تقريباً في الرسم التركيبي الذي ننشره في الصفحة المقابلة. ولكن لم تمضِ سنة ١٨٦٠ حتى اخذ الاهالي يسكنون فيه ، فأنشأوا ضمن اسواره قريةً صغيرة كانت تتسع شيئاً فشيئاً فتعمر بيوتها بتخريب بناء الحصن. على ان الحكومة اهتمت بالامر ونشرت بياناً يعتبر الحصن اثراً تاريخياً ، واخذت من ثمّ تبحث عن طريقة تخلصه من تلك البنايات المتأخرة. فابتدأت اعمال الاصلاح في السنة الفائتة ، ورُفع الكثير من التراب المتراكم فظهرت تحته اقبية فسيحة ، طول اكبرها ١٢٠ متراً بعرض ٨ امتار ، وعلوّ ١٠ ؛ وقد اخرج منه نحو ٥٠٠٠٠ متر مكعب من السماد . وعندما تنتهي اعمال التنظيف والاصلاح ، يمكن لبلاد شرقنا ان تفتخر

١) نُشرت صورته في مشرق هذه السنة ص : ١٧٣

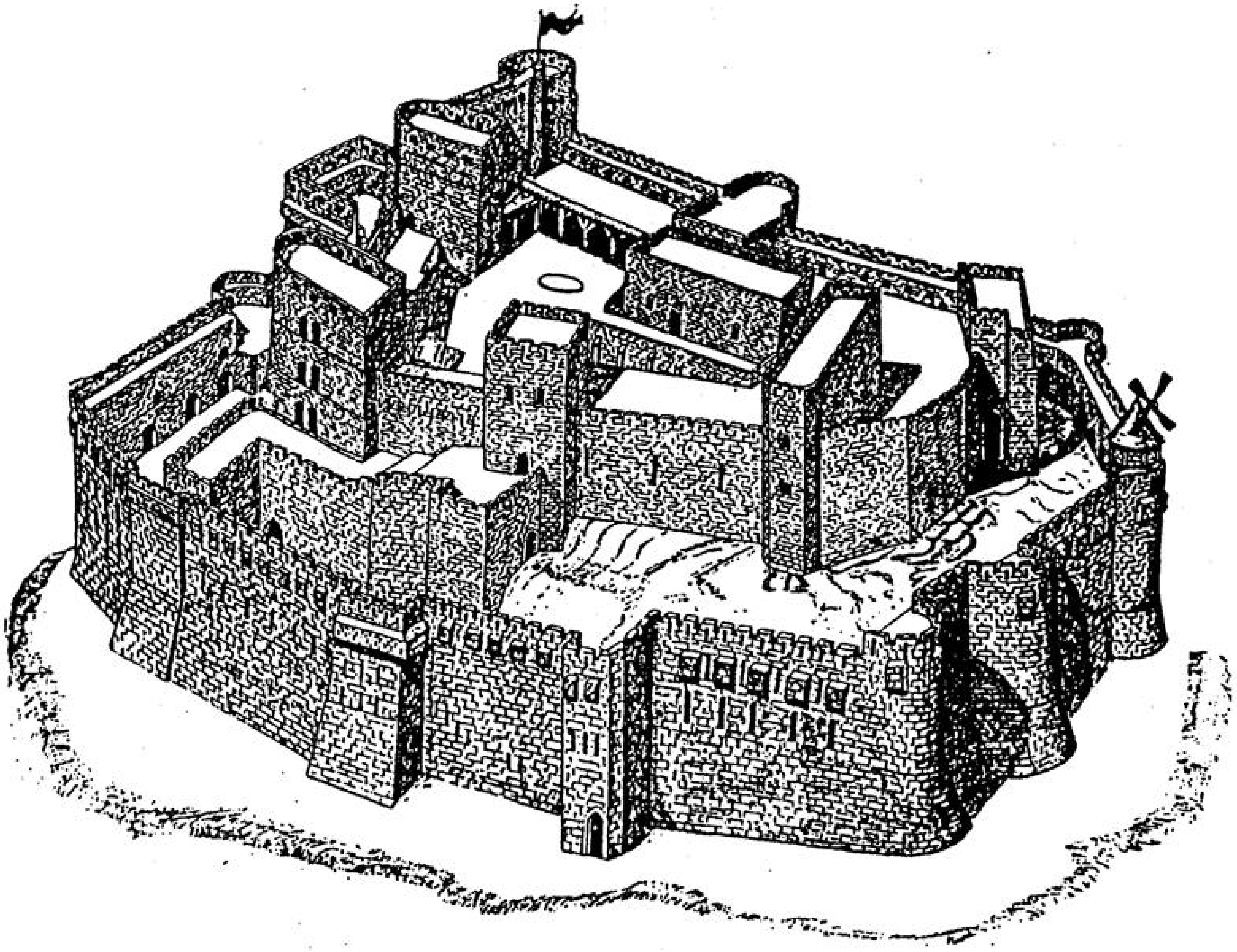

حصن الاكراد كما رسمه ري (Rey) وفيوله لودوك (Viollet le Duc)

بان لها ، في بعلبك ، اضخم هيكل وثني ؛ وفي حصن الأكراد ، اجمل مثال للقلاع القديمة . وفي عهد السلطان صلاح الدين الايوبي ، زار الرحالة ابن جبير مدينة حمص ، فرآها في اقصى دركات الانحطاط ، فقال مبيناً سبب ذلك (ص: ٢٥٨) : « وما ظنك ببلدٍ حصنُ الأكراد منه على اميال يسيرة ، وهو معقل العدو ، وهو منه تتراءى ناره ، ويُحرق اذا يطير شراره. » وهذا يدلّنا على مبلغ التأثير الذي كانت تلقيه في القلوب معاقل الصليبيين ، فنفهم كيف امكن اولئك الفرسان ان يقيموا في سورية نحو القرنين على الرغم من قلة عددهم .

وهناك مركز احصن من مركز حصن الأكراد ، واشدّ تأثيراً في العدو ، وهو مركز قلعة المرقب بالقرب من بانياس[1] . ولكنه لسوء الحظ ادركته يد الخراب فعملت فيه عملها . ولا يمكننا وصفه اليوم الّا بالتذكير بانه كان يجمع ضمن اسواره ٢٠٠٠ عائلة و ١٠٠٠ فرس . وهناك طافيتا وبرجها الشاهق الذي يرقب الناحية كلها من علوّ ٢٨ متراً ، فيهتدي به المسافرون . امّا قدموس ومصياف فهما قلعتان من بناء الاسماعيليين . ولم يكن باقياً من الاولى الا أسبابها لما زرناها سنة ١٩٠٤ . اما الثانية فكانت مركز سيد «الحشّاشين» — وهو الاسم الذي كان يدعو به الصليبيون رجال الاسماعيليين — وهي جميلة المركز اوفر جدّة من قدموس ، ولكنها تظهر ضئيلة اذا قابلناها بالقلاع الفخمة التي نشرها الصليبيون في جبل العلويين

هذا وليس بالامكان تعداد تلك الكنوز الأثرية فنكتفي بما تقدم محيلين القرّاء ، مرة اخيرة ، على كتاب الليوتنان كولونيل جاكو النفيس . فيرون فيه ، فضلًا عن الوصف الدقيق ، صوراً عديدة غاية في الابداع ، ورسوماً وخرائط جغرافية واضحة ، مما يجعل للكتاب قيمة فنية ثمينة ، فيكسب شكر المطالعين للمؤلف على حسن ذوقه ، وللمطبعة الكاثوليكية على مزيد عنايتها . ونحن نشترك مع المطالعين بهذه العواطف ، متمنين ان يقوم في لبنان من يقتدي بهذا المثال الفائق !

١) يلزم التمييز بين بانياس هذه ، وبانياس الكائنة عند ينابيع الاردن ، في اسفل جبل حرمون .

شخصية بارزة

وليّ الدين يكن

١٨٧٣ – ١٩٢١

بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

« ان اعرض عن مقالي اهل زماني ، فغداً يتهافت عليه ابناؤهم ! »

(ولي الدين يكن)

ان في البشرية نفوساً مُترعة لا تفيض الّا اذا تألمت ، وقلوباً طافحة لا تسيل الّا اذا جُرحت. من هذه النفوس الشاعرة كانت نفس وليّ الدين ، ومن هذه القلوب الحسّاسة كان قلب ولي الدين ! جرّعته الحياة كأس الآلام حتى الثمالة ، وهبت به عواصف الطغيان حتى مهاوي الظلم . فشعر بالشقاء على جميع وجوهه ، وشعر بالحاجة الى الحرية في جميع مواطن الاستبداد . وكان له من مخيّلته الواسعة ، وبيانه الجذّاب ، ما رفع ذاك الشعور الى قمة الفن الرائع ، فبدا متجنّياً باسلوب شخصي ، ومذهب طريف. فكان شاعراً في كل مآتي حياته ، شاعراً في شخصيته البارزة من خلال آثاره جميعها.

حياته

شبابه (١٨٧٣ – ١٨٩٦)

اسرته – مولده

هو محمد ولي الدين بك ابن حسن سري باشا ، ابن ابراهيم باشا يكن . كان جدّه ابن اخت محمد علي باشا الكبير ، مؤسس الدولة المالكة في مصر ، فحمل لقب « يَكَن » ، وهو كلمة تركية معناها « ابن الاخت » ، واورثها وُلده من بعده . والعائلة من اشرف البيوتات التركية عامة والمصرية خاصة ، اشتهرت سابقاً بابراهيم باشا المذكور ، واخيه محمد باشا ؛ وكان الاول سر

عسكر اليمن ، والثاني سر عسكر الحجاز في عهد محمد علي ؛ واشتهرت بعد ذاك بعدد غير قليل من كبار الساسة المصريين.

اما ولي الدين فولد بناحية السليمانية من الاستانة سنة ١٨٧٣ . وكانت امه من عائلة شريفة ايضاً ، وهي بنت احد امراء الجراكسة . فاكتنفه نبل الاصل من الطرفين.

في مصر : وفاة ابيه (١٨٧٩) – دروسه

ولم يلبث والد ولي الدين ان قدم الى مصر مع عائلته . وعهد في تعليم ولده الى معلم خاص اخذ يلقّنه مبادئ العربية . على ان الاب لم يتمتّع طويلاً بنجابة ابنه ، فتوفي والولد لا يتجاوز الست سنوات. فكفله ، واخوته ، عمهم علي حيدر باشا يكن ، ناظر المالية المصرية اذ ذاك . وكان الخديوي محمد توفيق باشا قد أسس في عابدين مدرسة خاصة لتعليم ابنيه وبعض ابناء امراء مصر ووجهائها ، وعيّن بها الاساتذة من رجال العلم والادب المشهورين ، وسمّاها « مدرسة الانجال » . فدخلها ولي الدين واقام فيها مدة يتلقّى ، مع العربية والتركية ، مبادئ الانكليزية والعلوم . وشاء درس اللغة الفرنسوية فطلبها في مدرسة مارسيل العالم الفرنسوي ، ثم دخل المدارس الاميرية . وما زال يتابع دروسه ، بعد خروجه من دور التعليم ، حتى اتقن العربية والتركية ، واحكم الفرنسوية ، والمّ بالانجليزية واليونانية.

كتاباته الاولى – اولى وظائفه

وكان له ولع فطري بالكتابة ، فانشأ ، وهو في دون العشرين ، يحبّر المقالات القصيرة في الجرائد المصرية ، تارة يخوض في الأدب ، وطوراً في السياسة ، وحيناً في الاجتماع . اما الجرائد التي خصها بمقالاته الاولى فهي « القاهرة » لمحمد بك عارف المارديني ، « والنيل » لحسن حسني باشا الطويراني الذي اخذ عنه ولي الدين علم المنطق ؛ ثم اتفق مع يوسف بك فتحي واصدرا جريدة « المقياس »[1] . وكان بعض انسبائه ، ومنهم شفيق بك منصور يكن ،

(١) المقتطف : ابريل ١٩٣١ ، ص ٣٧٥ – ٣٧٦

يريدون ان يصرفوه الى وظائف الحكومة ، عن طريق الصحافة التي قد تهوّره ، وهو فتى بعد . فشغلوه في خلال ذلك ، اولًا بوظيفة في نيابة مصر الاهلية ، ثم بالقسم الاجنبي في المعيّة السنية سنة ١٨٩٣

بين الاستانة ومصر (١٨٩٦—١٩٠٢)

في الاستانة

كانت الاستانة مسقط رأس ولي الدين فاحبها كثيرًا وحنّ اليها طويلًا . وكانت اولى زياراته لها ، بعد غربتهِ ، في سنة ١٨٩٦ ، وقد انعم عليهِ السلطان عبد الحميد بالرتبة الثانية . وكان فيها عمه محمد فائق بك يكن ، احد اعضاء مجلس الشورى ، فاقام عنده نحو السنة ، اغنى مخيلته ، في اثنائها ، بمناظر فروق الفتانة التي سوف يتذكّرها في جميع مواقفه ، سعيدًا كان فيهنيها او تعيسًا فيبكيها .

في مصر : جريدة « الاستقامة »

وفي سنة ١٨٩٧ ، عاد الى مصر ، وقلبه يلتهب غيرة على اصلاح بلاده ، وتقويم ما رآه من الاعوجاج في سياسة العاصمة ، فانشأ فيها جريدة ودعاها « الاستقامة » واندفع يبسط فيها بجرأة واخلاص ، كلّ ما كان يراه صائبًا من الآراء ، ونافعًا من الاقتراحات . ولكن تلك المقالات كانت اخلص من ان لا تثير حفائظ الباب العالي ، فمنعتها الحكومة في ولاياتها . فاوقفها مرغمًا ، وودّعها بقصيدة رائعة نشرها في جريدة « المشير » سنة ١٨٩٧ ، منها :

فمن مبلغٌ عني النضابَ الأُلى جنوا ... باني امرؤٌ ما ان اخاف غضابا
اذمّ فلا اخشى عقابًا يُصيبني ، ... وامدح لا ارجو بذاك ثوابا !
على مَ أُحابي معشرًا انا خيرُهم ، ... ومثلي ، اذا حابى الرجال ، يُحابى ؟

....

ولما غدا قولُ الصواب مذمّمًا ، ... عزمتُ على ان لا اقول صوابا
فجافيتُ اقلامي ، وعفت «استقامتي» ، ... ورحت ارجّي للسلامة بابا ! (١

على ان احتجاب جريدته لم يمنعه الخوض في السياسة العثمانية ، فتابع الكتابة في جريدة « المشير » المذكورة ، وجريدة « المقطم » ، وجريدة « القانون الاساسي » لمحمد قدري افندي ، وكان يصدرها بالعربية والتركية

١) ديوانه ، ص : ٤١

في الاستانة ايضاً

وفي السنة التالية ، سافر الى الاستانة مرّةً اخرى ، فوُظف فيها عضوًا في الجمعية الرسومية الجمركية . ولم يلبث ان انتقل منها الى عضوية مجلس المعارف الاعلى . على ان ماضيه كان اشدّ سوادًا في نظر رجال عبد الحميد من ان يعتقدوا فيه الاخلاص لذاك العرش القائم على أسس الاستبداد . فلم يزالوا يبثون عليه العيون حتى ظنوا انه على صلة بالاحرار القائمين خارج السلطنة ، وان عنده كتباً واوراقاً من شأنها النيل من شخص عبد الحميد او من حكومته

في المنفى (١٩٠٢–١٩٠٨)

في سجن الاستانة

فارسل شفيق باشا ، ناظر الضابطة ، من يفتش منزله في ٢ كانون الثاني ١٩٠٢ . فروّعوا امرأته النفساء ، وامّه ، واولاده الصغار ، واخذوا كل ما راق لهم من الاوراق والمستندات ، وتركوه حليف اليأس والاضطراب [1]

ولم تمرّ اربعة ايام حتى قُبض عليه في احد شوارع الاستانة ، وكان ذاهباً في طلب دواء لامرأته . فألقي ، دون محاكمة ، في سجن ، ثم في سجن آخر اشدّ ضيقاً من الاول .

في سيواس

وبعد ان قاسى عذاب الظلم ، وعذاب البعد عن اهل بيته ، في هذا السجن الجديد ، نُقل الى باخرة ظنها ستلقيه في البوسفور ، ولكنها سارت به الى حيث لم يعرف الّا بعد مدّة . فأُخبر ان الارادة السنية صدرت بنفيه الى سيواس ، احدى ولايات الاناضول . فوصل اليها يوم الجمعة في ١٤ شباط سنة ١٩٠٢ ، بعد سير حثيث في الاودية والجبال ، وسط العواصف وتحت الثلوج .

كل هذا واهله لا يعلمون عن مصيره شيئاً ، حتى هدأ روعه اثر وصوله الى منفاه ، فأبرق يخبرهم ويستقدمهم اليه .

وكان من غرائب الحكومة الحميدية انها تستخدم المنفيين في وظائفها كما

١) تفصيل ذلك في المعلوم والمجهول ٢ : ١١–١٧

تشاء ، وتنفي متوظفيها كما تحب. وهكذا كان فان ولي الدين المغضوب عليه ، المنفي بعيداً عن بلاده ، ما برح من ارباب الحكومة التي نفته ، فانه حال وصوله استلم امراً بتعيينه معاون مكتوبجي الولاية برتب شهري قدره ١٥ ليرة ذهبية كان يقبضه في حينه اذا صدرت الارادة السنية بذلك ، والا فينتظر الشهر والشهرين والثلاثة.

اقام في سيواس نحو السبع السنوات ، قاسى في خلالها ، ولاسيما في اولها ، انواعاً من العذاب العقلي تحط من همم الجبابرة. وكأن القدر اراد زيادة تجاريبه ، فجمع الى ذلك ألم أضرسه ، ومرض كبير ابنائه بالحمى التيفوئيدية ، وانقطاع المواصلة مع اصحابه المتخلفين . الا انه كان له بعض العزاء بوجود امه وامرأته واولاده معه ، وبما لاقاه من اسباب التسلية والمؤاساة في اهل سيواس عامة ، وفي الاجانب المقيمين فيها خاصة مما احدث في نفسه ذكرى طيبة فخلّدها في كتابه « المعلوم والمجهول »

واذ أعلن الدستور ، سنة ١٩٠٨ ، خرج من ذاك المقرّ . فرجع الى الاستانة ، يتفقد شؤونها ، ويرى ما آلت اليه مدينة الجمال التي كان لها في قلبه مركز خاصّ . ولكن لم يطل الاقامة فيها بل فارقها الى مصر.

في مصر (١٩٠٨-١٩٢١)

العود الى دولة القلم

خلص ولي الدين من دولة الظلم ، فعاد الى دولة القلم ، وقد ظنّ ان الحظ بسم لبلاده على اثر اعلان الدستور ، فلم يغرّه هذا الامل طويلاً. وكان ينتظره في مصر اصحاب ومعجبون ، فاحتفوا به ، واقاموا له حفلة ادبية تهنئة له برجوعه سالماً . اما هو فتابع نشر مقالاته في كبريات الجرائد « كالمقطم » و«الاهرام» ، و«المؤيد» ، و«الرائد المصري» ، ومجلة «الزهور». وقد تولّى مدة رئاسة تحرير جريدة «الاقدام» لصاحبتها الاميرة الكسندره افرينوه دي فيزنيوسكا .

وكان له متسع من الوقت ، في تلك الاثناء ، فجمع تذكارات ما قاساه

في السنين الغابرة ، ونشرها في مجلّديه المشهورين باسم « المعلوم والمجهول » وانتخب قسماً من مقالاته في المقطم نشرها بعنوان « الصحائف السود » ، ثم نشر مجموعة اخرى بعنوان « التجاريب » ، وكان قد عرّب « خواطر نيازي » فنشرها ايضاً في هذه المدة.

في الوظائف : « بسمة الزمان »

وبعد اعوام قليلة عُيّن في وزارة الحقّانية . فارتاح الى عمله . وظلّ في ذاك المنصب حتى اواخر سنة ١٩١٤ . فعيّنه السلطان حسين كامل سكرتيراً عربياً لديوان كبير الامناء ، واحبه كثيراً ، وانعم عليه بوسام النيل . فشعر وليّ الدين بالسعادة ، ولعلّ ذلك كان لاول مرة في حياته ! واعتبر تلك الحياة الجديدة « بسمة بسمها الزمان بعد طول عبسه » كما كتب الى صديقه الشيخ انطون الجميل بُعيد تعيينه . ولكنه ، لكثرة ما تعوّد الشقاء ، خاف ان تحول الحوادث بينه وبين التمتع بهذه البسمة[1].

مرضه

وكان خوفه في محله . فان المرض اخذ يدبّ الى صدره ، وجعل الربو يقطع عليه انفاسه ، فينغّص ساعات نهاره ، ويقضّ مضجعه اذا شاء الاستكانة في الليل . وقد كتب الى صديقه المذكور في ١٢ شباط ١٩١٨ يصف داءه وصفاً يشفّ عما كان يقاسي جسمه من الالم ، وخصوصاً عمّا كان يُلمّ بنفسه من الجزع واليأس . قال :

« اني في يأس شديد من زوال هذا المرض . . . الذي عجز الطب عن دفعه ، وهو المسمى emphyzème (الربو) . اذا دجا الليل تكاثرت مخاوفي ، فلا يغمض جفناي فرقاً ، لاني لا اغفي اغفاءةً الا وانتبه صارخاً مذعوراً ، اذ تنقطع انفاسي ، ويشتدّ اضطراب قلبي ، وتبرد يداي ورجلاي . فاختلج مكاني ، واتلوّى تلويّ الافعى أُلقيت في النار . اريد تنفساً استميد به ما يوشك ان يذهب عني من الحياة فلا اجده . حتى اذا بلّلني العرق ، وانهكني التعب ، عاودتني انفاسي شيئاً فشيئاً ، وذهبت النوبة على ان تعود بعد ساعة او ساعتين . ومصير هذا المرض معلوم ، وهو مذكور في كتب الطب لم يختلف فيه طبيبان .

« لا ادري أمن الموت ، وما انتظر من اهواله ، يزداد جزعي ? وما تطلع عليّ شمس يوم

[1] مقدّمة ديوانه ، بقلم الشيخ انطون الجميل ، ص : ٨

الا وزادتني قرباً من قبري. وا لهفي على آمالٍ تحوّلت آلاماً! ووا حسرتي على ايام عمر ما ضحكت لي مرة الّا جعلت دموعي لها ثمناً! أهذه عاقبة الصبر التي أطلت انتظارها؟ ما اكثر ضلال الحكماء! وما أكبر غش القدماء!...»[1]

واذا اضفنا الى هذه الآلام الجسدية المبرّحة، آلاماً نفسية ايسرها ناتج عن المرض، وغيرها ناتج عن مصائب عائلية تراكمت عليه في سنيه الاخيرة منها موت ثاني اولاده فجأة بلمس سلك كهربائي، وهو في السادسة عشرة من العمر؛ ووفاة والدته وشقيقته وكان يحبهما حبًّا شديدًا[2]؛ امكننا القول ان حياة وليّ الدين كانت مأساةً تامة، وايامه حلقات فواجع «ما ضحكت له مرة الا جعلت دموعه لها ثمناً»!

وفاته (٦ اذار ١٩٢١)

وما زال يشتدّ عليه المرض حتى أُجبر على تركِ القصر السلطاني سنة١٩١٩، فانزوى في بيته، ثم قصد حلوان مستشفياً حيث ختمت سلسلة احزانه ليلة الاحد في ٦ اذار سنة ١٩٢١، بعد ان تركَ قطعاً من فؤاده متناثرة على الاوراق، منها هذان البيتان وُجدا الى جانب سريره:

يا جسدًا قد ذاب حتى امّحى الّا قليلًا عالقًا بالشفاء
اعانك الله بصبرٍ على ما ستعاني من قليل البقاء!

دفنه – وتأبينه

طالما تاق وليّ الدين، في مصائبه المتعدّدة، الى رقدة يستريح الجسم فيها في «قرافة الامام» بمصر، وفيها مدفن العائلة اليكنية. فحقق الله متمنّاه، فدُفن في «القرافة» المذكورة بين اهله الكرام.

وبعد اربعين يوماً، اجتمع لتكريم ذكراه فريق من اصدقائه الادباء. فاقاموا حول قبره حفلة تأبينية. وكان امل الاصدقاء كبيرًا بان جمهور حملة الاقلام في مصر يلبّون دعوة هذا الواجب فيكفرون باحيائهم ذكرى وليّ الدين عما لحق به من الاجحاف حال حياته. ولكن خاب الامل، فلم يؤبّنه

١) الكتاب المذكور، ص ٨–٩
٢) ميّ: الصحائف، ص ٨٩

الا نفر قليل منهم ابراهيم رمزي ، وخليل مطران ، والشيخ انطون الجميل ، وجورج طنوس.

أوَ لم يكن وليّ الدين يتوقّع مثل هذا الاعراض حين وصف موت الادباء في الشرق ذاك الوصف البليغ ، فقال :

« يموت ادباؤنا ، وتطفأ انوار المعاني في عقولهم ، وتبقى بيوتهم خالية ، واجداثهم دائرة...»[1]

على انه ، وان قصّر ادباء مصر في ايفاء الفقيد حقه ، فلقد كان له من جرائد العالم العربي قاطبةً مراث وتآبين. وسيكون له من ادبائنا جميعاً محبون ومريدون.

شخصيته

نشأ وليّ الدين في بيت شرف وإباء ، فكان شريفاً ابيًا طول حياته . وكان له من لطف الحسّ ، ودقة الملاحظة ، وسرعة التأثر ما جعله شاعراً في كل ما خطّه ، سواء في ذلك النظم ، وهو شعره الموقّع ، والنثر ، وهو شعره المُرسل.

وقد خصّه الباري بقوّة بدنية ، في عنفوان شبابه ، وجرأة على العظائم لا يقف في وجهها حاجز ، كما قد يشهد ذاك الشرطي الذي اعترضه في سيره ، فعاجله وليّ الدين « بضربات كندف القطن ، فالقاه[2] » وكما قد يشهد ايضاً ذاك المتحرّف وقد « اكفأه على مكتبته واهوى بين كتفيه بلكمات »[3] .

الا ان مقاساة الاتعاب ، وتراكم الرزايا ، وتباريح المرض اضنكت جسمه ، فافقدته قواه ولكنها لم تفقده جُرأته ؛ وطبع الإسى على وجهه آثاره فذهب بنضارته ، ولكنه لم يذهب بظرفه وطلاقته .. بل ظلّ ولي الدين ، على رغم الواجع ، لطيف المحضر ، حلو الحديث ، ظاهر التجلّد . واننا لنخطئ اذا حسبنا هذا التجلد نتيجة الاستكانة للذلّ ، او التسليم المطلق لمشيئة الله . لم

١) التجاريب ص ٥٥ ٢) الملم والمجهول ٢ : ٢٤
٣) الكتاب المذكور ٢ : ٢٧

يكن شيء من ذلك ، لأن شاعرنا كان اوفر عصبيةً ، واسرع تلبية لدواعي ثورات النفس ، واكثر تضجراً من ان يدرك احدى هاتين الحالتين. انما كان تجلده نتيجة قوة خاصة به تؤهله للشعور بادق العواطف ، ولكنها ، في الوقت نفسه ، تضبط قلبه ان يظهر متأثراً بتلك العواطف ؛ تبسط لديه سبل الخلاص من مأزق حرج ، ولكنها تربأ به عن طرق ابواب التذلل والاستعطاف للوصول الى تلك السبل ؛ تصور امامه بطريقة شفافة هول الخطب المقبل ، ولكنها تمنحه من رباطة الجأش ما يوقفه ثابتاً تجاه ذاك الهول ، شامخاً على تراكم الرزايا ، مجابهاً صروف الدهر مجابهة القرن لقرنه . الا وهي الانفة ، ذاك السلطان الجبار الذي يسخر لارادته النفوس الكبيرة فيرفع مآتيها عن مآتي العامة ، ويسمو بعواطفها على عواطف السوقة. من هذه « النفوس الساكنة الى الاحساب الزكية» كانت نفس ولي الدين ، فوجدت بحكم الطبع مسخرة لسلطان الانفة يسيرها حيث يشاء ، على نحو ما صوره الكاتب نفسه في مقال «الانفة» [1] .

وكان من نتيجة انفته صفة قد يستغربها الناس لاول وهلة ، وهي بغضه الشديد للكبرياء . ولا عجب ! فالكبرياء أنفة زائفة او ادعاء يقوم به ارباب النفوس المنحطة لتقليد اشهر صفات النفوس السامية . وما فتئ اصحاب الصفات الحقيقية يكرهون من يقلدهم في صفاتهم فيظهرون بظاهرهم ، وهم في الحقيقة خلو من ذلك . فالمخلص الحقيقي يكره المالق ، والمتدين الحقيقي يكره المرائي الخبيث ، والانوف الزكي الحسب يكره المتكبر عن عجب وحداثة نعمة

اما اذا كانت الاهواء مما لا يضير الانفة ، ومما لا يساوي بين صاحبها ومن لا يفهمون الانفة ، فلا بأس بها ، ولا لزوم للتحفظ في اظهارها . وعليه كان ولي الدين ، في ما خلا ما قد يمس أنفته ، شديد الميول مندفع الاهواء ، سواء في ذلك حبه وبغضه ، وتقربه ونفوره . فهو لا يتحرج في حب ما يكرهه الجمهور ، ولا يتكلف في التصريح ببغض ما قد تجيزه آداب المجالسة على اعتباره . فهو صادق في كل ما يقول ، مخلص في كل ما يشعر به.

وقد وافقت هذه الصراحة عنده نزوعاً طبيعياً الى الحرية والاستقلال ،

1) اطلبه في الروائع ٢٣ : ١٦ .

قاده في جميع ظروف حياته الى الخروج عن المألوف فلم يجازَ بالخير في ذلك . خرج ، في ما خصّ الدين ، على عادات قومه فتزوّج سيدة مسيحية يونانية ، فآب بغضب اهله ؛ وخرج ، في ما خصّ السياسة ، على سلطانه محبّرًا المقالات ضدّ ظلمه واستبداده ، فربح السجن والنفي سبع سنوات. وخرج ، في ما خص المجتمع ، على تقاليد لم تتفق معها صراحته فنبذها وجاهر بنبذها ، فكثر اعداؤه . وخرج ، في ما خصّ الادب ، على قواعد النظم المقررة ، وقوالب النثر القديمة الى محيط الابتكار والطرافة فجمع عليه سخط المحافظين. ولكنه لم يكن ليبالي بكل ذلك ، وهو القائل رادًا على من شاء تضييق حريته :

« يريدون ان اكتب ما يريدون ، وأريد ان اكتب ما اريد . »

وهكذا كان ! فقد كتب ما أراد لا ما ارادوا ، وهو في كل ذلك :

« يذمّ فلا يخشى عقابًا يصيبه ويمدح لا يرجو بذاك ثوابا »

« لا يبالي الثناء ، ولا يبالي الهجاء . وانما يبالي ان يصدق فيه احدهما . »

وما همّه من كل ذلك ؟ اليس له من نفسه الكبيرة جيشٌ يتقاصر عنه جيش عبد الحميد ! أوَ ليس له من ادبه غنى لا يحسب غنى الارض شيئًا الى جنبه ! أوَ ليس له من حرّيته وأنفته صرح تصغر امامه صروح المعالي جميعها ! كيف لا ، وهو القائل بعد ان جاز الاربعين من العمر :

ترهّدت في وصل المعالي جميعها ومن يطّلبها كاطّلابي يزهدِ
وبتّ ، تساوت في فؤادي مناهجٌ تؤدّي لمقتٍ ، او تؤدّي لمودّدِ
واني في بيت صغيرٍ مهدّمٍ كاني في قصرٍ كبيرٍ مشيّدِ
عفا الله عن قومٍ اتاني غدرهم فربّ مسيءٍ لم يسئ عن تعمّدِ
تركت الغنى ، لا عاجزًا عن طلابه ، واتزلت نفسي من منازل محتدي
وهذي بحمد الله مني براءةٌ فيا افق سجّلها ، ويا انجم اشهدي !

وان من يصل الى هذه الدرجة من الاعراض عن ترّهات العالم فتتساوى في فؤاده المناهج المتباينة السبل حتى المعاكسة ، لحقيقٌ بان يكون شاهدَ الحياة من قمة انفته العالية التي الانت التجاريب من حدّتها وخففت من نشزاتها الفتية ، فاصبحت تشفق على الناس ، بعد ان كانت تزدريهم . ولكن لا تزال شفقتها ممزوجة بشيء من الترفع يدفعها الى التجرّد عمّا يلتهون به من الحطام كالمال

والوظائف ، والى الاعراض عن عوائدهم وخصوصاً عن مبادلتهم الشفقة بالشفقة . فاذا حنّت الى شيء لا يكون حنينها الى تعزية بشرية ، بل الى « دارات القرافة » فتقول :

« أحنّ الى تلك المراقد في الثرى ولو استطيع اليوم ، لاخترتُ مرقدي !
« فاترك جسمي منزلاً لا يحلّه يكون بعيداً عن أعادٍ وحُسّدِ
« وما يتمنى الحرّ في ظلّ عيشةٍ تغرّ لاحرارٍ وتحلو لاعبُدِ ! » ١)

هذا وليّ الدين بعد ان نالت منه الخطوب والسنون ، فأثّرت في اندفاعه . وأثّر فيه خصوصاً انكسار كبار اعدائه ، وفي مقدّمتهم السلطان عبد الحميد ، فلم يبقَ امامه ذاك النمر المتعطش الى شرب الدماء ، ليحاربه الليل والنهار ويشحذ قلمه في سبيل الذود عن مظلوميه . اسقط عبد الحميد ، وتنفس العثمانيون الصعداء ، ظانّين ان قد انقضى حكم السوط

وابو السياط « يلدبز » ذهبا

فالقى شاعرنا سلاحه مدّة حتى تعالاه الصدأ ، وكاد يضعف همته خلوّ ساحة النزال من المبارزين .

اما عصرٌ كان « لليث شباة وظفر » ، فقد كان لولي الدين « شباة وظفر » ايضاً ، يدافع بهما عن فروق ،

وفي العيون ازورارٌ وفي الجوانح ذعرُ !

حتى تقهقر الليث :

فاضطرّ للصلح رغماً ومن بغى يضطرُّ
(واغتاله) بعدُ غدراً وشيمة النذلِ غدرُ ! » ٢)

هذا المظهر هو احقّ مظاهر وليّ الدين بالدرس ، واشفّها عن شخصيته العجيبة . كيف لا وقد تجسّمت في كتاباته هذه السياسية كل ما في عقليته من حرية في الميل ، واستقلال في الفكر ، وصدق في العاطفة ، تُقرن الى عصبية في المزاج ، وتحمّس في الاندفاع ، ظهرت آثارهما حتى في الجمل والتعابير فغدت متقطعة الاقسام ، هائجة النبرات ، متصادمة الالفاظ ، ينبض بها القلب ألماً فيبرزها دفعات كنبضاته السريعة . اضف الى ذلك قوة في الحجة وبلاغة

١) الديوان ، ص : ٨٤–٨٥ ٢) الديوان ، ص : ٢٥–٢٦

في المنطق ، واذا بك كدت تستوفي تحديد بشخصية ولي الدين الادبية . فلا يبقى عليك الا معرفة مفعول مخيلته .

وهذه القوّة لا تقلّ تأثيرًا عن عقله وشعوره . فهي التي ترفع امام عينيه حجب الاسرار فيرى مواقف المظلومين ، ومصارع الابرياء . ويصوّرها بتلك البلاغة الفائقة ، وذاك الايجاز الفني . وكأن الطبيعة نفسها تساعده على النيل من النفوس الحسّاسة فتمنحه اروع ما في كنوزها من مشاهد يجمل فيها حوادث ابطاله : تمنحه الليل البهيم بما يُثيره من الفواجع البكماء ، وتمنحه الشتاء القاسي بما يحمله من الوحشة والسكون ، وتمنحه الخضم المضطرب بما يهيجه من الرهبة والاسى . فتجتمع له انواع الدياجي من ظلمات الليالي الى ظلمات البحور الى ظلمات القبور ، فيقضي البريء غرقًا في « خليج البوسفور في احدى ليالي الشتاء ،

في ليلة ليس بها كوكبُ كأنما مشرقها مغربُ
يعمي سوادًا كل ما بينها فتحتها وفوقها غيهبُ »[1]

ويموت « مظلوم » شهيدًا في « ليلة تضيع في معاقد ظلماتها انفاس المكربين كانها ذوب الحزن او نسج الاسى . » وقد جاش البحر ، وطارت عاصفة « اخذت قطارات الغيث تسحّ على اجنحتها »[2] ويخمد السمّ انفاس الفتاة البريئة « تحت ليلة من ليالي الشتاء ، متغوّرة النجوم ، حالكة الجوانب »[3] . ويُساق وليّ الدين نفسه الى النفي « تحت ليل كأنه ظلّ الشقاء »[4]

ولا غرابة في هذه المقاربة فالظلمات تدعو بعضها بعضاً ، والشاعر يختار منها ما يوافق عقليّته حتى اذا برزت له الصورة تركها ، مصقولةً او غير مصقولة ، الى غيرها من الصور المبتكرة يضعها الواحدة جنب الاخرى حتى يتكامل له المشهد ، وهو يتنقل بينها تقفزًا لا يكاد يهتمّ باحكام الصلة بين الاقسام لشدّ ما يؤثر من الالوان والتصاوير ، وقد ذكرت عنه الآنسة ميّ انه قد يبرز معانيه صورًا كما في « غرّد الطير » مثلًا فانه يكتب « غرّد » كتابةً ويرسم « الطير » رسماً .[5]

١) الصحائف السود ، ص : ٧٢
٢) فصل كتب بالدموع
٣) الصحائف السود ص ، ١٥
٤) المظلوم والمجهول ٢ : ٥٢ – الروائع ٢٣ : ٦
٥) ميّ : الصحائف ، ص ٩٢

وكثيراً ما كانت تتوسع المخيلة بتفاعيل سحر الالوان والتصاوير في نفس الشاعر فتوجد منها مقارنات وتشابيه مبتكرة حتى الغرابة ، وغريبة احياناً حتى الاضحاك . فهو لا يتراجع امام تشبيه طريف ، وان خرج عن الذوق او الاحتمال ، سواء في ذلك أكان الموقف موقف هزل ولهو ، او موقف جدّ وروعة . فبينا تراه يصوّر حالته برهبة وقد قُبض عليه وسيق امام المتصرّف ، اذا به يصف هذا المتصرّف بما يستضحك فيقول :

« اعوذ بالله !!! وجهٌ كاللبنة ، وعينان كالبصقتين ، ولحية كالطحلب ، وانف كالسواك . كل هذا يحمله عنق كخنصر الهيفاء ، وجسد كزجاجة ماؤها صبغة اليود . . . »[1]

وبينا هو يبدي بكل جدّ ملاحظاته في اخلاق اهل سيواس ، اذا به يذكر نساءهم فيقول انهنّ « يمشين محجبات ساحبات فضول مآزرهنّ كجماعات الاوزّ ، او كاقطاع الغنم . . . » ويتابع ذاكراً سبب بعض عاداتهنّ : « هذا جهل لو انقلب علماً لأصبحت غربان سيواس فلاسفة . . . »[2]

الى غير ذلك من تعابير وتشابيه خاصة به شاء السير بها على اسلوب طريف حرّ مستقل ، مطلقاً حريته في ميدان الادب ؛ مما جعل خليل مطران يقول عنه :

ابت كلّ سير في طريق معبّدِ ـ لمعجزه شعرًا ونثرًا شواردُ

على ان هذه الشوارد ، على ما فيها من غرابة ، هي التي تميّز تلك الشخصية المحبوبة في ولي الدين ، فتجعله قريباً للقلوب على تباين نزعاتها ، جذاباً للمطالعين على اختلاف رغباتهم ، وعلى الجملة هي التي تكوّن الكاتب الشخصي . اما مَن لا يرون فيها سوى آثار الخروج على التقليد الجاري ، فهؤلاء يصعب عليهم فهم وليّ الدين ، وقد صعب على وليّ الدين نفسه ان يُنير عقولهم ؛ فلم يكتب لهم . بل كأنه نظر اليهم بترفع حين اصدر ذاك الحكم الذي صدّرنا به درسنا هذا ، والذي نؤمل ان يتحقق ، وهو :

« ان اعرض عن مقالي اهل زماني ، فغداً يتهافت عليه ابناؤهم ! »

---

١) المعلوم والمجهول ٢ : ٢٦ ٢) الكتاب المذكور ٢ : ١٥٦

المنفلوطي والانشاء الجديد — الانتقال من طقس الى آخر — الطب البيطري — الكنيسة الكاثوليكية والكنائس البروتستانية

للاب توتل اليسوعي

المنفلوطي والانشاء الجديد

تعريباً عن نشرة المدرسة الشرقية في مؤسس لندن (١٩٣٩، ٢١٦) للمستشرق جيب، باختصار :

«مصطفى المنفلوطي (١٨٧٦ — ١٩٢٤) هو غصن نبت على جذع نصفه تركي ونصفه عربي. تخرج في الازهر، ونظم الشعر، وحرر «المؤيد» تحت ادارة الشيخ علي يوسف واظهر في مستهل حياته الادبية رحابة صدر وسعة افكار نادر وجودها عند المشايخ . اثر فيه المؤلفون السوريون واقر بفضلهم على مصر، ودبت في عروقه حركة الاصلاح الديني، وهي مزيج روح الوطنية الحديثة والغيرة على نشر الاسلام في العالم . جمع في شخصيته طرفي نقيض فصار ملتقى حركتين متقاومتين: حركة التشبث بالقديم وحركة الاندفاع الى الجديد . لسان حاله كتاب «النظرات». اظهره سنة ١٩١٠ لاول مرة، وجدد من بعد طبعاته وزاد مواده. وامتنع فيه وصبر على هجمات المهاجمين من حزب المحافظين وحزب المحدثين معاً . وما زال كتابه الى يومنا المؤلف الادبي الاكثر استغواء لقراء الآداب العربية.

عسير علينا تفسير جاذبية النظرات للقراء المصريين. لم يكن لها قبلها شبيه ولا مثيل، وفيها ما فيها من نبذات معطرات بعطر الهواء المصري، منجليات بلمعان ضيائه . لقد نال المنفلوطي من سويداء قلوب مواطنيه بانتخاب مواضيعه وانتهاج اساليبه، وهذه الميزات تحلى بها لا عن نظرات عميقة مبتكرة ولا عن

ممارسة التمرين على الكتابة ، ولكن بتصفحه كتاب جنانه فانه امعن النظر في نفسه ثم استودع القرطاس ودائع قلبه المصري ، بلغة وانشاء انما هما لغة وانشاء الدارس الذي اتقن دروسه . ولم يكترث لما يقع في منتوجات قريحته من تقاطع وتناقض بل استسلم الى فطرته بروح صافية وقلب سليم ، ووصف هذا الكون الصغير كما كان في مصر قبل الحرب ، وقد حواه ضمن جوانحه اعني به افكاره الشخصية .

وقف وقفة المصلح الديني وهاجم حزب المحافظين ومقامه المقدس ، الجامع الازهر ، وذم اكرام الاولياء وطعن بالدراويش وجمعياتهم الخ . . . وجاوز الحد حتى اخترق حرمة استاذه محمد عبده وعاتبه على تفسيره القرآن تفسيراً محدثاً ، مع ان المنفلوطي وقع في النقص ذاته . وقد يظهر تحمسه للاسلام تارة فيحكم على المدنية الغربية بالاعدام ، ويحتج على المسلمين تارة اخرى بتفظيعه مذابح الارمن . وانك لتستشف من كل صحيفة من صحائفه آثار المدنية الغربية .

ولعمري ان حكايته عنوان للهزة التي تمشت في اعطاف العالم العربي بتسرب الروح الاوربية فيه ، وذلك ان رجلاً نشأ بمعزل عن الحياة الاوربية ناله ما نال المنفلوطي من تأثير روسو وفيكتور هوغو . وهو مع ذلك لم يتصل بآداب الافرنج مباشرة وقد جهل لغاتهم ؛ ولكنه عرفهم بواسطة المؤلفين السوريين ، فاستقى من فرح انطون افكاراً اختمرت في فؤاده ودفعته الى الكتابة باسلوب حذا فيه حذو الافرنسيين في القرن الثامن عشر وفي نهضتهم الادبية المعروفة بالرومانتيسم التي ازدهرت اوائل القرن التاسع عشر ، فاخذ المنفلوطي عن تلك الحركة الفكرية محاسنها وسيئاتها :

حاول وضع قانون لسعادة الشعوب « في مدينة السعادة » ، ودافع عن المسكين والضعيف في مقاله على «الاحسان» واسترسل الى عاطفة التشاؤم في مستقبل البشرية ، وانكر على المجتمع قلة انصافه حتى شك بكل عاطفة شريفة وكل سريرة صالحة .

على ان نبوغ المنفلوطي هو بانشائه اكثر منه بمعانيه .

شعر بحاجة الآداب العربية الى تجديد اساليب الانشاء والاسلوب الانشائي

الحسن لا يتم في نظره الا بحسن تشخيص عواطف الكاتب لقرائه . ولا غنى له في ذلك عن درس نوابغ الفصحاء من العرب لان افتقار الكاتب الى الالفاظ انما علته فقره لمطالعة المؤلفين العرب.

فاطلق المنفلوطي العنان لرائد الفكر ، وذهب على وجهه ينشد المعاني ويشنف الآذان عن غير قيد ولا اسر ، فكانت ثمرة منتوجاته معطرة بروح القديم ونشوة الحديث.

انشاء المنفلوطي حديث بطلاوته وخاصة في القصص ، وحديث في اوضاعه ورسوم مؤلفاتــه الطويلة . ربما استهل الكلام بمثل سائر او حكاية عامية واتخذهــا من ثم منوالاً نسج عليه مقالاً . و كثيراً ما توسع بها فجعلها فصلاً مطولاً.

على انه لم يتق شائبة التكلف فوقع في زلل عاب عليه غيره من الكتاب. فانتقد السجع وهو لم يخشه . نعم ان في السجع لزينةً ان وقــع في مكانه ولعل المحدثين من الكتاب قد افرطوا باهماله ، ولكن اذا حلّ السجع في غير موضعه اصبح مذمــةً ، وهذه المذمة لم يتبرأ منها المنفلوطي تبرأ تاماً . وسقط في حبائل العادة المألوفة عند كتبة العرب كلهم تقريباً ، فالتهى برنة الالفاظ وصفها دون العناية باستنباط الافكار وتسلسل المعاني.

الانتقال من طقس الى آخر

فسح الحق القانوني (بند ٩٨) في سبيل الانتقال من طقس الى طقس في شروط معهودة واصدر المجمع المقدس ، في ٦ كانون الاول ١٩٢٨ ، قراراً يدقق في تحديد الشروط المذكورة. ذلك ما اوحى الى مجلة ابوليناريس (١ الرومانية المخصصة لتفسير الحق القانوني الكنائسي مقالاً صدرته بالقرار المذكور ، وعلقت عليه من الفوائد ما اقتطفنا زبدته للقراء ، قالت:

ان سواد المسيحيين الاعظم تابع للطقس اللاتيني الروماني المنشأ ، والمنتشر في المسكونة. ولكنّ هناك شعوباً يؤمنون بالمسيح وهم على طقس غير اللاتيني ، وطقسهم دُعي ويُدعى شرقياً اصلاً وموطناً . وهو ، على تنوّع اشكالــه ،

(١ *Apollinaris, Mart.-Apr. 1929, p. 119*

منتشر في العالم اذ لا جهة من الجهات تخلو من تباع طقس من الطقوس الشرقية ، والطقوس الشرقية جذوع ومنها تشتقّ فروع.

فالجذع اليوناني البيزنطي يشتقّ منه الفرع البلغاري ، والروماني ، والملكي والكرجي ، والمسكوبي ، والروثاني.

والجذع الانطاكي يتفرّع منه السريان والموارنة ، والكلدان ، والمالابار.

وهناك الجذع القبطي والحبشي . ثم الجذع الارمني . وهذه الجذوع ، كالجذع اللاتيني ، نبتت على اصل شجرة واحدة وهي كنيسة المسيح ، الواحدة بايمانها وتعليمها ، المتشكّلة بمظاهرها ومحاسنها.

ولكل طقس من هذه الطقوس لغته . فيستعملون في الطقوس الشرقية اللغات اليونانية ، والسريانية ، والقبطية ، والعربية ، والارمنية ، والحبشية ، والكرجية ، والسلافية القديمة ، والروثانية . وليس النظام الكنائسي بكامل في كل طقس من هذه الطقوس ، لان بعضها عدد مؤمنيها قليل جدًا . واقل الطقوس عددًا هم الكاثوليكيون اللاحقون باديار الكرج ؛ واكثر الطقوس عددًا هم الروثان الكاثوليك ومجموعهم يزاهي الاربعة ملايين . وهؤلاء كلهم ابناء كنيسة المسيح ، على شرط ان يعبروا بطقوسهم عن الايمان والتعليم الذي اوحى به المسيح . ولا يحول تنوّع الطقوس واختلافها دون ان يشمل الاحبار الرومانيون هؤلاء البنين اجمعين بمحبتهم الرعوية الساهرة.

وذكرت مجلة ابوليناريس مجهودات الاحبار الاعظمين في مناشدتهم المؤمنين الشرقيين ألّا يسعوا الى دواعي الانتقام الآتية من انانيات البشرية ، ومن قلة التمييز بين الشؤون المدنية والروحية ؛ لان كنيسة المسيح ليست بلاتينية ولا يونانية ولا سلافية ولكن كاثوليكية . وان اللاتين واليونان والسلافيين ومؤمني سائر الامم جمعاء لهم المكانة ذاتها في الكرسي الرسولي . وتوسعت المجلة المذكورة في تأدية الشواهد الدالة على هذه الحقيقة ، وتخطّت من ثم الى الكلام في الاسباب القانونية الصوابية الكافية للترخيص بتغيير الطقس فقالت :

يجب ان تكون الدواعي عادلة وذات اهمية قاهرة . لئلا ينشأ عن التغيير ضرر للطقوس ، ومن ثم للنفوس ، ولئلا تنشب القلاقل والاضطرابات ، وتتهيّج العاطفة القومية ، وينفتح الباب الى الاغراض المادية والمصالح العالمية . وانه دفعاً لهذه المخاطر قد تقرّر ان الانتقال من طقس الى طقس لا يتم الّا

عن رضى السلطتين المألوفتين في كلا الطقسين اعني بهما المنتقل منه والمنتقل اليه. وان لم يتم التفاهم والاتفاق على الامر، فيكون ممثل الكرسي الرسولي حكماً بين الفريقين. ومن ثم لم يأتِ القرار المذكور آنفاً بشيء جديد. انما هو مؤيد للبند ٩٨ من الحق القانوني اذ خطّ طريقاً اكثر مناسبة للظروف الحالية وآمن مسلكاً في البلوغ الى خير النفوس، وشدّ عرى الاتفاق والوحدة بين الشرقيين واللاتين.

الطب البيطري

ظهر في مجلة الزراعة الحديثة (٤[١٩٢٩] : ٢٢١) بتوقيع الطبيب البيطري رشاد ريفي مقال على الوسائل الواجب القيام بها للقضاء على امراض الحيوانات السارية ومنها تشجيع الاختصاصيين في طب الحيوان، والاتصال بعلم الطب البيطري الغربي بواسطة بعثات علمية. ذلك أمما لا غنى عنه، وليس في بلادنا مدرسة لتخريج الاطباء البيطريين. قال الكاتب:

« من المعلوم والثابت معاً ان امراض الحيوانات السارية لا يمكن مداواتها بالعلاجات، ولهذا فقد سعى العلماء الى ايجاد اللقاحات الواقية والامصال الشافية وقد وفقوا الى هذه المكتشفات النافعة بعد تجارب واختبارات كثيرة قاموا بها في دور الاختبارات والبكتريولوجيا. ودب التنافس بين مختلف الحكومات للسبق في هذا المضمار الشريف فاخذت كل حكومة تنشئ في بلادها معامل للبكتريولوجيا البيطرية لصنع ما عددناه من الامصال واللقاحات ولم تقصر الحكومة العثمانية قبل الحرب العالمية في هذا السبيل، فأسست في الاستانة مختبرات للبكتريولوجيا البيطرية. ودرست قضية فتح فروع لهذه المختبرات في الولايات العثمانية، وكان من المقرَّر فتح هذه المختبرات في دمشق وحلب فاعلنت الحرب وماتت الفكرة في مهدها.

اما وان الاشاعات تعلن عن رغبات الحكومات باصلاحات اقتصادية واسعة، اما وان بلادنا بلاد زراعية تعنى بتربية الحيوانات عناية مثلى وتستدر منها ارباحاً غير قليلة، فقد اصبح من واجب هذه الحكومات التفكير في فتح هذه المختبرات ما دامت الامراض السارية تزور بلادنا بين فترة واخرى كما كانت تزورها في السنين السالفة ان لم تقل اكثر

ان اكثر اعمال الاطباء البيطريين في حالة انتشار هذه الامراض اعمال سلبية، فتراهم يكتفون باتلاف الحيوان المصاب الذي لا يرجون شفاء له او ابعاده عن الحيوانات الصحيحة. يضطرون الى هذه المكافحة السلبية اذ لا يوجد لديهم امصال او لقاحات لمصارعة هذه الادواء مصارعة شديدة قاضية، فيسلقهم الناس بسبب ذلك بالانتقاد المرّ ويقال عن مصلحة البيطرة انها ادارة عقيمة لا عمل لموظفيها الا القيام بما يقوم به الجزارون. واعذارهم ما سردنا وفيها من الوضوح والمنطق ما يقبله كل صاحب نصفة ووجدان، والله يعلم اني لا اقول ذلك انتصاراً لابناء مسلكي ورغبة بالتماس العذر لهم وانما هي الحقيقة الواقعة التي نرضخ لحكمها القاسي في غالب الاحيان.

واعود فاذكر القرّاء بما كتبته سابقاً عن الطاعون البقري الذي انتشر العام الماضي في سهل البقاع واباد اكثر من سبعة آلاف رأس ذهبت ضحية هذا النقص في المعدات واللقاحات، ولولا استجلاب المصل من مصر بما امكن من السرعة ومسارعة الحكومة الى اجراء التطعيم، لقضي على بقر ذلك السهل الزراعي الزاهر قضاء مبرماً، ولو قدرنا الخسارة بان ضمنا ثمن كل بقرة من البقر البائد عشر ليرات ذهبية فتكون الخسارة سبعين الف ليرة ذهباً. واذا اضفنا الى هذه الخسارة ما خسره فلّاحو الغوطة بسبب انتشار هذا الداء لكان المجموع كبيراً لدرجة نستصغر معها ما سيكلفنا مشروع فتح المختبرات البيطرية في البلاد. فالله نسئل ان يلهمنا جميعاً طريق الصواب.»

«فالضعف اصاب الكنائس البروتستانية ...

اما الكنيسة الكاثوليكية فقد انتعشت ...»

نشرت مجلة الهلال (يوليو) مقالاً في تضاؤل الايمان بعد الحرب قابلت فيه بين التأثير الذي احدثته الحرب الكونية في الكنائس البروتستانية وذلك التأثير في الكنيسة الكاثوليكية. واليك بعض اقوالها:

«من الظواهر السيئة التي اعقبت الحرب شيوع المجانة أو عدم الاكتراث نحو الدين. وهذه الظاهرة تكاد تكون عامة في الاقطار الغربية وخصوصاً

تلك الاقطار التي يشيع فيها المذهب البروتستانتي وهي قليلة في الاقطار الكاثوليكية.

فالضعف الذي اصاب الكنائس البروتستانتية في انجلترة واميركة والمانية انما أصابها لتحزبها، أي لانها انضمّت كل منها الى الدولة التي تنتمي اليها. اما الكنيسة الكاثوليكية فقد انتفعت بحيادها سواء أكان هذا في فرنسة أم في ايطالية ام في سائر الدول الكاثوليكية المحايدة. فان حياد هذه الكنائس اوقفها موقفاً نزيهاً زاد كرامتها كما زاد كرامة البابا الذي اتخذ لنفسه خطة صارمة من الحيدة وكانت دعوته الى السلام خالصة لا تشوبها تهمة التحيّز

ان تضاؤل الايمان ظاهر جداً في انجلترة. ففي مدة الحرب عند ما تجند كثير من طلبة الجامعات اقفلت بعض الكليات الدينية بنية فتحها عقب الحرب. ولكن لمّا انتهت الحرب بقيت هذه الكليات مقفلة لأن الطلبة لم يقبلوا عليها، وهي ما تزال كذلك الى الآن. والذي يلاحظ ان عدد المصلين بالكنائس يوم الاحد آخذ في الهبوط الى درجة تقلق جميع رجال الدين في انجلترة

فمن جهة نجد ان عدد طلبة الكليات الخاصة بتخريج القسوس قد نزل من ٢١٠٠٠ طالب تقريباً في اوائل هـذا القرن الى نحو ١٦٠٠٠ طالب في سنة ١٩٢٨. ومن جهة اخرى نجد ان متوسط الحاضرين للصلاة يوم الاحد في سنة ١٨٨٧ كان ١٢٩٩٦ للكنيسة الواحـدة في العام، بينما هو في سنة ١٩٢٧ لا يزيد عن ٣٦٦٠.

والكنائس البروتستانتية وخصوصاً الكنائس الانجليكانية تقفل في بعض انحاء انجلترة لقلة المصلين او لعدمهم، بينما الكنائس الكاثوليكية تزداد قوة. فقد كان متوسط الحاضرين للكنيسة الكاثوليكية يوم الاحد ٦٥١١ في سنة ١٩١٤ فصار ١٢٦٠٤ في سنة ١٩٢٧.

ويعزو القسوس الانجليز هذا الانحطاط الديني الى ثلاثة اسباب:

اولاً — هجرة الاهلين من الريف الى المدن او «التمدّن» بمعناه اللغوي.

ثانياً — كثرة الملاهي يوم الاحد وهي بمثابة البدل من الصلاة

ثالثاً — روح العصر اي نزوع الناس الى المادية.

ولكن هذه العوامل الثلاثة لا تؤثر كما رأينا في الكنيسة الكاثوليكية تأثيرًا سيئاً . فلماذا ؟

واتخذ الكاتب مثالاً من الحياة السياسية الاوروبية الحاضرة ومن سياسة الاحزاب وتحيزهم الى التطرّف بين محافظين واشتراكيين ليفسر السبب المؤدي بالبعض الى المجانة او عدم الاكتراث نحو الدين، وبالبعض الى اعتناق الكثلكة، وقال :

« هذا ما زاد الكنيسة الكاثوليكية قوة واشياعاً فانها تمثل الايمان البحت والتسليم بكل ما جاء في الكتب المقدسة . فهي من هذه الوجهة تشبه احزاب المحافظين في السياسة . »

واننا نثني على ما ابداه الكاتب من الانصاف بحق الكثلكة ، ونقول كلمة نذيّل بها مقاله تكملةً :

ان الاسباب الثلاثة التي نوه بها المؤلف عن الشعوس الانكليز وتأثيرها السيّ في الدين لم تثقل وطأتها على الكنائس البروتستانية فحسب بل ضربت اطنابها على الكثلكة ايضاً . ولكن تأثيرها في الكثلكة غير تأثيرها في سائر المذاهب لان الكاثوليك لهم في نظامهم الالهي اعني في وحدة الرئاسة ، ووحدة التعليم ، ووحدة الايمان ، ووحدة الاسرار ، ما يسلّحهم ويقوّيهم على مقاومة روح التمدن بمعناه السيّ ، وكثرة الملاهي يوم الاحد ، والتروع الى المادية .

فان الحبر الاعظم ورؤساء الابرشيات يسهرون كل السهر على تعيين رجال اكفاء للقيام بخدمة النفوس في المدن ، وهؤلاء يسعون جهدهم بالاختلاط في الشعب ولم شعث الواردين الى المدن من الارياف ، ومقاومة ملاهي الاحد بالاجتماعات الدينيّة والاخويّات وخاصةً بالاحتفال بالقداس الالهي ، وقد ترى ان لا قرية من القرى في البلاد الكاثوليكية، فضلاً عن المدن، تمضي عليها السنة من غير ان يزورها واعظ اورشد ، فتلقى فيها ارشادات الرياضة ويقبل المؤمنون على الاعتراف بخطاياهم وفيه ما فيه من اماتة النفس وقرع الصدور والندامة وراحة الضمير وسلامة القلب . ثم يلي الاعتراف مناولة جسد الرب والتردد على المعابد والصلوات . انما هي الحياة الدينية الحقيقية مع ما تقتضيه من التضحية بالذات والكفران بالنفس ، تستمدها الكنيسة من رئيسها المسيح المنظور بشخص بطرس وخلفائه وتمي بها اعضاءها فتقيهم شرور تضاؤل الايمان وتسير بهم الى السعادة الابدية

على عهد الامير

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد افرام البستاني

وقد يكون من الابناء ضحايا في سبيل آبائهم
من حيث لا يعلمون

الفصل التاسع

مصاب جديد (تابع)

امّا فرحات فكان اشدّ حيرة تجاه موقف ابن مولاه ، يفتّش عن تعبير يقطع به ذاك السكوت فلا يجد ، ويبحث عن كلمة يخفّف بها تلك اللوعة فلا يتوفّق . يهمّ بان يحدّثه عن الانتصارات الباهرة في المعارك الاخيرة فيتراجع قائلاً وما نفع تلك الانتصارات بعد ان قُتل الامير جهجاه ؟ ويجرّب ان يتكلّم عن بدور وتجلّدها فينتبه الى ان ذاك الموضوع يجرّ الى التفكر بحالة الست سعدى ومرضها المقلق ؛ ويوشك ان يتبسّط في اخبار دير القمر وما صارت اليه بعد رجوع الامير ثم يهاب ان يفتح جرحاً بليغاً في قلب غانم اذا ما قرب الموضوع من قصر الشربين.

وما زال الاثنان في تلك الحالة من الجمود والصمت ، يهاب فرحات ان يقول ما يحزن ابن مولاه ، ويهاب هذا ان يسأل فرحات فيسمع ما يضاعف آلامه ؛ حتى طرق الباب فجأة ، فاختلج غانم وقام لفتحه ، واذا به يرى احد اغوات السراي . فسلّم عليه بكل لطف وقال :

— مولانا الباشا بحاجة اليك !

— سمعاً وطاعة ! انتظرني ريثما البس عباءتي واسير معك !

ثم اشار الى مقعد فجلس عليه الآغا . وتحوّل نحو صندوقه فاخرج عباءة بيضاء مزركشة ، وكوفية حريرية ، وعقالاً مذهباً . ثم تناول خيزرانة رفيعة ، واقبل نحو الباب بعد ان قال لفرحات بلهجة مطمئنة .

— لا شكّ ان سعادة الباشا يطلبني ليكلمني عن الامير ، ويهنئني بانتصاره . فالبث هنا حتى اعود ، فتحمل الى الامير تهانئ الباشا واوامره الاخيرة .

ثم التفت الى الاغا ، وقال :

— هلمّ بنا كي لا نطيل انتظار سعادة الباشا .

فخرجا ووجه غانم يطفح بشرا ، وخطواته تحمله سرورا ، حتى كان من ينظره لا يشكّ في انه اسعد اهل الارض ، وابعدهم عن الهموم !

فذهل فرحات لهذا الانقلاب السريع ، وكبر ابن مولاه في عينيه ، فاخذ يعجب بسعة صدره ، ورباطة جأشه ، وصبره على احتمال الرزايا ، ويقدر له مستقبلا باهرا في عالم السياسة والادارة ، راجياً ان يخلف جدّه في رئاسة الحزب ، ويكون من ادنى مقرّبي الامير بشير .

* * *

اذن الجزّار لغانم بالدخول فتخطّى صفوف العساكر بقدم ثابتة ، ونظر شامخ ، حتى بلغ المجلس ، فاستقبله الباشا باشّا ، واشار اليه متلطفاً فجلس . ثم اقبل عليه مبتسماً وقال :

— لقد سُررنا كلّ السرور بفوز ولدنا الامير بشير ! وهذا ما كنّا نقدّره له لما نعرفه من حسن ادارته ، وحزمه وتعوّده تذليل العقبات ، والانتصار على الصعوبات : واننا نكلّفك بان تبلغه تهانينا .

فحنى غانم رأسه . ثم تقدّم من الجزّار ، فقبّل يده ، وقال :

— الشكر لكم يا مولاي على كل حال . وما الامير بشير الا فرد من جنودكم المظفّرة . نال النصر بمساعدتكم ، وفتح بلاد العدوّ باسمكم الكريم . وكيف لا ينتصر ، وخاطركم مشروح عليه ، وكيف لا ينخذل الاعداء وغضبكم حالّ عليهم .

فعلت شفتي الجزّار ابتسامة الغبطة والهناء ، واشار على غانم بالعودة الى

مركزه ، وتابع :

— ومما سرّني ايضاً انه عرف حق الجيش الذي ارسلته لمساعدته. فلم يماطل بتقديم «الملابس» المقرّرة للقواد والجنود ، واعطاهم فوق اللازم فكانوا مسرورين منه غاية السرور . وقد ارسل يعدني بتقديم قسم من الميري في اقرب وقت.

— كلّ هذا يدلّكم يا مولاي على مبلغ امانة الامير بشير لكم ، وتعلقه بشخصكم الكريم !

— لم يكن عندنا ادنى شكّ بهذا الامر. واما انت فنعيدك ان شاء الله ، الى بلدك قريباً ، محفوفاً بعنايتنا ، كما كنت دائماً في هذا السراي . أليس كذلك ؟ قل : هل تضجّرت من امر ما ؟ هل نالك احد باذىً ؟ هل عاكس احد ارادتك ؟ لا علم لي بشيء من ذلك ! قل ! وان يكن نالك مكروه اثناء اقامتك في قصري ، فلا يمكنك ان تلومني لانك لم ترفع اليّ شكواك !

— لا يا مولاي ! فليس ما اشكو منه. بل بالعكس فاني كنت ولا ازال مشمولاً بعنايتكم السامية ، محفوفاً بنظركم العالي . وليس لي ما اتمناه سوى ان اقضي العمر مرموقاً بعطفكم سائراً في طاعتكم ، مقيماً حيث شاءت ارادتكم المطاعة.

فهزّ الجزّار رأسه موافقاً ، ولها بلحيته قليلاً ، وقال :

— اننا سنذكر دائماً هذه الطاعة ، ولا نضيع فرصة لاسعادك. فنسمح لك منذ اليوم ان تقيم خارج القلعة . في الجانح الايمن من سراي مصطفى آغا الذي سيوكّل بخدمتك ثلاثة من خصيانه يقومون بكل ما تريده من المرافق والحوائج.

ثم التفت الى مصطفى آغا فحنى هذا رأسه علامة الخضوع وقال :

— الامر لمولاي !

وادار الجزّار رأسه الى ناحية كاتبه عبدالله آغا وتابع ، موجهاً الكلام الى غانم :

— وسيكتب لك عبدالله آغا وثيقة بامضائنا تخوّلك الحق المطلق في الذهاب حيث شئت ضمن حدود المدينة . فتدخل المحلّات التي يعنّ على بالك ان

تدخلها ، وتجول في الاسواق التي ترغب الجولان فيها ، وتطوف الحانات التي تحبّ الطواف بها ، فتحادث من تشاء من تجّار الافرنج والعرب ، ولا مانع يمنعك ، ولا رقيب عليك . ثم انت حرٌّ في منزلك ، لا احد يسألك عمّا تصنع فيه ، ولا احد يدخل عليك الّا باذنك .

فكتب عبدالله اغا الوثيقة بكل ما تقدّم . فوقّع عليها الجزّار ، ثم ناولها لغانم . فاخذها هذا واقفاً ، وانحنى فقبّل يد الجزّار شاكراً . ثم استأذنه بالذهاب ، فاذن له ، وارسل معه مصطفى آغا الخدم الثلاثة ينقلون متاعه من غرفته الصغيرة في القلعة الى منزله الجديد .

* * *

كان فرحات يتطلّع من نافذة غرفة غانم على الطريق المؤدّي الى مجلس الجزّار ، متوقعاً عودة مولاه بين الآونة والاخرى . فبصر به راجعاً ووراءه رجال ثلاثة ، فظنّ شرّاً واخذ يفكر فيما عسى تكون عاقبة الامر ، مستعيداً في مخيّلته ما قد يكون هيّج غضب الجزّار على غانم ، مستنتجاً اسوأ النتائج . حتى وصل غانم ، فحيّاه فرحات مضطرباً واشار بطرفه مستفهماً عن مقصد هؤلاء الرجال . فابتسم وقال :

— هؤلاء رجالي ! اتوا ينقلون امتعتي الى المنزل الجديد . فهلمّ بنا نتفقّده .

وبعد ان اشار الى اثنين من الخصيان بنقل الامتعة شيئاً فشيئاً . سار وراء الثالث الى سراي مصطفى آغا ، وفرحات يرافقه ولم تنجل له الحقيقة بعد . فاخذ غانم يشرح له ما كان من سرور الجزّار بانتصار الامير بشير ، وخصوصاً بتوقع قبض اموال الميري في القريب العاجل ، ويصف له كيف استقبله بالترحاب ، وكيف انعم عليه بالمنزل الجديد وبالحرّية المطلقة بان يصنع كل ما يريد ويذهب حيث يشاء ضمن حدود المدينة .

فسُرّ فرحات لسرور مولاه ، ورجا ان تكون هذه الحرّية دافعة به الى التأسي والسلوان .

وبعد ان تمّ نقل الامتعة ، ورتّبت . جلس الاثنان فتناولا الطعام معاً . ثم قام غانم فانشأ تحريراً للامير بشير يخبره بكل ما حدث . وتحريراً لبدور

يطمئنها الى حالته ، ويخبرها بما ناله من الحرية ، داعياً اياها الى الصبر ، والتسليم في كل شيء ، لمشيئته تعالى .

وناول التحريرين فرحات ، فحفظهما في عبه ، الى ان كان السحر فهب من نومه ، وشد طاقاته ، ولف زوادته بمنديل ربطه الى ظهره ، ثم تناول عصاه الضخمة ، وودع مولاه على ان يعود في الاسبوع القادم ، ان شاء الله .

الفصل العاشر

على غير ميعاد

تغيّر منزل غانم ، فتغيّر مقامه في نظر موظفي بلاط عكا . فمن رجل غريب أخذ رهينة ، لا تأثير له ولا قيمة ، يعيش منفردًا في غرفة حقيرة من مؤخر القلعة ، انتقل بسرعة غريبة الى صديق محالف يُقيم في جانح مهم من سراي كبير ، يحبه الجزار ويدعوه الى مجلسه ، فيقربه منه ، ويتفقد احواله . هذا ما كان يفكر به رجال البلاط اذ كان يمر غانم امامهم ، فينحنون لـديه مسلّمين ، بعد ان كانوا لا يأبهون له اذا حيّاهم . هو الدهر يدور فيرفع من يشاء ويضع من يشاء ، وقد لا يكون لهؤلاء ولا لأولئك ارادة في ما يُغدقه عليهم من النعم او في ما ينزله بهم من النوائب . ولم يكن سبب دورة الدهر هذه التي رفعت غانم الى تلك الدرجة سوى حرص الجزار ونهمه الى المال ، وما ارسله اليه الامير بشير من الوعود الخلّابة .

امّا غانم نفسه فلم يكن ليشعر بتغيّر حالته ، ولا لينتبه لجماهير المسلّمين عليه حال مروره في ساحات القلعة . ليس عن صلف او استخفاف ، بل لفرط ما كان يشغل فكره من احوال الوطن ومن فيه .

لقد سُرّ دون شك بتغيير مقرّه ، اذ استبدل بتلك الغرفة الحقيرة ، منزلًا فخماً ، واصبح له من يقضي حاجاته ويقوم بخدمته ، وصار يمكنه الذهاب حيث شاء ، دون رقيب يحدجه ببصره ، ولا حارس يمنعه الدخول الى المحل

الفلاني . لقد سرّ ايضاً بما رافق هذا التغيير من اغترار الموظفين بقدره ، فكان يعجب بصغر عقولهم ، ويتفكه بما يبدونه امامه من مظاهر الاحترام والاجلال . كل ذلك لأنهم سمعوا الجزار يخاطبه برقة ولطف ، وهم لم يتعوّدوا منه الّا الجفاء والغلظة ؛ ورأوه يهتم به ، وهم لم يعرفوا منهُ الّا الاستخفاف وعدم المبالاة .

على ان هذا السرور لم يكن نيملك على غانم شعوره ، بل لم يكن ليعزّيه عن مصائبه الماضية ولا عمّا يخشاه من المستقبل الغامض . فكان في منزله الجديد ، هو في غرفته القديمة ، لا يرخي الليل سدوله حتى يرخي العنان لعبراته فيجمع بين ظلمة الدجى ، وظلمة الدموع ، وظلمة الافكار السوداء تنتاب مخيلته . كان يبكي على امّه التي لم يعرفها ، وعلى ابيه غانم الذي لا يتخيّله ، وعلى جدّه الشيخ قعدان الذي لم يمكنه ان يغمض عينيه ، وعلى عمه المير جهجاه الذي لم يودّعه . ويبكي ايضاً على الست سعدى في حياتها ليأسه من رؤيتها . ويبكي على بدور التي طالما انعشت آماله الميتة ، ونفخت في مستقبله الاسود روح حياة ورجاء ... ثم يبكي على نفسه وحيداً في بلاد غريبة .

كثيرًا ما كان يقضي ساعات طويلة من الليل على نافذة غرفته يسرّح ابصاره في السماء الصافية الى البحر الواسع ، فيرى النجوم تترجرج في قبتها مرقصة خيالاتها فوق الموج المتمايل ، فيناجي ارواح اعزّائه ، حتى يخالها هائمة في الفضاء الفسيح ، مشعشعة بالانوار العلوية ترقبه من خروق الكواكب ، فتسدّد خطاه في حياته وتبسم له في مآتيه ، فيتشجع ، ويسكن ، وربما تهوي النجوم واحدةً واحدةً وراء الافق البعيد ، فتغور معها آماله واحداً واحداً في بحر اليأس المضطرب .

وكان ، اذا اصبح ، وخاف ان يكتشف الغرباء نجواه الليلية في عينيه الذابلتين ، ووجهه الذاوي ، ونظره التائه ، تجلّد وغسل وجهه ، وخرج متكلّفاً الطمأنينة جائلًا في انحاء المدينة ، علّه يروّح النفس من بعض ما يُلم بها . فكان يهيم من قيساريّات الحرير الى اسواق المواسم ، الى خانات الافرنج ،

يتوقف عند كل ما يلفت نظره ، ويحدّث كل من يراه غريباً مثله حتى اصبح له معارف عديدون بين الافرنج ينتظرون مروره كل يوم ، فيكرمون وفادته ، ويحادثونه بعربيتهم الضعيفة ، ولفظهم المفكه . فاطمأن الى صداقتهم ، وعرفوا انه مسيحيّ لبناني ، فكانوا كثيراً ما يكلمونه عن دينه الذي هو دينهم ، وعن وطنه الذي يحبونه . فيفعل كلامهم في قلبه ، ويضع بلسماً لطيفاً على جراحه المتعدّدة ، فيُعيد الكرة ويعيدون البلسم ، حتى تمكنت الصداقة بين الفريقين واصبحت زيارته لخان الافرنج من الواجبات اليومية .

وكان الجزّار ، اثناء ذلك ، لا يفتأ يدعوه الى ديوانه ، فيكثر له من ادلّة الاكرام ، ويُعيد على مسامعه كلمات عذبة تدلّ على رضاه عن اعمال الامير بشير ، وعلى عطفه على بلاده واهتمامه بتقدّمها وفلاحها . فكان غانم يشكره ويدعو له بطول البقاء ودوام العزّ ، ثم يعجب بنفسه من تأثير المال في هذا الطاغية وهو لم يقبضه بعد ، فكيف به اذا قبضه !

امّا مصطفى آغا صاحب السراي ، فكان غانم ينفر منه في اول الامر لغير ما سبب ، سوى انه راعه ظاهره ، فهابه . وفعلاً كان ظاهره ممّا لا يدفع الى الطمأنينة . قامةٌ فوق الربعة قليلاً ، وجسمٌ مضطرب الحدود لا يكاد يميز الناظر طوله من عرضه ، بدا منه بطنٌ كبير مترهّل يعلوه صدر ضخم ، وكتفان غارقتان ، يتدلّى منهما ذراعان مفرطا الطول ، ينتهيان براحتين مبسوطتين واصابع مربّعة الاطراف لا تدلّ على شيء من دقّة الحسّ او لطف الذوق . امّا الراس فكان مربّعاً ضخماً ، ضاق جبينه ، وتفلطح موخره ، وتباعدت عيناه السوداوان الصغيرتان ، يفصل بينهما انف ضخم طويل الارنبة ، ويخيّم عليهما حاجبان كثيفان ، يكادان يتصلان بالشاربين وقد استطالا وتشعّث طرفاهما فعلقا باطراف لحية كثّة تُركت للطبيعة تأخذ منها ما تشاء وتدع ما تشاء . وقد انفرجت عن فم كبير وشفتين سميكتين تدلّت سفلاهما مقلوبةً قليلاً ، وتقلّصت العليا عن اسنان كبيرة .

كل ذلك لم يكن يدفع الى الطمأنينة ، فهابه غانم حتى الحذر . ولكن ما هو ان حادثه قليلاً حتى عرف ان وراء ذاك القناع الشنيع ، قلباً طيباً ، ولطفاً

فطرياً ، وظرفاً جميلاً ، وحسن معاشرة جديرة بالاعتبار . وهكذا كثيراً ما يكذب الباطن تأثير الظاهر ، وكثيراً ما لا يكون الوجه مرآة النفس.

ولم يمض القليل حتى اصبح مصطفى آغا من اخلص اصدقاء غانم يجتمعان المرّات في النهار ، ويقضيان الليالي معاً. فيأخذ الاغا يسرد النكات الظريفة ، والنوادر المفكهة ، والحكايات اللطيفة مما حدث له او لاصدقائه او للجزّار ، وغايته ان يسلي غانماً وينسّيه بعض همومه . فغدا غانم يأنس الى معاشرة صديقه الجديد ويتفكه باحاديثه اذ كان يمثل القصّة التي يرويها بصوته ورأسه وعينيه ويديه ، وبطنه ، وكل جسمه . فيتركها اثراً حيًّا لا ينساها من يسمعها المرّة الواحدة ، ولا يملّ من سماعها مرّات.

واحب مصطفى اغا غانماً حبًّا ابويًّا ، خصوصاً بعد ان عرف ما الم به من الرزايا ، فلم يكن يتركه وحده الّا في الليل ، وبعد ان يتأكد بانه نام دون ان يسترسل للهواجس المؤلمة . وكان يسهر على كل احتياجاته ، فلا يشعر غانم بالحاجة الى امر ما حتى يراه في غرفته. وكان كثيراً ما يدعوه الى تناول الطعام على مائدته فيدخله بيته ، ويستقبله بكل بساطة وارتياح.

* * *

مرّ زمن على غانم وهو في تلك الحال من دعة العيش واساليب الراحة التامّة ، لا يقلق خاطره سوى انتظار فرحات وما يحمله من الاخبار ، ولا يكدّر صفاء حياته سوى تلك الهواجس التي لم تكن تفارقه على الرغم من مظاهر السكون والطمأنينة ، هواجس سوداء مزعجة كانت تحوم به حول قصر بعذران فتمثّل له الرزايا المختلفة على مختلف انواعها حتى كان يخشى من متابعتها ، فيطردها . . . ولكن الى حين.

وكانت تلك الهواجس ، كلما طال غياب فرحات ، تجسّمت وتجهمت واكفهرّت فازعجت المسكين في نهاره ، واقضّت مضجعه في ليله. فلبث حائراً تائهاً ينتظر تارةً رجوع خادمه الامين بايّ خبر كان . . . علّه يتخلص من تلك الحالة القلقة التي لا تستقرّ على شيء ، وهي اشدّ تأثيراً من وقع المصيبة يعرفها الانسان ، فيضطرب لها مدّةً ثم يسكن الى الحقيقة الواقعية ؛ وطوراً يخشى

من رجوعه مفضلاً ذاك الموقف القلق ، على تحقق مصيبة جديدة . على ان الاقدار بيد الله يديرها كيف شاء..

بينا كان غانم ذات مساء مستنداً الى نافذته وقد فارقه مصطفى اغا ، فاستسلم الى قنوطه ، حتى تاه بصره على تلك البيداء المتاوجة ، واصبح لا يفكر في شيء محدود ، دخل عليه احد خدمه ببطء وقال بصوت خافت :

— على الباب فارسان يودّان محادثتك يا سيدي !

فانتبه غانم من ذهوله ، وفرك عينيه ، وقال :

— أنزْ المسرجة ، وادخلهما.

ظهر فرحات على عتبة الباب يقود بيده الفارس الآخر. وكان غانم ينتظرهما واقفاً وقد ضغط بيده اليسرى على قلبه ليخفّف نبضاته . وما هو ان لمع نور المسرجة على وجهيهما ، حتى ادرك المسكين هول المصيبة الجديدة ، فتراخت اعصابه وهوى على الديوان . فاسرع فرحات ونضح على جبينه الماء من ابريق كان في النافذة ، بينا كانت بدور تفرك يديه . فافاق مذعوراً ، واجال نظراً تائهاً في الوجهين ، ثم اغمض جفنيه واجهش الثلاثة بالبكاء..

وكان احد الخدم ، لما رأى ذاك المشهد المحزن ، اسرع الى مصطفى آغا وهو يعرفه صديق غانم الصدوق ، فاخبره بالامر . فقام هذا عن العشاء وهرول الى منزل غانم مستفهماً عما جرى . فتلقاه بجفن دامع ، ونَفَس لاهث ، وقال:

— مصيبة جديدة يا مصطفى آغا ! هذه خطيئتي تحمل اليّ نعي امها امرأة عمي.

فحزن الآغا لهذا المشهد المؤثر ، وبعد ان رفع عينيه الى السماء قال :

— خفّف عنك يا بنيّ وكفكف دموعك ، فلا مردّ لحكمه تعالى ، والمصائب محكّ الرجال ، فكن رجلاً . واعلم ان الرزايا متى توالت تولّت ، والله يجرّب خائفيه فعسى تكون هذه المصيبة آخر تجاريبه . ولا تنسَ انّا لله وانّا اليه راجعون.

وبعد فترة سكوت تقدّم مصطفى آغا من غانم وقال

— لا شكّ بان السيدة تعبة ، وكذلك رفيقها ، وانت لم تتناول عشاءك بعد.

فارجو منك ان تتلطف وتكون معهما في ضيافتي هذه الليلة.

ثم تناول يده فلم يمانع. وسار الجميع الى بيت مصطفى آغا فتناولوا ما سدّ جوعهم وتحولوا الى ردهة السهرة، فقال الآغا:

— اذا اذن الشيخ غانم، فان النساء في الحرم ينتظرنَ السيدة فتقيم معهنّ قليلاً، فيتعرّفنَ اليها ويسلّينها.

فشكره غانم واشار الى بدور فسارت الى ردهة النساء. فاستقبلنها بكل لطف، واقبلنَ يعزّينها بكل ما في قلوبهنّ من عواطف.

وعند الساعة الثالثة، استأذن غانم من مضيفه بالانصراف فوقف هذا ورافق ضيوفه حتى المنزل. ثم حيّاهم وكرّر التعزية والوصية، وانقلب آسفاً لما جرى.

***

من الصعب وصف مشهد الثلاثة ذاك الليل، اذ كانت بدور تخبر غانماً تفاصيل وفاة امها بصوت تقطعه الزفرات فيجاوبها هو بالنشيج، ويبكي فرحات صامتاً. الى ان بلغ الجهد من الثلاثة، فدخل كلّ الى غرفته ونام نوماً ثقيلاً حتى الفجر.

عرف الجزّار، في اليوم الثاني، بمصيبة غانم وبقدوم خطيبته. فارسل للحال كاتبه عبدالله آغا لتعزيته، واوفد احدى نساء حرمه مع جاريتها لتعزية بدور. فشكر له غانم هذ التنازل.

وما لبث الخبر ان انتشر في البلاط وفي المدينة. وكان لغانم اصدقاء كثيرون، فاقبلوا يعزّونه ويحفّونه بجميع اساليب السلوان. وكثيراً ما كان يأتي نساء الموظفين ايضاً فتستقبلهنّ بدور في حرم مصطفى آغا.

وكان ممن اقبلوا التعزية بعض تجار الافرنج، يتقدمهم راهب فرنسيسكاني عرفه غانم في احدى قيساريات الحرير، اسمه الاب توما. فقدّم لغانم اخلص عواطفه، وعرض عليه ان يحتفل بقدّاس وجنّاز عن نفس الفقيدة يحضرهما جميع المسيحيين، فشكر له غانم هذا الفضل. وعيّنا لذلك يوم خميس الصعود سنة ١٧٩٦.

غصّت الكنيسة في اليوم المذكور باصحاب غـانم من الافرنج والوطنيين ، وكان في مقدَّمتهم عبدالله آغا نائباً عن الجزّار ومصطفى آغا . وكان غانم جاثياً في الوسط على مركع خشبي ، والى جانبه عن اليمين بـدور وقد لبست حبرة سوداء ، وغطت وجهها بيديها منكرة بما صارت اليه من اليُتم ، والتغرّب . اماّ هو فلم يكن بامكانه جمع افكاره اثناء الذبيحة الالهية ، بل كان يحوم بمخيلته حول دير القمر وبعذران يراجع في نفسه ما احاق به من البلايا في هـذه المدة الاخيرة من حبسه في عكا ، الى وفاة جدّه مقهوراً ، الى مقتل المير جهجاه ، الى وفاة الست سعدى حزناً على زوجها ، الى تبدّد ارزاقه وارزاق بـدور ، الى تضعضع الحزب السياسي الذي طالما رجح الاحزاب اللبنانية جميعها.

كل تلك الخواطر كانت تنشب في ذهنه وتضطرب متشابكة . ثم يلتفت فيرى الكاهن غارقاً في صلاته فيسلّم لمشيئة الله . ولكن لا يلبث ان يحوّل وجهه الى جهة بدور ، فيراها وقد جلّلها السواد ، آية الحزن وعنوان الاسى ، فيعود بافكاره المضطربة الى حالتها وما سيخبئ لها وله القدر المشؤوم.

وما زال على تلك الحالة من الاضطراب يبدأ بالصلاة فيشرد فكره بعيداً ، ويهمّ بالتأمل في الذبيحة الالهية فلا تطاوعه هواجسه ، حتى انتصف القداس ، ودار الكاهن ليقرأ الانجيل بالعربية ، فوقف الجميع ، وارهفوا آذانهم ، واذا به يقرأ :

« الحقّ الحقّ اقول لكم إن من يسمع كلامي ويؤمن بمن أرسلني لـه الحياة الابدية ، ولا يصير الى دينونة . لكنه قد انتقل من الموت الى الحياة. الحقّ الحقّ اقول لكم إنها تأتي ساعة ، وهي الآن حاضرة ، يسمع فيهـا الاموات صوت ابن الله والذين يسمعون يحيَون . لأنه كما ان الآب له الحياة في ذاته ، كذلك أعطى الابن ان تكون له الحياة في ذاته . وأعطاه سلطاناً ان يُجري الحكم بمـا انه ابن البشر . ولا تتعجبوا من هذا لانها تأتي ساعة يُسمع فيهـا جميع من في القبور صوت ابن الله . فيخرج الذين عملوا الصالحات الى قيامة الحياة ، والذين عملوا السيّئات الى قيامة الدينونة.»

وبعد الانجيل لفظ الاب توما عظة صغيرة ملؤها عواطف التعزية والاتكال

على الله ، حفظ منها غانم قول المسيح : « مَن آمن بي ، وان مات ، فسيحيا » فتعزَّى بذلك عن حزنه الشديد اذ كان له ملء الثقة بقول السيد له المجد ، وكان يعلم ان كل موتاه كانوا من اخلص المؤمنين ، واوفرهم غيرة على دينهم … ثم التفت الى بدور فرأى على وجهها دلائل الطمأنينة والصبر ، فزادت تعزيته ، وبارك اسم الله شاكرًا له النعم التي يهبها على قدر المصائب.

الفصل الحادي عشر

عرس غريب

كالمهر الاصيل العتيّ يروضه الفارس الجبّار راكضاً اياه في الفلوات المقفرة ، تحت اشعة الشمس المحرقة ، بين الغبار المتكاثف ، فيذلل جموحه ، ويخفف من غوائــه ؛ فيرجع منهوكاً لغباً يجرّر حوافره على الارض اللينة ، ويستقبل نسيم المساء الرطب بمنخرين أدمتهما السموم ، ولكنه لا يزال يلمع في عينيــه نور الخيلاء ، وفي رفعة رأسه آثار الاصل الكريم.

كالنخلة الباسقة السحوق على حدوذ القفر المحرق ، تحمل عليهـا العواصف فتلويها ، وتنقضّ عليها الامطار فتبللها ، ويتصاعـد حولها الغبار فيحجبها عن ابصار الناظرين ؛ على انها لا تلبث ان تتخلص من تلك النوائب ، واذا بهـا مهشمة الاطراف ، مشقّقة الاوراق ، ولكنها لا تزال شامخة الرأس على توالي الخطوب .

هكذا ظهرت لغانم ابنة الامراء ، وقد تراكمت عليها المصـائب فأدمت قلبها الحسّاس ولكنها لم تكدّر عقلها المنير ، وقصمت ظهرها ولكنها لم تحن رأسها ، وذهبت بما كان في حركاتهـا من ظرف لطيف ، ودلال جذّاب ، ولكنها ابدلتها به خبرةً ورزانة وهيبة . فكان غانم كلما فكّر بها ظهرت له الفضيلة المرزأة ، والايمان الصابر المستسلم ، والجمال الذي زاده الحزن وقارًا ، والذكاء الذي اكسبه الاختبار تعقّلًا واصالة رأي. (لها بقية)

شذرات

اول شخص من رعية دولة الڤاتيكان

رزق احد الموظفين في دائرة رئيس حجاب قداسة البابا ، غلاماً ذكرًا وُلد في ١٦ حزيران الماضي ، في احد احياء حاضرة الڤاتيكان ، فكان اول شخص من رعية الدولة الڤاتيكانية . وقد دعي بالاسماء الآتية : بيوس ، ڤيكتور ، بطرس ، بنيتو . وكلها رمزية تشير الى الحادث السياسي العظيم في هذه السنة .

مجموع سكان العالم

تقول المؤسسة الدولية للاحصائيات في لاهاي ان عدد سكان العالم زاد كثيرًا عمّا كان عليه سنة ١٩١٠ ، وقد كان تلك السنة ١,٦٠٠ مليون . اما اليوم فهاك تقسيم السكان بحسب القارات على التقريب :

اوربة	٥٠٠	مليون
آسية	٩٠٠	〃
افريقية	١٥٠	〃
اميركة	٢٢٠	〃
اوقيانية	٠٠٧	ملايين

ويظهر ان اكثر البلاد سكّاناً بالنسبة الى مساحتها هي جزيرة جاوى التي تفوق بلجكة وهذه اكثر بلدان اوربة سكّاناً في الكيلومتر المربّع .

ويرى بعض العلماء الاحصائيين ان الارض يمكنها احتمال عدد اوفر من الناس ، وان منطقة خطّ الاستواء يمكنها اعالة عدد من السكان بمعدّل ٤٠٠ شخص في الكيلومتر المربّع ، وهي نسبة ترفع الى خمسة اضعاف بل الى عشرة عدد سكان الارض . على انه اذا صحّ هذا التقدير كانت الفائدة منه للجنس

الاسود ليس غير . لانه ان كان بامكان البيضان ان يعيشوا قليلاً حوالي خط الاستواء ، فلا يظهر انه بامكانهم النموّ والتكاثر هناك حتى يحققوا هذه الارقام المجازَف فيها .

احصائيات فلسطينية

بلغ عدد سكان فلسطين وشرقي الاردن ، في اواخر سنة ١٩٢٧ ، اكثر من ثمانمائة الف نفس منهم ٥٩١،٠٠٠ مسلم، و١٤٧،٧٠٠ يهودي ، و٧٦،٠٠٠ مسيحي . وقد ظهر ان شيوخ القرى الاسلامية كانوا ، اثناء الاحصاء السابق ، يزيدون عدد سكان قراهم في سبيل غاية انتخابية . وقد اعطت البطريركية اللاتينية في القدس لائحة بابناء رعيتها فكان عددهم ٣٨،٠٠٠ منهم ٧،٠٠٠ في شرقيّ الاردنّ .

اما النقد المتداول في آب ١٩٢٧ فكان منه : ١٦٥،٠٠٠ ليرة من العملة الفضية و ٢٧،٠٠٠ من العملة النيكلية ، و ٢٤٤٨ ليرة من البرونز و ١،٦٩٢،٥٠٠ ليرة من ورق النقد . ويظهر ان حالة السكة الحديدية على تخاذل متواصل امام تقدّم النقل بالسيارات ، فالمنافسة هناك كما هي في بلادنا . وقد تُرك البحث في مدّ خط حيفا — بيروت لانه لا يقوم بنفقاته ، وصُرفت العناية الى كهربة الخطوط الحديدية الموجودة حالياً والى تخفيض اجور السفر ، وايجاد اوراق ذهاب واياب معاً .

اما مصلحة الامن العام فتعززها الشرطة الوطنية وفيها ١١٥ ضابطاً و ١٢٥٠ نفراً ، والى جنبها الشرطة الانكليزية ويبلغ افرادها بعد التخفيض ٤ ضباط و ٢٠٠ نفر . وقد لوحظ انه في سنة ١٩٢٨ ، زادت الجرائم حتى تضاعفت . واخذت الحكومة تستعمل الجلد عقاباً لمخالفي الآداب العمومية .

وفي سنة ١٩٢١ كان مركز الاتحاد الوطني اليهودي يملك ٧١،٠٠٠ دونم من الارض ، فبلغ ٢٢١،٠٠٠ دونم سنة ١٩٢٨ ، يُضاف اليها ٢٥،٠٠٠ قرب جون حيفا ؛ وقد اهتمّ افراد الجالية اليهودية بان يغرسوا ، اكراماً لذكرى لورد بلفور ، غابة قرب الناصرة تبلغ مساحتها ١،١٠٠ دونم ، فحققوا قسماً من

مشروعهم بان غرسوا حتى آخر السنة الفائتة ٢٠٠ دونم . فما اجدرنا بالاقتداء بهم في مضاء العزيمة والثبات !

ومما يجدر بالذكر في فلسطين ان تقدم الصناعة متواصل. من مظاهر ذلك ان وزن السكاير كان ٣١٬٠٠٠ كيلو سنة ١٩٢٧ فبلغ ٨٠٬٠٠٠ كيلو سنة ١٩٢٨ . وكذلك القول عن الشوكولاته والحلويات الوطنية التي اخذت تحتل شيئاً فشيئاً اسواق فلسطين . وقريباً يمكننا القول نفسه عن صناعة البسكوت الوطني . اما مسألة العمال العاطلين التي كانت غاية في التعقيد سنة ١٩٢٧ فقد خفت قليلاً بعد ان رحل القسم الكبير من هؤلاء العمال . ولكن على الرغم من جميع الاحتياطات ، لا يزال في كل من المدن الكبيرة كالقدس ، وحيفا ، ويافا ، نحو ١٥٠٠ عامل بلا عمل . وهي نسبة غير طبيعية دون شك .

المسلمون الجدد في تركية الكمالية

اصدرت حكومة انقرة احكاماً جديدة فيما يخص من يعتنقون الدين الاسلامي ، ملخصها ان الراغب في الديانة بالاسلام عليه ان يلتجئ الى مفتي منطقته فيعطيه هذا « وثيقة » بدينه الجديد . ومن ثمّ ينتخب الراغب اسماً اسلامياً يضيفه الى اسم عائلته القديم ، ويُسجّل الاسمان في سجلات دائرة النفوس ، مع اسماء الاب والام . فيظهر ان الحكومة الكمالية تريد ان تفرق بين قدماء المسلمين وجددهم . وقد خالفت ما كان واجباً في الماضي من ان المسلم الجديد لا يحمل الا اسماً اسلامياً .

ازمة الصحافة التركية

كان من نتائج ادخال الابجدية اللاتينية في تركية أزمة ضيقت شديداً على الصحافة . فان المطابع الجامعة لجميع الحروف الجديدة قليلة جداً في الاستانة . وذكرت جريدة « مليت » عدة مجلات في الاستانة كانت تطبع من ٢٥ الى ٣٠ الف نسخة ، اصبحت ولا يمكنها تصريف اكثر من ٢٠٠٠ او ١٠٠٠ نسخة بالحرف اللاتيني . وقد تعالى نداء الجرائد جميعها الى الحكومة طالبة

مساعدتها لئلا يفشل الاصلاح الجديد ، ملاحظين ان ميل الشعب التركي للقراءة قد ضعف كثيراً من زمن قليل ، حتى ان الجرائد والمجلات أُجبرت على انقاص خمسين بالمئة من عدد نسخها .

التقدم الاقتصادي في الكونغو البلجيكي

قليلة هي البلاد التي تقدّمت في اقتصادياتها تقدّم الكونغو البلجيكي في العشر السنوات الاخيرة . وهذه الارقام التالية تدلّ على ذلك . كان طول الخطوط الحديدية ٢٠٠٠ كيلومتر سنة ١٩١٩ ، فبلغ ٣٫٣٢٥ كيلومتراً سنة ١٩٢٨ . اما النقل فزاد وزنه خمسة اضعاف في المدة نفسها . هذا فضلاً عن النقل بواسطة نهر الكونغو وسواعده الذي يبلغ وزنه اكثر من ٥٠٫٠٠٠ طنّ . اما طرق المركبات التي كانت في اول عهدها سنة ١٩١٩ فقد بلغت اليوم ١٠٫٠٠٠ كيلومتر طولاً . وهذه ادناه ارقام تدلّ على كمية المعادن المستخرجة سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٨ :

	١٩١٩	١٩٢٨
نحاس	٢٣٬٠٠٠ طن	١١٥٬٠٠٠ طنّ
ذهب	٣٬٤٠٠ كيلو	٤٬٢٠٠ كيلو
الماس	٢٠٠٬٠٠٠ قيراط	١٬٠٠٠٬٠٠٠ قيراط

والكونغو من اشهر البلاد في تصدير النحاس ، والراديوم ، والزرنيخ ، وقد اخرجت في سنة ١٩٢٨ ، ٤٠ غراماً من الراديوم و٤٠٠ طنّ من الزرنيخ . وهي ايضاً في اولية بلاد العالم في تصدير العاج

ولا يخفى ان هذه النتائج الحسنة لم تأتِ عفواً بل هناك همم البلجيكيين الذين يبذلون عنايتهم واموالهم — وقد بلغ ما خصصوه من رؤوس الاموال ٥ مليارات — في سبيل ترقية مستعمرتهم العزيزة

مطبوعات شرقية جديدة

M. Rava : Nel cuore dell'Arabia Felice, con Jacopo Gasparini nello Yemen. 75 *pp. gr.* 8° ; 40 *pl. phototyp., Sindacato ital. arti grafiche. Roma*, 1927.

في قلب بلاد العرب السعيدة . في اليمن مع يعقوب غاسپاريني

رافق مؤلف هذا الكتاب يعقوبَ غاسپاريني حاكم مقاطعة الاريتري الى بلاد اليمن سنة ١٩٢٦ (وهي السنة التي عُقدت فيها معاهدة السلام والتجارة بين الامام يحيي وايطالية) فاراد ان يعرّف مواطنيه بحالة اليمن الحاضرة وبآمالها في المستقبل . وذلك بان يعرض امامهم عدداً من الصور المختلفة تمثل تلك البلاد . وقد نال المؤلف غايته فسرد في ٣٥ صفحة ، تفاصيل الرحلة ومرماها ، وميزات حكومة اليمن ، وتاريخه ، وجغرافيته . ثم نشر عدّة صور فنيّة غاية في حسن الاختيار ، زيّنت صفحة جديدة من تاريخ بلد اشتهر قديماً في جزيرة العرب ، ولا يزال مستقلًا لا يتنازل إمامه عن لقب « امير المؤمنين » س٠ر٠

Dom M. Prümmer O. P. : Manuale theologiae moralis, secundum principia S. Thomae Aquinatis. *t. III, editio* 4ª *et* 5ª. *Friburgi Brisgoviae, Herder*, 1928 ; *XII* + 698 *pp. M.* 13, *relié* : 14, 60.

كتاب تعليمي في اللاهوت الادبي : الجزء الثالث

يختم حضرة الاب پرومر كتابه في اللاهوت الادبي بهذا المجلّد الكبير الذي يحتوي على الأسرار السبعة . فيتكلّم في البحث الاول عن الاسرار على الجملة ، ثم يشرحها سرًّا سرًّا فيما يتبع من الابحاث ، حتى ينتهي بسرّ الزيجة فيخص به اكثر من مائتي صفحة كبيرة . ومما يستحق الذكر ان المؤلف ، في بحثه عن سرّ الكهنوت ، يتكلّم عن مخالفة نظامه ؛ وفي بحثه عن سرّ الزيجة يتكلّم عن الموانع ، وكذلك بعد ان يبحث في سرّ الاعتراف يخصص فصلًا بالعقوبات الكنائسية وفصلًا بالغفرانات . اما صفات هذا المجلّد فهي التي ذكرناها لسابقيه (المشرق ٢٦ [١٩٢٨] ٧٠٤ و ٢٧ [١٩٢٩] ١٤٩) وهما لا يفوقانه دقّة

ووضوحاً . ونرى ان المؤلف يتبع بكل امانـة الطريق الممهد في الفلسفة اللاهوتية ، دون ان يصرف نظره عن علم الفقه ، فهو يبدأ ببسط المبـادى بكل وضوح ثم يدعمها بالبراهين اللاهوتية ، ويستخرج منها ما يمكن استخراجه من التطبيقات العملية . فيظهر بجدارة تلميذاً لأمير اللاهوت القديس توما ، عاملاً على ابداء نظرية استاذه ، سائراً بالمطالع من نتيجة الى نتيجة حتى يعرضها جميعاً ، منتبهاً في كل اقواله لآخر احكام الكرسي الرسولي ولأحدث التغييرات التي جرت في التشريعات الكنسية . ي. م.

F. Fergusson, *ingénieur* : Les richesses naturelles de la Palestine et la chute d'eau de la Mer Morte [*La Houille blanche, mars-avril* 1928] *Grenoble, éditions Rey-Arthaud.*

ثروة فلسطين الطبيعية وشلال البحر الميت

هو مقال جزيل الفائدة يُظهر ان احد مهندسي الفرنساويين ، السيد سيمون ، فكّر منذ سنة ١٩٠٣ بالانتفاع من الفرق بين مستوى البحر المتوسط ومستوى البحر الميّت ، ولخص نتائج درسه بمقال نشره في العددين ٥١ و ٥٢ من جريدة « الكهرباني » لسنة ١٩٠٣ تحت عنوان « شلال وحيد في نوعه . ما تراه اليوم من الخزعبلات يصبح غداً في حيّز الحقائق. » اما اليوم فقد اتفق المهندس سيمون نفسه مع احد زملائه من الفرنساويين وعادا الى درس المشروع فكانت نتيجة اقوالهما : بين البحر المتوسط والبحر الميت مسافة لا تقلّ عن ٧٠ كيلومتراً . اما الفرق بين مستواهما فهو ٣٩٦ متراً . فلو فتحنا مجرًى لماء المتوسط ، واخذناه في نفق تحت جبال الجليل حتى احد الاودية القريبة من البحر الميت . ولو انشأنا هنا مستودعاً ضخماً للمياه ، لكان لنا شلال عظيم نستخدم قوته في معمل كهرباني يُقام في قعر الوادي . ولربّ معترض يقول : ان مستوى البحر الميت لا يلبث ان يتصاعد اذا اطلنا صبّ الماء فيه ، فيجيب المهندسان انه اذا صُبّ من ٢٠ الى ٢٥ متراً مكعباً في الثانية لا يبلغ ارتفاع هذا المستوى درجة تُذكر . وعلى كلّ فمن السهل ازالة هـذا الارتفاع بتنظيم الريّ في وادي الاردن وباستعمال مياه النهر في سبيل ذلك . يبقى ان الـ ٢٥ متراً مكعباً في

الثانية الهابطة من علوّ ٣٥٠ متراً تولد قوة عظيمة تُعادل ٦٥,٠٠٠ كيلووات . فيكون ذاك الشلال من اعظم الشلّالات بما يؤديه من المنافع وذلك بايجاده مصدر قوة في مكان خالٍ منها ، دون ان تضيع مياه الاردنّ في هذا السبيل ، ودون ان يحدث اقلّ اجحاف باراضي الجوار ، لأننا ، حتى لو قدّرنا زيادة ارتفاع البحر الميّت ، فلا نرى لهذا الارتفاع ضررًا لأن المياه تنبسط اذ ذاك في مناطق قاحلة لا انتفاع منها . ج . ل

El justo medio en la creencia, compendio de teologia dogmatica de **Algazel**, traducción española por **Miguel Asin Palacios** [*Instituto de Valencia de Don Juan*] *Madrid*, 1929, 8°. *de* 555 *pp.*

الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي

ننصح لجميع قرّائنا ، لاسيا من يعيش منهم في بلاد اللغة الاسبانية ، قراءة هذه الترجمة الحسنة لكتاب « الاقتصاد في الاعتقاد » للامام الغزالي الشهير ، وهو تأليف في اللاهوت النظري الاسلامي . وقد اردفه المترجم بعدّة آثار للمؤلف نفسه « كإلجام العوام عن علم الكلام » ، و« محكّ النظر في المنطق » و« معيار العلم في المنطق » و« المقصد الاسنى في شرح اسماء الله الحسنى » واخيرًا « المستظهري » وهو رسالة ضدّ الشيعة الباطنية . وان مقدرة السيد اسين بلاسيوس ضامنة دقة الترجمة فضلًا عمّا ذيلها به من الحواشي المفيدة التي يقابل بها بين افكار المؤلف وبعض نقاط اللاهوت المسيحي . هـ . ل .

Bowen (Harold) : The Life and times of 'Ali ibn 'Isa « the good Vizier » *in* - 8° *de* 420 *pp.* 25 *sh. London, Cambridge University Press.*

حياة الوزير علي بن عيسى وزمانه

كتاب نفيس ألفه المستشرق بوئن باستناده الى مصادر اولية اكثرها لا يزال مخطوطاً ، فبسط امامنا نصف قرن (٨٩٢–٩٤٦) من تاريخ الدولة العباسية . اما محور التأليف فهو الوزير علي بن عيسى الذي قضى حياته في بلاط خلفاء بغداد تارةً سجيناً وطورًا وزيرًا ، تبعاً لأهواء السياسة واساليب الدس

التي كان يقوم بها النساء والخصيان فيتلاعبون بالخلفاء ويتحكمون في مصيرهم . كان الوزير اديباً فاضلاً متَّصلاً باشهر علماء عصره كالطبري المؤرخ ، والحلّاج الصوفي ، والنسائي صاحب كتاب السنن . واشتهر بالاستقامة والعدل حتى شُبّه بعُمر بن عبد العزيز . فخصه المؤلف بهذا الكتاب الشيّق الذي يقرأه الانسان بلذة كما يقرأ احدى الروايات على ما فيه من كثرة المعلومات ونتائج الاطّلاع. هذا ومما نلاحظه هو ان عاصمة القرامطة في البحرين اسمها «هَجَر» لا «حَجر» كما كُتبت . وكذلك في الصفحة ٣٨١ عوض « جاثليق » اورشليم ، يلزم « بطريرك» اورشليم .

هـ . ل .

Liefmann-Angelberger : Mineralölwirtschaft, *mit 5 Karten u. 26 Bildern*, 1927, 128 *pp.* [*aus Jedermanns Bücherei*] *cartonné*, *M.* 3, 50.

الزيوت المعدنية

كتيب قيّم في اهم موضوعات العالم الاقتصادي الآن وهو البترول خاصّة ، والزيوت المعدنية عامة . وقد اردفه المؤلف برسوم حسنة ، وخرائط وافية ، فجمع في كتابه الصغير جميع ما تهمّ المطالع معرفته في موضوع هذه الزيوت من حيث كيميائها ، وفنّ تحضيرها ، وجغرافيتها ، والحاجة اليها ، وطرق استعمالها ، وميزات المحصولات السنوية ، مع ذكر الميل الى الاستئثار بها ، وما يسمّى « بسياسة البترول.»

Le voyage d'Egypte. Alexandrie. Le Caire. [*Les guides bleus illustrés*] *Paris, Hachette*, 1929.

السفر الى مصر : الاسكندرية والقاهرة .

يبدو هذا الدليل الصغير رشيقاً جميلاً بما يزيّنه من الصور البديعة ، كتبه القبطان المتقاعد السيد شاردون (J. Chardon) فاودع فيه كل ما تلزم معرفته السائح الافرنسي الذي يودّ القيام برحلة الى مصر لا تتجاوز مدتها الاربعة او الخمسة الاسابيع . بل هو يعتبر السائح لا يعرف مرسيلية بعد . فاذا اعتبرنا هذه الغاية نرى ان المؤلف نالها حقاً بكتابه الحاوي المعلومات اللازمة دون

ادّعاء علمي . فنحن نتمنى له الانتشار الواسع الذي يستحقّه وزجو ان يفيد بعض السياح الرغبة في الرجوع ، فيعيدوا الكرة ، ويتمتقوا بدرس تلك البلاد مستندين الى دليل اوسع س. ر.

Die Union mit den Ostkirchen. Bericht über die Wiener Unionstagung Pfingten 1926, herausgegeben von DD[r] Johannes Hollsteiner. [*Beitraege zus Erforschung der Orthodoxen Kirchen. n° 2*] 1928, *Graz-Verlag von Ulr. Moser, Prix*: *M.* 3, 80.

الاتحاد مع الكنائس الشرقية

اتّحدت جمعيتان كاثوليكيتان واقدمتا على عقد مجلس في ڤينا من ٢٤ الى ٢٧ ايار سنة ١٩٢٦ ترأسه الكردينال رئيس اساقفة المدينة ، وتباحث فيه الاعضاء في مسألة اتحاد الكنائس . ثم نُشر هذا الكتاب وفيه وصف ذلك المجلس مع نشر بعض البيانات والمحاضرات التي أُلقيت فيه ، وكلها باقلام الكاثوليكيين ما عدا ثلاث منها كتبها ثلاثة روس وقد نُشرت مختصرة وهذه بعض العناوين : مسألة الاتحاد مع الشرق المسيحي بقلم لوبك (K. Lūbeck) ما يفصل وما يوحّد بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الشرقية بقلم الدكتور بومسترك (D[r] A. Baumstark) ، الكنيسة الروسية والاتحاد بقلم الدكتور هازي (D[r] F. Haase) الخ . . .

G. Capus, F. Leulliot, E. Foëx : Le tabac. *t I*, 418 *pp. in*-8° 1929. *Paris, Société d'édit. géogr. maritimes et coloniales.*

التبغ

لا شكّ بان سيكون لهذا الكتاب ، الذي ظهر منه المجلّد الاول ، شأن عظيم لدى جميع المشتغلين بالتبغ ، فانهم يرون فيه اصل التبغ ، وتاريخه ، وترتيب انواعه ، ومجمل العمليات لتهيئته وفرز الانواع المختلفة بعضها عن بعض ، وزراعته ، وجمعه ، وتهيئة بذاره ، ويتحققون ضرورة التخصّص بكل نوع من انواع التبغ . كل هذا يضمن للكتاب الانتشار الذي يستحقه . ونلاحظ انه ورد في الصفحة ١٣٠ في ترتيب انواع التبغ ذكر تبغ اللاذقية في سورية وتركية معاً ، ولعلّ في ذلك خطأً !

Annuaire pontifical catholique, 1929. *Paris, Bonne Presse.* 944 *pp. et* 237 *illustrations. Prix* : 35 *f.*

الدليل البابوي الكاثوليكي لسنة ١٩٢٩

هي السنة الثانية والثلاثون لهذا الدليل المفيد الذي يظهر حاوياً لجميع اللوائح المعروفة سابقاً ، فضلاً عن ابحاث قيّمة في كرادلة القرن الثالث عشر ، وكنيسة رومانية ، والارساليات الكاثوليكية في الهند الصينية ، واتفاق الكرسي الرسولي مع ليتوانية ، وتشيكوسلوفاكية ، والبرتقال . وعلى الجملة فالدليل المذكور اوسع مصدر للمعلومات عن الكنيسة الكاثوليكية .

D. Nielsen : The site of the biblical mount Sinaï. A claim for Petra. 24 *pp gr* 8°, 3 *pl.* 1 *carte. Leipzig, Harrassovitz*, 1928.

مركز جبل سيناء المذكور في التوراة

اصل هذا الكرّاس مقال ظهر اولاً في مجلة الجمعية الشرقية الفلسطينية سنة ١٩٢٧ ؛ ثم زيدت عليه بعض الاصلاحات ، وطُبع على حدة . اما غاية المؤلف فهي ان يضع جبل سينا في وادي موسى . واما براهينه فتستند الى اربعة اصول يكفي ان نعددها لنظهر ما فيها من الجرأة والسخافة : ١ً — يلزم ان لا يبعد الجبل المقدس كثيراً عن حدود فلسطين وواحة عين قدِس . ٢ً — من المرجح ان هذا الجبل كان هيكلاً سامياً ، لأن قدماء الساميين كانوا يعبدون آلهتهم على رؤوس الجبال . ٣ً — في هذا الهيكل القديم ، كانوا يعبدون الاله - القمر ، وهذا الاله يظهر انه ذات يهويل الاله - القمر المعروف عند الاسرائيليين . ٤ً — يلزم ان نرى في تلك البقعة تقاليد توافق اساطير التوراة ، والواقع اننا نرى وادي موسى ، وعين موسى ، وجبل هرون . فتكون النتيجة ما يزعمه الكاتب ... وقد سافر بنفسه الى تلك البقعة وشاهد اثر التقاليد الموافقة (؟) قلنا : وما كان احراه بان يُسافر الى كرك نوح فيشاهد هناك قبر نوح (وطوله ثلاثون متراً) وهو في بقعة محاطة بالكروم ، فيستدل منها على سكرة نوح ايضاً ..

س . ر .

G. Furlani: La Religione babilonese-assira. [*Storia delle religioni, VI*] *vol I. Le divinita. LXXI-362 pp.* 12°, 1 *carte. Bologna, N. Zanichelli.* 1928.

الديانة البابلية ـ الاشورية

ان هذا الكتاب للمستشرق الاستاذ فورلاني حلقة من مجموعة يديرها الاستاذ پتاتسوني وصلت اليوم الى عددها الثامن . لقد دخلت ايطالية متأخرة في ميدان مؤرخي الديانات ولكنها لم تلبث ان قطعت شوطاً واسعاً ناشرةً سلسلة من الآثار القيّمة لفتت انظار العلماء المدقّقين ، وكان في الطليعة مدير المجموعة المذكور سابقاً . امّا روح هذه الحركة فهو معاكس كل المعاكسة للوحي ويجتهد المؤلفون في حذف تأثير الوحي حيناً واحياناً في مناوءته . واما ما خلا هذه التحفظات ، فلا يسعنا الّا الثناء على العناية والطريقة البارزتين في هذا الكتاب . فان الاستاذ فورلاني ، على الرغم من كونه في اول ابحاثه الاشورية ، عرف اشهر المؤلفات والابحاث في الموضوع ، فغدا كتابه يسهّل ، حتى لغير المستشرقين ، الرجوع الى المصادر الاصلية . واننا نذكر كمثل على طريقته ، ما قاله في الصفحة ٢٣٥ ، اذ تبع وَرد (Ward) فقابل بين الاله هَدَد واله اسرائيل . هذا وللكتاب جزء ثانٍ يهتم المؤلف باعداده وسيبحث فيه عن الاشخاص الخرافية والاساطير

س . ر .

Sir Denison Ross: An arabic history of Gujarat. Zafar ul Walih by Muzaffar wa Alih, by ʿAbdallah Muhammad bin ʿOmar al-Makki al-Asfi Ulughkhâni, *vol. III,* 1928. *London, J. Murray* [*Indian Texts Series*]

تاريخ كُجَرات : القسم الثالث

وصف المرحوم الاب شيخو في المشرق (١٣ [١٩١٠] ٥٤٩ و ١٩ [١٩٢١] ٧١٠) القسمين الاول والثاني من هذا التاريخ المهمّ . واننا ، في ما خصّ القسم الثالث ، نعيد ما قاله فقيدنا عن القسمين السابقين من الثناء على همة الناشر لاقدامه على هذا العمل ، الذي كان يتطلّب مستشرقاً عالماً بالفارسية والعربية ليتمكن من الاستفادة من تلك المخطوطة الوحيدة على ما فيها من

صعوبة في النصّ واشارات الى حوادث غير مشهورة ، حتى وجده بشخص الناشر الفاضل . اما محتويات هذا القسم فلخص السلطنة الاسلامية في الهند من سنة ٧٢١ الى سنة ٩٦٥ للهجرة ، منتهياً بملك السلطان الأكبر المشهور . ومما يزيد هذا القسم قيمة الفهارس التامة والملحقات التي شرحت فيها الكلمات الغريبة من عربية وفارسية وهي كثيرة في النصوص. فنكرّر تهانئنا للناشر على نجاحه بانهاء هذا العمل الشاقّ . ه . ل .

Obermeyer (Jakob) : Die Landschaft Babylonien im Zeitalter des Talmuds und des Gaonats. *Geographie und Geschichte nach Talmudischen, arabischen und anderen Quellen.* [*Schriften der Gesellsch. z. Förderung der Wissenchaft des Judentums. n° 30*] 1929. *I. Kaufmann, Frankf. a. M. VIII-361 pp. gr. 8°, 2 cartes.*

بابل في عهد التلمود والجاوّن (١ جغرافيتها وتاريخها وفقاً للمصادر التلمودية والعربية وغيرها

هوذا كتاب يجدر بقرائنا مطالعته ، لاسيما العراقيين منهم . اقام مؤلفه الشيخ — سيبلغ قريباً الخامسة والثمانين من عمره — مدة طويلة في بلاد بابل ، وجال فيها على الحصان ، وجمع كل ما وقف عليه من الامور المتعلقة بموضوعه . وكان من اللازم معرفة التلمود معرفة تامة ، والاطلاع على اقوال كتاب اليونان والرومان في ما خصّ العصور القديمة ، وكذلك في ما خصّ عصر العرب ، الاطلاع على ما تركه هؤلاء من الآثار في الجغرافية والتاريخ . فقام بذلك واصلح كثيراً من الاغلاط التي درج عليها سابقوه في التحقيق ، وجعل كتابه سهل المأخذ على الجميع بما الحق به من الفهارس . فنتمنى له الرواج الذي يستحقه حتى بين الشرقيين الذين يقرأون اللغة الالمانية . وهذا من النوادر ! س . ر .

١) لا يخفى على قرائنا الشرقيين ان الجاوّن (גאון) هو العصر الذي ازدهر فيه، منذ القرن الثامن ، التعليم اليهودي في مدرستين شهيرتين في بلاد بابل. وقد تساهل البابليون مدة طويلة مع مروّجي هذه التعاليم. وكانت لفظة الجاوّن تطلق على رئيس الجالية اليهودية في بابل ، وكان يجمع السلطتين الدينية والمدنية

سفر التكوين

مطابع قوزما ، بيروت ، ١٩٢٩ – ٦٤ صفحة ، وسط

اهدى إلينا حضرة الاستاذ جبر ضومط من اساتذة الجامعة الاميركانية كتاباً عنوانه « سفر التكوين » حاول ان يبيّن فيه من هو كاتب هـذا السفر وما هي غاية الكاتب . قال حضرته ان درسه لاسفار العهد القديم ، ولاسيما الاسفار الخمسة وسفري يشوع والقضاة ، مدة تُنيف عن عشرين سنة ادّى به الى الاقتنـاع بان كاتب سفر التكوين « هو يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابرهيم وانّ غايته من كتابته ان يعلم مناظروه ومنافسوه في المنزلة التي حازها عند فرعون انه ابن بيت ليس هو دون بيت من بيوتهم ووارث رئاسة كهنوت ليست في منزلتها دون رئاسة كهنوت فوطي فارع كاهن اون حميه . »

قرأتُ الكتاب بكامله وحمدتُ الغاية التي توخّاها حضرة الاستاذ لانـه باتباعه هذه الطريقة بيّنَ اقلّه انه من المحافظين على صحة الاسفار الالهية . الّا اني لم اقتنع بالبراهين التي اتى بها ومرجعها كلّها الى ان كاتب سفر التكوين يذكر من الحوادث والظروف ما كان يتعذّر على غير يوسف ان يعرفها ويذكرها لِما مرّ من الزمن المديد بين وفاة يوسف وكاتبٍ عاش في ايام اخاب ملك اسرائيل او في ما بعد ايامه بقليل . فلو صحّ هذا البرهان ، لتعذّر على يوسف ذاته ان يُخبر عمّا تقدّمـه من الحوادث من زمن خلق آدم الى ايامه وهو يفوق كثيراً الزمن الذي انقضى بين يوسف وموسى كليم الله الذي تُنسب له كتابة سفر التكوين لا لكاتبٍ عاش في ايام اخاب .

وقد فات حضرة الاستاذ ان الغاية من كتابـة سفر التكوين ليست كما ذكر ، بل تبيان ان الله اختار له شعباً مخصصاً لعبادته يحفظ وديعة الوحي ومنه يكون المسيح مخلّص العالم . فاقتضت هذه الغاية ان يخبر الكاتب عن خلق العالم والانسان ، ويسرع الى الاخبار عن ابرهيم ابي الشعب المختار ، شعب الله ، فيوجز الكلام عن خلق العالم المادّي فالانسان وخطيئته ، وعن وعد الله بان نسل المرأة اي المسيح سيسحق رأس الحية ابليس ، ويأتي على قصة هابيل وقاين

ونسل قاين وشيث ، وينتقل الى حادث الطوفان ، ويتكلم باختصار عن ولدي نوح حام ويافث ونسلهما ، ويسرع الى الاخبار عن سام فيعدّد نسله الى تارح فابرهيم الذي له الموعد بالبركة للامم. ويخبر عن اسحق ويعقوب واولادهِ الذين هم اصل الاسباط الاثني عشر اي الشعب اليهودي شعب الله المختار.

اما قول حضرة الاستاذ ان يوسف كانت له رئاسة الكهنوت فلا نرى دليلًا على ذلك ولم يذكر له تقدمة ذبيحة للرب. فضلًا عن انه لم تكن في ايامه رئاسة كهنوت. بل كل من كان متعبدًا للربّ كان يقدّم له ذبائح كما فعل هابيل وقاين ونوح وايوب وابرهيم واسحق ويعقوب ومنوح وغيرهم كثيرون

وليس من غرضنا الآن ان نبيّن الحقيقة الثابتة ان الكتب الخمسة هي لموسى ولا ان نشرح باي معنى هي لهُ. يكفي القول ان المسيح قال لليهود: « لو كنتم تؤمنون بموسى لكنتم تؤمنون بي لانهُ كتب عني فان كنتم لا تؤمنون بكتبه فكيف تؤمنون باقوالي » (يوحنا ٥ : ٤٦ و ٤٧) ا. ص.

كتاب عجالة البيان في الاشارة الى ممالك الطبيعة والانسان

تأليف الخوراسقف خيرالله اسطفان

مطبعة دير سيدة المعونات ، جبيل ١٩١٨ ، قطع ١٦ ، ص ٢٧٥

ذكر المشرق (٢٧ [١٩٢٩] ٣٩٨) فضل المؤلف على الشبيبة بانتخابه مواضيع كتبه من دائرة العلوم والفلسفة تنويرًا للبصائر ودفاعًا عن المبادئ القويمة ضد السفاسف والاضاليل العصرية. وان هذا الكتاب ، على صغر حجمه غزير المادة جم الفوائد يشمل دروسًا في الكوسمولوجية والبسيكولوجية فيتناول البحث اولًا في الاجسام وجرمها وخصائصها وتكوينها ، ثم في الحي والحساس وفي الانسان وشرفه ومباني بنيته واحساسه وحواسه ، ثم ينتقل الى علم النفس وموضوعه فينظر في الفرق بين عمل النفس والجسد ، وفي سائر المشاكل المولدة من اقتران النفس بالمادة ، كأصل التصورات وعلل الاحلام والجنون وتفاعل النفس والجسد ، ويخصّ قسم كتابه الاخير بدحض مذهب التطوّر. فنتمنى لهذا الكتاب الانتشار بين الشبيبة ، ونرجو له عند طبعته الثانية زيادة اتقان بالطبع وايضاح بالاسلوب. ف. ت.

علم الاخلاق

تأليف محمود البشبيشي وعبد الغفار طنطاوي

مطبعة التاج المصري ، طنطا ، ١٩٢٩ – ص ١٢٠ ، صغير

هو كتاب تعليمي في الاخلاق ألف وفقاً للمنهاج الحديث الذي وضعته وزارة المعارف المصرية ، وغايته ان يُدرَّس في المدارس الثانوية الاسلامية . نقول الاسلامية لانه يضرب صفحاً عن آثار الاخلاقيين النصارى من الذين تقدَّموا الاسلام فهو لا يرى من الذين اشتغلوا بالاخلاق سوى سقراط ، وافلاطون ، وارسطو ، والقرآن . ثم ينتقل الى فلاسفة العرب فالاوربيين . . . وما عدا هذا النقص ، فالكتاب كافٍ للاولاد الذين وُضع لهم يحدّد لهم حقوقهم ويدلهم على واجباتهم تجاه خالقهم ، وانفسهم ، واهلهم ، ووطنهم ، والانسانية جمعاء .

ف . ا . ب .

بعض روايات شكسبير

ملخصة بقلم امين الغريّب

مطبعة « مكتبة صادر » بيروت ، ١٩٢٩ – ص ٧٩ ، وسط

هي هدية ارسلها حضرة الزميل الفاضل صاحب « الحارس » الى مشتركيه الذين سدَّدوا حسابهم حتى تموز ١٩٢٩ . وقد جمع فيها ملخص ٧ روايات للشاعر الانكليزي الاكبر وليم شكسبير هي : الزوبعة ، حلم ليلة ، مكبث ، حكاية الشتاء ، هملت امير الدانمرك ، روميو وجولييت ، باريكلاس امير صور . وانه وان يكن الزميل « لم يحاول تعريب روايات شكسبير كما هي ، ولا وضع شيئاً من آثار الفلسفة العملية التي وضعها الشاعر على السنة جميع الاشخاص في رواياته » فقد افاد من يحبون الاطلاع على مواضيع تلك الروايات دون الاهتمام بدرس شخصية المؤلف الروائي .

ف . ا . ب .

* الشيخ ناصيف اليازجي * بقلم حضرة الخوري نقولا ابي هنا ب . م . استاذ الخطابة والبيان في مدرسة دير المخلّص . نشر تباعاً في مجلّة « المسرّة » – مطبعة القديس بولس في حريصا (لبنان) – ٤٩ صفحة متوسّطة .

اهمّ حوادث الشرق في شهر

١٥ حزيران — ١٥ تموز

رومية : اعرب قداسة الحبر الاعظم عن رغبته في ان تبنى في القاهرة كنيسة باسم قلب يسوع الاقدس ووافق على بثّ دعوة للتبرع لهذا المشروع ، وارسل الى من سيقام راعياً على تلك الكنيسة تبرعاً بمئة الف و ١٢ الف فرنك. وجاء من الفاتيكان ان الاب الاقدس امر في بناء محطة لاسلكية في اراضيه ، تكون ذات قوة لا تضاهيها قوة ايّة محطة غيرها في العالم . وسيُقام فيها تلغراف وتلفون معاً فترسل بهما الخطب البابوية والاخبار الفاتيكانية الى اقاصي المعمور . ويسمع بواسطتها ما يجري في الكنيسة البطرسية من حفلات ، ويرتّل من انغام . وسوف يقوم الاميركان الكاثوليك بنفقات تلك المحطة التي تقدر بثلاثين مليون لير ايطالي

سورية ولبنان : من اجلّ حوادث شرقنا العزيز انتخاب السيد ديونيسيوس جبرائيل تبوني رئيس اساقفة حلب بطريركاً انطاكياً على السريان الكاثوليك باتحاد الاصوات واتفاق القلوب ، في صباح ٢٤ حزيران في كنيسة سيدة النجاة بالشرفة

صاحب الغبطة اغناطيوس جبرائيل تبوني ولد في الموصل ٣ ت ٢ ١٨٧٩ ، وابوه داود بطرس تبوني وامه امينة سليمان زبوني

تلقن مبادئ العلوم في المدرسة الطائفية في الموصل ، ثم دخل مدرسة الآباء الدومنيكيين الاكليريكية ، وسيم كاهناً سنة ١٩٠٢ فتولى تدريس الاكليريكيين ستة اعوام ، ثم ادارة المدرسة الطائفية وتعليمها

وفي السنة ١٩٠٨ عُيّن كاتب اسرار القصادة الرسولية وكان يحدث نفسه بالزهد والحياة النسكية في دير مار بهنام ، لما رقي في ١٩ ك ٢ ١٩١٣ الى الاسقفية مع السيد فليبانس ميخائيل ملكي الذي قتل شهيداً في حزيران سنة ١٩١٥ .

تولى النيابة البطريركية في ماردين ، فاحبّ رعيته وجذب اليه قلوبها خاصةً في ايام الحرب اذ صارت دار البطريركية اشبه بالمستشفى والميتم ومأوى الغرباء والمعوزين . وحلّ الاضطهاد بالنائب البطريركي فحبس اولاً في ماردين ثم في حلب ومن بعدها في مغارة ضيقة في جبل سمعان ، وتجرع كأس المرائر مع سيده الفادي ومرض مرضاً مؤلماً.

في ايار ١٩١٩ عين مطراناً في حلب وايده الحبر الروماني في ٢١ ت٢ ١٩٢١ ، فصرف همه الى انجاح المدارس والاوقاف واعتنى بالمهاجرين وشاد لهم كنيسة وميتماً . والسيد تبوني معروف بسدادة الرأي والرزانة ، وحبّ السلام والاتفاق وبتمسكه الشديد بالسدة البطرسية . فاحدث خبر انتخابه الى المقام البطريركي فرحاً وهللت له الكثلكة في الشرق ، وتمت حفلة جلوسه على الكرسي البطريركي في عاصمة لبنان في كاتدرائية مار جرجس السريانية صباح الاحد ٣٠ حزيران في لفيف الاساقفة وبحضور المفوض السامي ورئيس الجمهورية اللبنانية

***

يوم السبت ٢٩ حزيران وصل الى بيروت من مصر صاحب الغبطة السيد كيرلس التاسع بطريرك الروم الكاثوليك

عقد في بيروت مؤتمر الروم الارثوذكس من غير ما تنتج عنه نتائج واضحة ، ولعلّ تدخل العلمانيين في شؤون الكنيسة هو الداعي الاساسي لعدم التوفق الى بلوغ الارب في انتخاب البطريرك . والقوم يتحدثون في وضع قانون للانتخاب ، قبل الانتخاب ومن البديهي ان وضع ذلك القانون عسير القيام به من غير ان يكون على المؤتمرين رأس له سلطة الحل والعقد

في ١٩ و ٢٢ حزيران تم في انقرة الاتفاق بين فرنسة وتركية على مسألة الحدود السورية ـ التركية . ومن نتائجها ١ً : تعيين الحدود الشمالية بصورة نهائية واسترداد نحو ٨٠٠ كيلومتر مربع من الاراضي التي كان الاتراك يحتلونها وفيها منفذ على دجلة عرضه ٣٠ كيلومترا تقريباً . ٢ً ضمانة الامن على الحدود . ٣ً تمتع سورية بوجود محطات لسكة حديد بغداد ضمن ارضها . ٤ً وضع خطط موافقة لحل المشاكل الناتجة من ممتلكات السوريين واللبنانيين في تركية والاتراك في سورية ولبنان . ورضيت فرنسة بتسليم الاتراك الخط الحديدي بين مرسين وادنة

وفي ١٦ حزيران صار انتخاب ٣٠ من النواب اللبنانيين وعين ١٥ بمرسوم من رئيس الجمهورية . وعقد المجلس الجديد جلسته الاولى في ١٣ تموز فانتخب له رئيساً الشيخ محمد الجسر . وحمل بعض النواب على الحكومة املاً باسقاط الوزارة . لكن رئيس الوزراء ، الشيخ بشاره الخوري ، ردّ عليهم بعبارات سديدة ، وخرجت الوزارة ظافرةً من المعمعة ف . ت